حرب العَالَمَيْن الأولى

حرب ضد بلد عربي ـ مسلم من العالم الثالث

تحرير وترجمة:
صبحي حديدي

ادوار سعيد
محمد حسنين هيكل
هنري كيسنجر
نوام تشومسكي
آلان غريش
جورج بول
ماري كالدور
دانييل بايبس
نيل اشيرسن
الكساندر كوكبرن
جو ستورك
توماس فيرغوسون
كيڤن روبنز
آن ليش
اندرو ستيڤن

شارلز كراوتهامر

حرب العَالَمِيْن الأولى

حرب ضد بلد عربي ـ مسلم من العالم الثالث

* الطبعة العربية الأولى، ١٩٩١.

* الناشر:
* شركة الأرض للنشر المحدودة

56, Griva Dighenis
Anna Tower - First Floor
P.O.Box 3074
Limassol - Cyprus
Telex No. 6251 A.Z.
Fax No. 05 - 369928
Tel No. 05 - 366494 - 366018

* دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث

133 Makarios Avenue,
Classic House Building - Office No. 4
Tel - (357 - 5) 387463
Fax - (357 - 5) 387464
Limassol - Cyprus

توطئة

اختيرت هذه المقالات من بين ركام هائل من الأبحاث والدراسات والمقالات التي تناولت أزمة الخليج في الفترة من آب / أغسطس ١٩٩٠ وحتى نيسان / ابريل ١٩٩١ . معايير الاختيار لم تكن بالأمر اليسير وسط الدرجة المذهلة من الاسفاف وفقدان الموضوعية والإثارة الرخيصة حتى عند كتّاب ذوي باع طويل في تحليل السياسة الدولية.

المقالات المختارة هنا تلتقي في سمات الجدّية والرصانة العلمية والعمق، لكن مناهجها الفكرية وتقديراتها وأحكامها تتباين (وتلتقي) حول هذه النقطة أو تلك، وغنيّ عن القول أننا نتفق أو نختلف معها بهذه الدرجة أو تلك، في هذا الاستنتاج أو ذاك.

ويجب القول ان الزمن وضرورة تقديم آراء رصينة للقارىء العربي في هذه الفترة بالذات كانا في رأس العوامل التي أسهمت في صناعة نقاط ضعف الكتاب. في كل حال، كان مقدّراً لنقاط الضعف تلك أن تكون أكثر بكثير مما هي عليه الآن، لولا مشهدين حاسمين:

١ ـ طيّار أمريكي خطّ بالطباشير العبارة التالية على أحد صواريخ طائرته:

TO SADDAM AND HIS ARABS, WITH BEST WISHES FROM THE "INFIDELS"

(إلى صدّام وعَرَبه، مع أطيب تمنيات «الكفرة»)

٢ ـ كهل عراقي صلب القسمات ذرف دمعة بابلية ـ عبّاسية عسيرة أمام ملجأ «العامرية» وهو يرقب ما تبقى من أشلاء حفيده.

لقد طهّرني المشهد الأول من آخر الأوهام حول «علمانية» الغرب، دون أن يفقدني احترامي لأدمغة وضمائر غربية لامعة وشريفة نظرت الى حرب جورج بوش كما ينبغي أن ينظر اليها، بمرآة العقل والعدل.

أما المشهد الثاني فقد ذكّرني بوجوب شحذ جميع الأسلحة... في انتظار البرابرة.

صبحي حديدي

أيار / مايو ١٩٩١

مقدمة

■ صبحي حديدي

في عام ١٩٤١ نحت هنري لوس LUCE تعبير «القرن الأمريكي» في اشارة إلى أن «البراءة» التي أشاعها المؤسسون من أمثال لنكولن وجيفرسون هي في طريقها لعبور المحيط والانتشار في جهات الكون الأربع.

بعد أربع سنوات خرجت الولايات المتحدة الأمريكية من الحرب العالمية الثانية بصفتها القوة الأعظم على وجه الكون، فالكارثة التي دحرت رايخ هتلر وامبراطورية اليابان أقعدت الحلفاء أيضاً: انكلترا على شفير الإفلاس، ومجتمعات فرنسا وايطاليا منقسمة على نفسها، والسوفييت مشغولون بدفن ٢٠ مليون قتيل. الولايات المتحدة هي الآن صيرفي العالم الأول، والمالك الوحيد لأسلحة فتاكة قادرة على صنع وصياغة السياسات الكونية.

«معجزة أمريكا» هو اسم الدليل السياحي والاعلاني الرسمي الذي كان الامريكيون يوزعونه بحماس واعتزاز في مطلع الخمسينات. احدى فقرات الدليل تقول: «نحن لا نتجاوز ١/١٥ من مجموع سكان العالم، ونشغل النسبة ذاتها من مساحة الكرة الأرضية، ونمتلك ما يقلّ عنها من المواد الطبيعية. لكننا أكثر من نصف انتاج العالم من النحاس والمطاط، وثلثي انتاجه من الحرير والنفط الخام، وربع انتاجه من الفحم. لدينا أكثر من ثلاثة أرباع سيارات العالم، وأكثر من نصف هواتفه وشبكات الإرسال البرقي والاذاعي».

والتاريخ يضرب أمثلة على قوى عظمى أخرى لمست في نفسها القدرة على قيادة الكون بهبة من الله أو القدر. في القرن الأول قبل الميلاد رأى شيشرون أن الشعب الروماني يتحمل مسؤولية «رعاية الكون» وفرض القانون الروماني على الشعوب «البدائية» بالإقناع أو الإكراه. تلك كانت مرحلة «السلام الروماني» Pax Romana. الامبراطورية البريطانية كانت «عبء الرجل الأبيض» كما فرضته يد التاريخ الجليلة. خلال الحرب العالمية الأولى كتب جورج أنوين Unwin أن «حسّ الامبراطورية ملائم لمزاج الانكليزي، لكن ضميره السياسي ينفر منه. ماذا بوسعه أن يفعل؟ لا مهرب من قبول هذا الواجب الأعلى الذي فرضه الله،

وهذا الشرف الذي أسبغه عليه القدر » . تلك، بدورها ، كانت حقبة « السلام البريطاني » Pax Britannica .

بيد أن امبريالية الولايات المتحدة حالة استثنائية في بواعثها وأهدافها ، رغم أنها - بالطبع - هبة من الله وواجب لا يجوز التواني عن القيام به! محللّ أمريكي ظريف لم يتوان عن الشكوى من هذا العبء المقدس في تحليله لما يسمّيه « الامبراطورية بالصدفة العمياء » . يقول رونالد ستيل: « على النقيض من روما ، امبراطوريتنا لم تقدم على استغلال أطرافها وشعوبها . على العكس تماماً ... نحن الذين استغلتنا الشعوب واستنزفت مواردنا وطاقاتنا وخبراتنا »(١)

السلامان الروماني والبريطاني كانا ، في الجوهر ، سلسلة ترتيبات استهدفت حماية المصالح الرومانية والبريطانية عبر خلق نسق خاص من النظام والقانون تنتعش فيه تلك المصالح ، وسخّرا الجهد العسكري الضروري لحماية ذلك النسق . « السلام الامريكي » Pax Americana يفترض مسبقاً حالة من التطابق والتوافق التامّين بين مصالح الولايات المتحدة ومصالح الانسانية جمعاء ، والحكومات أو الحركات السياسية التي تعترض على هذه الفكرة تضمر نوايا شريرة وعدوانية بالضرورة . الحرب ضد أولئك العصاة تصبح ، تأسيساً على ذلك ، مهمة مقدسة تستهدف خير البشرية والمجتمع الدولي ، وحملة صليبية مديدة متجددة من أجل عالم « لائق » و« حرّ » و« ديمقراطي » .

في الأمر غرابة حقاً ، فهذا « السلام الامريكي » يتصف بأنه خير من يرسل ، وأسوأ من يستقبل . لأن الأمريكيين يرسلون بفعالية عالية ، فإن الانسانية تكاد تتأمرك . ولأنهم يستقبلون بشكل بالغ السوء ، فقد قاوموا طويلاً محاولات أنسنتهم ، بمعنى « تعليمهم كيفية التجاوب مع حاجات ورغبات الانسانية في ما يتبقى من العالم خارج حدود الولايات المتحدة »(٢) . هذه المشكلة بالذات تزيد يوماً بعد يوم الهوّة الفاغرة بين « العالم الامريكي » والعوالم الأخرى التي يأتي العالم الثالث في رأسها بطبيعة الحال .

والأمريكيون يملكون عدداً متنوعاً ومتشعباً من لغات الإرسال والاتصال مع العالم الخارجي . ولكن ينبغي تمييز تلك الوسائل الموضوعة بتصرفهم عن تلك التي

---

(١) Ronald Steal, **Pax American** (New York, 1967), p.17.

(٢) Ali Mazrui, "Uncle Sam's Hearing Aid", in Sanford J. Ungar, ed., **Estrangement: America and the World,** (New York, Oxford: 1985), p.181.

يستخدمونها فعلياً، وعن شكل وغرض استخدامها.

الانتاج هو احدى تلك اللغات. الولايات المتحدة دخلت الحرب العالمية الثانية كدولة بين عدّة دول متكافئة - أو تكاد - في قدراتها الاقتصادية، وخرجت منها باعتبارها صاحبة الاقتصاد الأعظم في الكون. ذلك جعلها تمتلك وسائط اتصال فعالة مثل الطاقة الانتاجية (وأقرب أمثلة استخدامها كان قرار كارتر حظر تصدير الحبوب الى الاتحاد السوفياتي اثر غزو الأخير لأفغانستان)، وقوّة الاستهلاك العالية، والسيولة المالية المباشرة كما تتميّز عن السلعة (نفوذها في البنك الدولي وصندوق النقد الدولي والمصارف التجارية الكبرى في أوروبا).

لغة ثانية هي التكنولوجيا، التي استخدمت كوسيلة ضغط منذ الحرب العالمية الثانية وحتى الآن. لقد تمثلت تلك اللغة في حظر تصدير التكنولوجيا أو وقفها حين تكون قد قطعت مراحل حاسمة (تعطيل مشروع مدّ أنبوب الغاز السوفياتي الى أوروبا الغربية) وحظر تصدير التكنولوجيا النووية لأغراض صناعية في دول العالم الثالث، وفرض مؤامرة صمت على حالات متقدمة أو ناجزة من تطوير الأسلحة النووية (عند دول حليفة مثل اسرائيل).

لغة ثالثة هي القدرة على تكريس حالة تناقضية بوسائط ثقافية وسياسية - اقتصادية. «الرأسمالية» و«الديمقراطية» خير مثال. إذا نُظر الى الرأسمالية كعقيدة لاقتصاد تنافسي ينتج قوى السوق، فإن الديمقراطية الليبرالية هي - بالضرورة - عقيدة السياسة التنافسية التي تخلق التعددية السياسية[٣]. الميزان الحسابي النهائي هو ببساطة: تصدير رأسمالية أكثر، وديمقراطية أقل. وفي حين تعلق الحملات الامريكية من أجل حقوق الانسان لافتة الغاية الأخلاقية (ديمقراطية) لا تجد الحملات من أجل اقتصاد السوق مفرّاً من اعلان الربح وفائض القيمة (الرأسمالية)، فتكون المعادلة هكذا: لكي نعطيكم الديمقراطية ينبغي أن تقبلوا الرأسمالية... بشروطها التبادلية الراهنة!

أقلّ إثارة للضجيج - لكنه قطعاً ليس أقل حساسية - قيام الولايات المتحدة بتصدير أسلوب حياة خاص الى العالم دون استيراد شيء عملياً. المجلات المصورة أكثر انتشاراً من الرواية، الطعام السريع (ماكدونالد، دجاج كنتاكي، همبرغر) أكثر شعبية من الأطباق الأمريكية الخاصة، المسلسلات التلفزيونية البوليسية والميلودرامية أكثر شيوعاً من البرامج العلمية والتربوية والإخبارية،

(٣) المرجع السابق، ص ١٨٥.

سراويل الجنز أكثر شهرة من أي زيّ وطني أمريكي... المفارقة هنا أن الولايات المتحدة أحرزت نجاحات باهرة في نقل ثقافتها الشعبية الى العالم، لكنها عجزت عن استقبال مؤثرات ملموسة من ثقافات شعبية أخرى. وحين يحدث ذلك (مثل تسلّل الإيقاعات الافريقية والكاريبية الى الأغنية الامريكية) فهو يحدث بقوّة الأمر الواقع، ويظلّ محصوراً في الكثافات السكانية للمهاجرين.

والامبراطورية الأمريكية لم تشف من سلسلة أمراضها المزمنة التي ولدت معها، وعلى رأسها دمج الفضيلة الدينية بالإثم العرقي، والرأفة المسيحية بالحساسيات الديمقراطية. عند انجاز دستورها كانت الولايات المتحدة قد قطعت شوطاً كبيراً على طريق فصل الدين عن الدولة، وتمّثلت بسرعة فائقة انجازات الدولة العلمانية الغربية لتنظيم ذلك التعدّد الثقافي والمذهبي والعقائدي الواسع الذي يسم مجتمعها. غير أن أمريكا ـ التي تعلّمت وطبقت التسامح الديني أكثر من أوروبا، فشلت في بلوغ الدرجة المطلوبة من التسامح العنصري، وظل مبدأ «الآخر المتساوي/ المختلف» راسخاً وعميق الجذور. أبراهام لنكولن بشّر بحرية الزنوج وتحرير العبيد، لكنه لم يستطع ـ ولم يقبل ـ مساواتهم مع البيض. في عام ١٨٥٨ ألقى خطاباً قال فيه:

«إذا كنت لا أريد لامرأة سوداء أن تكون عبدة، فهل يعني هذا أنني أريدها زوجة؟ [هتاف وضحكات]. انني سأقف حتى النهاية إلى جانب قانون يحظر التزاوج بين البيض والسود. وسأقول بأنني لم أكن ـ ولن أكون أبداً ـ من دعاة المساواة الاجتماعية أو السياسية بين العرقين الأبيض والأسود [تصفيق حاد]، أو من دعاة منح السود حق التصويت أو عضوية هيئات المحلفين، أو تأهيلهم بما يتيح امكانية شغلهم للوظائف التي يشغلها البيض»[٤].

بعد أبراهام لنكولن بأكثر من مائة عام ظلّ جيمي كارتر يصلّي في كنيسة للبيض، وظلّ مندوبه لدى الأمم المتحدة أندرو يونغ (أسود) يصلي في كنيسة للسود.

ولو بقيت هذه الازدواجية الامريكية (ليبرالية دينية وعصبية عنصرية) منحصرة داخل حدود الولايات المتحدة، لهان الأمر وظلّ سمة محلية. لكن الازدواجية ذاتها عبرت المحيط ووجدت أفصح تعبيراتها وأكثرها فظاظة في

---

(٤) Louis Ruchames, ed., **Racial Thought in America From Puritans to Abraham Lincoln,** (New York, Grosset 1969) p.382.

السياسة الخارجية وبرامج المساعدات الاقتصادية الخارجية. خلال تطبيق خطة مارشال، أنفقت الولايات المتحدة ٢٠ مليار دولار في خطط التنمية والتعمير الأوروبية (كان المبلغ خيالياً آنذاك). أما في اسرائيل وحدها فقد أنفقت ما يفوق مجمل المبالغ المرصودة ضمن خطة مارشال، حتى أن احدى الاحصائيات الطريفة تشير الى أن ما منح لاسرائيل يتجاوز كثيراً مجموع ما أنفق على ٣٠ مليون أسود أمريكي.

«القرن الأمريكي» الذي تنبأ به لوس حصل فعلاً، لكنه دام ٢٦ عاماً فقط. لقد انتهى حين دخلت ثلاثة عوامل على المشهد الستراتيجي الدولي:

- رسوخ وتوطد الاتجاهات والحركات القومية الثورية وانهيار النظم الامبريالية الأوروبية التقليدية (صيغة الاستعمار القديم) واستقلال عدد كبير من دول العالم الثالث.
- انتصار الرأسمالية في قوتين أساسيتين من دول «المحور» المهزوم. لقد لعبت الولايات المتحدة دوراً مركزياً في انتعاش اليابان وألمانيا، ليس دون أسباب ضرورية جوهرية للاقتصاد الامريكي ذاته.
- بلوغ سباق التسلح بين المعسكرين درجة «الخيار صفر»، أي المرحلة التي لم يعد فيها أي معنى لمفهوم «التفوق» مع ولادة الأجيال الجديدة من الأسلحة النووية والصاروخية.

العالم ازداد تأمركاً، في حين تضاءلت أنسنة أمريكا لأنها عجزت عن تلبية أربعة شروط:

- توطيد التسامح الامريكي ازاء التعدد الثقافي الكوني.
- بلوغ درجة أعلى من التفهم لحاجات الأمم الأخرى الاقتصادية الحيوية.
- نزع الصبغة العنصرية عن الرؤية الأمريكية للعالم.
- وقف التدخل السياسي والعسكري في قضايا العالم الثالث.

* * * *

يرى ريشارد بارنيت أن قيام أية دولة بارسال جيوشها الجرارة عبر البحار أمر ينطوي على عدة أسباب: طاقة قلقة لقوّة متعاظمة، صرف الأنظار عن مشكلات داخلية عالقة، انعدام الأمن في الداخل، البحث عن الأسواق والمواد الخام، هوس لعب دور الشرطي العالمي، أو شهوة الفتح بكل بساطة(٥).

---

(٥) Richard Barnet, **Intervention and Revolution,** (Washington, 1968) p.8

«كلّ ما يجري من حولنا يؤثر علينا»، هكذا خاطب لندون جونسون القوات الامريكية في ڤييتنام عام ١٩٦٦. قد تبدو المحاكمة منطقية لولا العبارة اللاحقة: «لأن أي حدث سيصل سريعاً الى عتبات بيوتنا». ولأنه كان يفتقر الى السفسطة الفكرية اللازمة، فقد قالها على المكشوف: «عدد سكان العالم ٣ مليارات، ونحن لا نشكل أكثر من ٢٠٠ مليون نسمة. انهم يفوقوننا بنسبة ١٥ الى ١، واذا أتيحت لهم الفرصة فسينقضون علينا ويستولون على ما نملك. ما يحتاجون اليه متوفر لدينا»[٦].

والحق أن «الحارس الساهر فوق أسوار حصن الحرية في العالم»، على حد تعبير جون كنيدي، عاني من فكرة المنعة والمناعة منذ أيام توماس جيفرسون: «نحن أمة فصلتها الطبيعة والمحيط العريض عن كابوس فناء ربع الكرة الأرضية». لم يتوقف القادة الامريكيون عن بناء وصناعة مستوى مطلق من الأمن، سواء عبر «العقائد» (من مونرو الى ترومان وكارتر) أو الأنساق العسكرية (من أسطول القرن التاسع عشر الى «حرب النجوم») مروراً بالاتكاء المحض والفج على الجغرافيا. ولأنهم آمنوا بإمكانية ضمان مستوى مطلق من الأمن، فقد نظروا الى أي تهديد مهما صغر شأنه على أنه خطر داهم يمس مصالح الولايات المتحدة الحيوية.

لم يكد «القرن الامريكي» ينتهي مع هزيمة ڤييتنام، حتى ولدت «علّة ڤييتنام» Vietnam Syndrome لتكون فاتحة قرن جديد وصياغة سيكولوجية خبيثة تُقدّم للرأي العام الداخلي لتسويغ سلسلة طويلة من التدخلات العسكرية في شؤون العالم الثالث. انها - في كل مرة - حملة صليبية من أجل الحرية والأمن الجماعي وردع العدوان وتطبيق القانون الدولي و... التخلّص من «علّة ڤييتنام»[٧]. لقد تحوّل هذا الكابوس (الذي تكوّن في الضمير الشعبي الأمريكي كتذكرة بمآسي ڤييتنام وضرورة عدم تكرارها بالحدّ من التدخل الخارجي) الى عامل معيق للسلام والاستقرار الدوليين، هكذا بقدرة قادر! بعد إعفائه من وزارة الدفاع مباشرة، كتب جيمس شليزنجر يقول: «استقرار العالم يهتريء بسبب انعزال القوة الامريكية والسياسة الامريكية. انه يعكس عوامل ملموسة مثل تدهور التوازن العسكري وتبدّل الموقف السيكولوجي للولايات المتحدة

---

(٦) صحيفة «نيويورك تايمز»، ٢ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٦٦.

(٧) Michael T. Klare, **Beyond the "Vietnam Syndrome"**, (Washington: 1981) p.2

كأمة تنسحب من أعبائها في القيادة والقوّة».

عند أمثال شليزنجر، يعتبر عدم تورط الولايات المتحدة في أنغولا وأثيوبيا وايران علامة على ضعف أمريكا وليس عقلنة سياساتها. «تسببت ڤييتنام في فقدان الثقة بقدرة الولايات المتحدة على الدفاع عن الأنظمة غير الشيوعية في العالم الثالث» ونشرت مجلة Buisness Week على غلافها صورة لتمثال الحرية وقد اغرورقت عيناه بالدموع، تحت عنوان عريض يقول: «اضمحلال قوّة الولايات المتحدة». ورغم أن جيمي كارتر هو بطل فكرة «قوات الانتشار السريع» فقد تعرّض لهجوم عنيف واعتبر مسؤولاً عن فقدان هيبة الولايات المتحدة في العالم لأنه رفض التدخل عسكرياً لمنع سقوط شاه ايزان، ولم يرسل قوات الى أوغادين وأنغولا.

كان طبيعياً بالتالي أن يكون انتخاب رونالد ريغان وتدشين الحقبة الريغانية بمثابة ثورة على الضعف الامريكي واستعادة لجبروت القوة العظمى (وطرد لـ «علّة ڤييتنام» كمعزوفة مكرورة). الرؤية الريغانية نهضت على مفهومين ستراتيجيين: أشكال التعامل مع النزاع الخفيف Low Intensity Conflict، أو LIC، الذي لقي اهتماماً محدوداً في السبعينات اثر هزيمة ڤييتنام، لكنه اكتسب حيوية متجددة في مطلع الثمانينات مع احياء اهتمام الادارة الامريكية بالعالم الثالث. ارتقى ريغان بمهوم LIC ليعطيه أولوية عسكرية في ولايته الثانية حين انتقل اهتمام الادارة من سباق التسلح النووي إلى التسابق على أنظمة الجنوب التي كانت موالية للاتحاد السوفياتي. المفهوم الثاني هو النزاع المتوسط Mid-Intensity Conflict، أو MIC، وهو القتال الذي تخوضه القوات الامريكية ضد قوى كبرى في العالم الثالث. وإذا كان LIC مخصصاً لمواجهة ضروب حرب العصابات والجيوش الصغيرة المحدودة (باناما)، فإن MIC مخصص لحرب واسعة النطاق تشترك فيها قوات وصنوف وأنظمة قتالية عالية المستوى والتدريب والتسليح (العراق)[٨].

جديد رونالد ريغان تضمّن أيضاً ما أسماه ستراتيجيو البنتاغون «الحرب ونصف الحرب». لقد افترض هؤلاء أن الولايات المتحدة قد تجد نفسها في حالة حرب شاملة في أوروبا ضد حلف وارسو (هذه هي «الحرب الكاملة»)، وتجد

(٨) في وقت مبكر التقط مايكل كلير هذه النقطة الهامة وأشار اليها في مقالته الممتازة «القوات العسكرية الأمريكية تيمّم وجهها شطر الجنوب» انظر:

The Nation, June 8, 1990

نفسها في الآن ذاته امام احتمال مواجهة محدودة تكميلية في انحاء مختلفة من العالم الثالث (وهي «نصف الحرب»). ولكي تكون القوات الامريكية قادرة على التعامل بكفاءة عالية مع قوات حلف وارسو في الوقت الذي تردع فيه أية جيوب في العالم الثالث، توجب استحداث وحدات عسكرية على درجة من القوة توازي، وتتوازى مع، قوات الحلف الأطلسي. وفي أواخر عهد ريغان وبدايات عهد جورج بوش، بدأ الحديث يتعالى عن ستراتيجية «حربان ونصف الحرب»: واحدة لحلف وارسو، واحدة لقوى العالم الثالث الكبرى (العراق ـ الباكستان) ونصف لدول وجيوش من نوع باناما وغرينادا.

التهديد الذي شكّلته دول مثل العراق أخذ يتضح بعد انتخابات ١٩٨٨ مباشرة. مدير وكالة المخابرات المركزية لاحظ أن «الاتحاد السوفياتي ليس مركز اهتمامنا الوحيد بطبيعة الحال. اهتمامنا الآخر منصب على انتشار الاسلحة المتطورة والاسلحة الصاروخية على وجه الخصوص». عضو هيئة الأركان المشتركة بيتر هارلي أعلن في كانون الثاني / يناير ١٩٨٩ أن «دحر قوى العالم الثالث الجبارة يتطلب أوالية انتقال تكتيكية عالية، وأسلحة ذات قدرة هائلة على التدمير والفتك». مجلة U.S. News and World Report (حزيران / يونيو ١٩٩٠) نشرت تحقيقاً موثقاً مطولاً عن الجيش العراقي، وحمل غلافها رسماً لصدام حسين وعبارة تقول: «أخطر رجل في العالم». جورج بوش من جهته تحدث في أكاديمية حرس الشواطىء في عام ١٩٨٩ قائلاً: «التلاؤم مع التغيرات الجارية في الاتحاد السوفياتي سيكون واحداً من تحدياتنا الكبرى. لكن التحديات الأمنية التي نواجهها اليوم لا تأتي من الشرق. ان ظهور قوى اقليمية مجهزة بأسلحة متطورة يدخل تعديلات جوهرية على المشهد الستراتيجي». وأضاف: «ينبغي علينا وعلى حلفائنا بناء ستراتيجية جماعية لضمان الاستقرار في العالم».

انها إذاً عودة الى الهوس الأمريكي القديم بمستوى الأمن المطلق، حتى بعد أن انفضّ السامر في «المعسكر الاشتراكي» وانفرط عقد حلف وارسو وانكفأت أوروبا الشرقية تلعق جراحها بين مطرقة اقتصاد السوق وسندان هياكل انتاجية مغتربة. انه إذاً ذلك التوق الأمريكي العارم الى لعب دور الشرطي العالمي، والقلق العميق حول هوية وديمومة الدولة الأعظم. عشية غزو غرينادا قال رئيس هيئة الأركان المشتركة، الجنرال كولن باول: «ينبغي أن نعلّق لافتة على أبواب بيوتنا تقول: هنا تسكن القوة الأعظم. سنظل كذلك مهما فعل الاتحاد

السوفياتي، وحتى إذا خرج من أوروبا الشرقية نهائياً».

ولقد خرج، ويخرج كل يوم. القلق حول مكانة الولايات المتحدة كقوة عظمى تسارع في خريف ١٩٩٠ حين سقط جدار برلين منذراً بنهاية الحرب الباردة. طيلة أربعين عاماً رفعت أمريكا لواء قيادة «العالم الحر» ضد النظام «التوتاليتاري» السوفياتي وانتهاكاته للحرية والديمقراطية في كل مكان. هذه الصورة الذاتية للمخلّص جعلت الامريكيين «يرفعون الرأس عالياً»، حتى حين كان ذلك ينطوي على ضربات موجعة لاقتصادهم. بيد أن هذا القائد العجوز مضطر الآن للمزاحمة الشديدة مع قوى جبارة اقتصادية مثل اليابان والمانيا من أجل «انتزاع» دور القائد. هي أزمة هوية، هكذا يستخلص السناتور داڤيد بورين: «لا أظن أننا نفهم على وجه الدقة أن اضمحلال الاتحاد السوفياتي هو اضمحلال لنا أيضاً». الأمم الأوروبية واليابان كانت مستعدة لاعطائنا دور القيادة حين كان المناخ الدولي يجعل ذلك جزءاً من مصلحتها. «ما دام هنالك تهديد سوفياتي، وتهديد من حلف وارسو، وغطاء دفاعي نؤمنه لهم... فانهم بحاجة للولايات المتحدة». والآن، مع تراجع تلك التهديدات والمخاطر، هل ستقبل باستمرار الدور القيادي للولايات المتحدة؟ يجيب السناتور بورين: «لا أعتقد ذلك».

ولأن فكرة فقدان هذا الموقع القيادي الكوني تجثم كالكابوس على وجدان جيل الحرب الباردة من القيادات الأمريكية، فقد صرف محللو الادارة ساعات عمل اضافية طويلة وشاقة لاستخلاص سياسات جديدة تضمن الهيمنة الأمريكية على حقبة ما بعد الحرب الباردة. أبرز الصياغات تصبّ في محورين: جيو - اقتصادي وجيو - ستراتيجي[٩].

المحور الأول يدافع عنه قطاع عريض من أصحاب المصالح السياسية والمالية، ويدعو إلى تحجيم المؤسسة العسكرية الأمريكية الراهنة، والتركيز على استثمارات هائلة في ميادين العلوم والتكنولوجيا والتجارة والتربية لمجاراة الأسواق العالمية ومنافسة المانيا واليابان بفاعلية. دعاة هذا الرأي يحاججون أنه ما لم تستعد أمريكا استقلالها الاقتصادي وقدرتها على المنافسة، فإن حرية تحركها في العالم وأمنها القومي سيتعرضان لأفدح الأخطار. يجب الاعتراف

(٩) يقدّم مايكل كلير تحليلاً بالغ العمق والصفاء لهذين المحورين، ولقد اعتمدنا عليه مراراً.
انظر: Michael Klare, "Policing the Gulf - and the World", **The Nation,** October 15, 1990.

بأهمية التحديث الصناعي في ضمان الأمن القومي، والكف عن « حماقة رصد الأموال الطائلة لأبحاث تتعلّق بتطوير القدرات العسكرية دون سواها » كما يقول المستشار الرئاسي الأسبق تيودور سورينسن.

ورغم شعبيّتها في « وول ستريت » ، فإن نمطية المحور الجيو - اقتصادي لا تحظى بقبول القوى السياسية والعسكرية التي اقترنت طويلاً بالسياسات الدفاعية وعلا نجمُها في سياق تدعيمها واعتمادها. بديلها كان المحور الجيو - ستراتيجي الذي يشدّد على دور أكثر رسوخاً وتعاظماً للولايات المتحدة في « رعاية » العالم الغربي وحماية طرقه التجارية ووارداته من المواد الخام ضد تهديدات صادرة عن حركات وأنظمة في العالم الثالث تخرق النظام الاقتصادي العالمي الناجز. حلفاء أمريكا هم اليوم أكثر اعتماداً على التجارة مع العالم الثالث، وينبغي أن تتولى الولايات المتحدة مسؤولية ضبط ذلك الاعتماد. السناتور الجمهوري جون ماكين أحد أبرز دعاة هذا المحور، وقد كتب يقول: « قد لا تكون الولايات المتحدة شرطي العالم، لكن قوات انتشارها السريع ستبقى بوليصة تأمين العالم الحر » . في صفوف العسكر، يقدم الجنرال كارل ڤونو، رئيس أركان الجيش، التعبير الأوضح عن هذا الخط:

« الخصومات المحليّة المدعومة بجيوش جبارة تسبّبت في نزاعات وحشية ومدمرة في العالم الثالث. وانتشار القدرات العسكرية المتطورة أكسب العديد من البلدان في العالم النامي قدرة على خوض حرب بريّة راقية ومؤلّلة. ان الولايات المتحدة لا تستطيع تجاهل القوة العسكرية المتعاظمة لتلك الدول، ويجب أن يحتفظ جيشنا بالقدرة على دحر التهديدات الكامنة، أينما حدثت. ذلك يعني مواجهة مع جيش عالي الإعداد في العالم الثالث » .

قائد قوات المارينز، الجنرال غراي، قال في أيار / مايو ١٩٩٠ : « إذا كنا نريد الاستقرار في العالم الثالث، ونريد ضمان حصولنا على موارده، وحماية مواطنينا هناك، والدفاع عن منشآتنا الحيوية وردع النزاع، فيجب أن نطوّر - ضمن هيكل قواتنا الفعلية - قدرة على نشر قوة عسكرية فعالة ورادعة تمتلك مرونة مواجهة النزاع على قاعدة احتمال انتشاره هنا وهناك في الكرة الأرضية » . ويضيف الجنرال غراي: « ان موقعنا كدولة قائدة للعالم هو نتيجة مباشرة لاستعدادنا لتطوير مستويات عسكرية عالية مهمتها حماية مصالحنا ومصالح أصدقائنا » .

الجنرال كولن باول، رئيس هيئة الأركان المشتركة، من المؤمنين بهذا الخط.

ولقد مارس ما يكفي من نفوذ لاقناع جورج بوش به. في خطبته بتاريخ ٢ آب/ أغسطس ١٩٩٠، في آسبن بولاية كولورادو، قال بوش: «بصرف النظر عن التبدلات التي طرأت على التهديد السوڤياتي، فإن العالم يظل مكاناً غير آمن مع التهديدات التي تتعرض لها مصالح الولايات المتحدة، والتي لا صلة لها على الاطلاق بالأنساق السابقة للعلاقة الامريكية - السوفياتية». ولأن هذه التهديدات تنطوي على عدوان عسكري يشنّه جيش اقليمي جبّار، فإن على الولايات المتحدة الاحتفاظ بقوة عسكرية على درجة عالية من القوة والاستعداد.

* * * *

كما هو ملاحظ، طوّر دعاة الخط الجيو - ستراتيجي نظريتهم قبل الدخول العراقي الى الكويت، لكن بوش رأى في ذلك الحدث الفرصة الذهبية لدحر دعاة الخط الجيو - اقتصادي وتكريس انتصار الخط الآخر الذي تبنّاه. وفي دعوته الى اخراج القوات العراقية من الكويت كان بوش يسعى الى تعبئة الرأي العام لدعم التزام امريكي دائم بدور شرطي الكون. في كلمته المتلفزة بتاريخ ١١ أيلول / سبتمبر قال بوش: «الأحداث الراهنة برهنت بشكل قاطع على عدم وجود بديل عن القيادة الامريكية. لا يشكّكنّ أحد بعد اليوم في مصداقية الولايات المتحدة. لا يشككن أحد بقوتنا الباقية». وأكّد بوش أن حرب الخليج «تمنح فرصة نادرة لرحلة تاريخية من التعاون. من هذه الأزمان المضطربة يمكن أن يولد نظام عالمي جديد: حقبة جديدة أكثر تحرراً من تهديد الارهاب، أقوى في تطبيق العدالة، وأكثر أمناً في اقتفاء سبيل السلام». وزير دفاعه شيني قالها بعبارات أوضح: «نحن مستعدون لوضع القوات الأمريكية على أرض المعركة. رسالتنا، إلى أصدقائنا وأعدائنا على حد سواء، هي أن الامريكيين مستعدون للمخاطرة بحياتهم لضمان أمن أصدقائنا وحلفائنا».

حرب الخليج لم تكن «الحرب ونصف الحرب» فقط، بل كانت «الحربان ونصف الحرب» معاً: حرب كانت الولايات المتحدة تعدّها لحلف وارسو، وحرب كان حلف الأطلسي يعدّها دفاعاً عن نفسه، و«نصف حرب» كانت أمريكا توفرها لدولة ما في العالم الثالث. بهذا المعنى كانت حرب الخليج هي «حرب العالمين الأولى»: العالم الثالث كما تقف ضده جميع العوالم الأخرى، جميع الستراتيجيات والتكتيكات والبرامج والخطط العسكرية والاقتصادية والسياسية، جميع «المعسكرات» والكتل والأحلاف والتجمعات...

وهي حرب تبدّت فيها على أكمل وجه قدرة الولايات المتحدة على الإرسال

بفعالية عالية والاستقبال بضحالة قياسية. بعد ستة أشهر من التغطية التلفزيونية المحمومة أجرى ثلاثة باحثين دراسة احصائية قسّموا فيها مشاهدي التلفزيون الأمريكي الى ثلاث مجموعات:

١ ـ المجموعة الأولى تشاهد التلفزيون أقلّ من ساعة ونصف الساعة يوميا.

٢ ـ المجموعة الثانية بين ساعة ونصف، وثلاث ساعات.

٣ ـ المجموعة الثالثة أكثر من ثلاث ساعات.

اليكم النتائج:

ـ ١٦٪ من المجموعة الأولى كانوا يعتقدون أن نظام الحكم في الكويت ديمقراطي رئاسي.

ـ ٢٢٪ فقط سمعوا بالانتفاضة في الضفة الغربية وقطاع غزة.

ـ ٤٠٪ فقط كانوا يعرفون أن ثمة احتلالات أخرى في المنطقة غير الكويت.

ـ ٣٢٪ من المجموعة الثالثة كانوا يعتقدون أيضاً أن نظام الحكم في الكويت ديمقراطي رئاسي، وأن الولايات المتحدة هبّت لنجدة الديمقراطية.

ـ ١٠٪ فقط سمعوا بالانتفاضة.

ـ ٢٣٪ فقط كانوا يعرفون بوجود احتلالات أخرى.

ـ ١٤٪ فقط كانوا يعرفون أن الولايات المتحدة استخدمت حق النقض في الأمم المتحدة لعرقلة التسوية السياسية لمشكلة الشرق الأوسط.

لا يدهشنّ أحد، فالقادم أعظم:

ـ ١٢٪ من المجموعة الثالثة كانوا يعتقدون أن العراق هو الذي استخدم حق النقض!!

ـ ٢٪ فقط كانوا يدركون أن زيادة ضخ نفط الكويت هو السبب المباشر لاندلاع الأزمة.

وهي حرب تعرّى فيها الاعلام الغربي من ورقة التوت (انظر «مفردات حول عالمين» في ملاحق هذا الكتاب) سواء في الوثوق الإخباري أو المصداقية الاخلاقية: لقد عُرضت الحرب على شاشات التلفزة الغربية وكأنها «لعبة حرب» وتكنولوجيا وصناعة. خبراء على حافة الانفجار العاطفي يشرحون للجمهور مواصفات هذا السلاح أو ذاك بعد «تأنيسه» بصفات بشرية مثل «الذكاء» و«التفكير» و«التمييز»، حتى أن احدى الصحف المرموقة نشرت رسماً كاريكاتورياً لصاروخي توماهوك يقفان على ناصية شارع في بغداد وينكشان شعرهما (نعم: شعرهما) أثناء التنقيب في خريطة بحثاً عن الهدف

المطلوب، في حين يذرع البغداديون الشارع بكل هدوء وسكينة واطمئنان. هنالك أيضاً حكاية قيام الجنود العراقيين بـ« إعدام » ما يزيد على ٣٠٠ رضيع بإخراجهم من الحاضنات بغرض شحنها الى بغداد ... لم تصمد الحكاية طويلاً، وتبيّن أنها أكثر من فبركة إعلامية مبتذلة: لقد كانت كذبة فاضحة اختلقها ورواها طبيب كويتي يقيم في فندق الشيراتون بالطائف، مقرّ الحكومة الكويتية المؤقتة. وجورج بوش اعتبر ادعاء صدام حسين الانتصار حين كانت قواته تتراجع بمثابة « فضيحة »، أما أخصائيو الإسلام والعرب فقد قالوا: تحويل المهانة الى انتصار عادة عربية متأصلة. بيد أن للغرب سابقة كبرى على هذه « العادة الذميمة »: في دنكرك هُزمت القوات البريطانية وانسحبت عبر قناة المانش تاركة القوات الفرنسية الحليفة لقمة سائغة للألمان. في اجتماع الوزارة البريطانية السّري قال تشرشل: « هذه أسوأ هزيمة عسكرية تُمنى بها بريطانيا منذ عدة قرون ». علناً، قالت وزارة الاعلام البريطانية: « لقد عادت القوات البريطانية الى الوطن غير منهزمة. لم تحمل معها الانتصار، لكنها حملت المجد ». اللافت للانتباه هنا أن هتلر لم يجشم نفسه عناء اعتبار الادعاء « فضيحة ».

والسرعة التي انتقل بها جورج بوش من « درع الصحراء » الى « سيف الصحراء » الى « عاصفة الصحراء » تدل على رئيس مزاجي نافذ الصبر لأمّة مزاجية نافذة الصبر، كما يقول الروائي والمسرحي الأمريكي ستيف تيسيك. احدى اختزالات « علّة ڤيتنام » أنها كانت حرباً طويلة! (الترجمة: مئات الآلاف من الضحايا، والنابالم، والمذابح، والأطفال المحروقين ومآثر الـ B - 52 تهون جميعها لو كانت الحرب قصيرة). حرب الخليج ستكون قصيرة سريعة، و« لن يقاتل الأمريكي واحدى يديه مكبّلة خلف ظهره » كما بشّر بوش. الحلول الدبلوماسية؟ كلا، انها تستغرق وقتاً طويلاً. (الترجمة: إذا أُنجزت الممارسة الخاطئة في وقت قصير فإنها تنقلب الى صواب، وإذا لم تُنجز الممارسة الصائبة في وقت قصير فإنها تنقلب الى خطأ ويجب عدم اللجوء إليها أصلاً).

ولقد كرّس بوش شخصياً صورة مجمّلة وطنية للعنف والدمار حين حذّر الأمة من « فورة الفرح » نتيجة الانتصارات الباهرة، وكأنه كان يفترض أن مشاهد القتل والدمار يمكن أن تثير فورة فرح (أو هي أثارتها فعلاً). ما الذي دفع بوش الى اعتبار الامريكيين على هذه الدرجة من الانحطاط الأخلاقي والانساني؟ الجواب بسيط: إما أنه شطب الأمة من مفهوم « أمريكا »، أو هو يعرف الأمة

أكثر مما تعرف الأمة نفسها...

وفي خطابه حول «حالة الاتحاد» قال فارس النظام العالمي الجديد: «ثمن غض النظر عن العدوان أمر يصعب على الانسانية أن تتخيّله». بورنوغرافيا سياسية، ليس أكثر. تاريخ الولايات المتحدة يشهد ويكمّ الأفواه: اليونان، كوريا، غواتيمالا، ايران، لبنان، كوبا، سانتو دومينغو، ڤييتنام، افريقيا الجنوبية، ليبيا، غرينادا، باناما، ليبيريا. في ٧ كانون الأول / يناير ١٩٧٥ قامت أندونيسيا بغزو وضمّ تيمور الشرقية بعد ساعات قلائل من مغادرة (ومباركة) نكسون وكيسنجر: بين ١٠٠,٠٠٠ و٢٠٠,٠٠٠ قتيل. في منتصف السبعينات أيضاً قامت تركيا باحتلال النصف الشرقي من قبرص وطردت ٢٠٠,٠٠٠ قبرصي يوناني واعتقلت الآلاف وصادرت الممتلكات وعاثت فساداً على هواها: رد فعل الولايات المتحدة كان رفع رصيد المساعدات الخارجية الممنوحة لتركيا الى ٥ مليار دولار. ثمة أيضاً ناميبيا والضفة الغربية وقطاع غزة والجولان ولبنان و...

حقوق الانسان؟ يكفي التذكير أنه بينما كانت القاذفات الامريكية العملاقة لا تبقي حجراً على حجر في بغداد باسم الحرية والقانون الدولي، كانت أجهزة ادارة بوش ترسل ملايين الدولارات لدعم حكومة آرينا الفاشية في السلفادور. واليوم، بعد «تحرير» الكويت، يروي روبرت فسك (الأندبندنت، ٤ نيسان / ابريل) فظائع القوات الكويتية الخاصة ضد المدنيين الفلسطينيين:

«حين شرع ثلاثة جنود كويتيين في ضرب فتى فلسطيني يقود دراجة في منطقة «حولّي» تدخلت أنا ومراسل «الأوبزرفر» كولن سميث وحاولنا - بالأيدي - منع الجنود من ضرب الفتى بأعقاب بنادقهم. القوات الامريكية الخاصة كانت تتفرّج، فاقتربت من ضابط أمريكي وسألته: «كيف تسمح بالاعتداء على المدنيين العزّل»؟ أجاب الضابط: «لا بد أنك قضيت نهاراً هانئاً! لا نريد رؤية أمثالك هنا لنشر اشاعات قذرة عن معاملة المدنيين. أنت ثرثار، والأحكام العرفية هي السائدة الآن يا هذا!(...) من هنا! Fuck Off»».

قاض كويتي حكم على مواطن بالسجن ١٥ عاماً لأنه كان يرتدي قميصاً رسمت عليه صورة صدام حسين. مارلين فيتزوتر، الناطق الصحفي باسم البيت الأبيض والذي بشّر العالم بأن «تحرير الكويت قد بدأ»، علّق على تلك المهزلة القضائية بالقول: «البيت الأبيض له ملاحظات على النظام القضائي في الكويت. لكن البلد مستقل ويجب احترام نظامه القضائي على هذه القاعدة». وحول

قضية القميص بالذات تطوّع فيتزوتر ـ بالنيابة عن القاضي الكويتي ـ بافتراض وجود « عوامل أخرى تجعلنا نمتنع عن اطلاق الأحكام » .

* * * *

بين الخطب الطنانة الكثيرة التي أطلقها جورج بوش منذ اندلاع أزمة الخليج، هنالك عبارة هي الأكثر مغزى ودلالة في رأينا : « في حياة أية أمة، ثمة برهة تدعونا لتحديد من نكون، وبماذا نؤمن » .

هذا الكتاب يسعى الى استقراء التجسيد المعقد والمتشابك لدلالات تلك العبارة في وقائع ودروس حرب العالمين الأولى هذه. أكثر من النفط واحياء النفوذ الامريكي ولعب دور الشرطي ذي الهراوة الغليظة في العالم الثالث، انها حرب حول الهوية القومية لأمريكا، حول دورها ومكانها في كون ما بعد الحرب الباردة، وحول جدل توترها واصطدامها مع الهوّيات الأخرى في الجنوب.

بعد أن أشهد الله أنه « رفس علّة ڤيتنام مرة وإلى الأبد » يدشن جورج بوش تضاريس العالم الجديد الذي تكون فيه الولايات المتحدة مافيا كونية تبيع الحماية للأغنياء بثمن مناسب، وشعارها : « نحن السادة، وعليكم أن تمسحوا أحذيتنا » كما يستخلص نوام شومسكي. ولأن انتهاء الحرب الباردة انطوى على انتهاء شكل متفق عليه لتنظيم العلاقات الدولية بين التنويع الفوردي Fordist للرأسمالية والتنويع الستاليني للاشتراكية، فإن حرب الخليج في نظر ماري كالدور هي « صراع السيطرة على النظام العالمي بعد الحرب الباردة، وتكريس القيادة الامريكية للعالم، وتأسيس شكل من أشكال التنظيم السياسي لاقتصاد العالم في الحقبة بعد ـ الفوردية بما يكفل بقاء المؤسسات السياسية الفوردية دون مساس » .

نيل آشيرسن يرى الرأي ذاته، لكنه يحاول استقراء هوية أوروبا في هذا التنظيم السياسي الجديد ، ويتكهن بقرب « جرمنة » المجموعة الأوروبية، بمعنى اقترابها من الفلسفة الألمانية في تحاشي الالتزامات الأمنية والعسكرية الخارجية، والتركيز على التنمية الداخلية. ذلك يقوده بالطبع الى استبعاد أن تتحول أوروبا الى « كتلة جبارة » منافسة، وأن الولايات المتحدة ستُترك كقوة عظمى وحيدة في واقع الأمر. انها حالة القطب الأحادي عند المعلّق الأمريكي المحافظ شارلز كراوتهامر، تلك التي ستعقبها مرحلة تعدّد الأقطاب وولادة قوى عظمى مكافئة للولايات المتحدة في عالم سيشبه حقبة ما قبل الحرب العالمية الأولى. لقد كشف العراق بُنية أحادية القطب تحكم عالمنا اليوم، ورأى مؤامرة تنفذ ضد الجنوب

بتواطؤ ودعم الحلفاء والسوفيات معاً: شمال يتسم بسلم ايديولوجي يبحث عن الأمن والنظام من خلال وضع نفسه وراء القاطرة الأمريكية، فأين يكون الجنوب؟ ورغم أن كراوتهامر ينكر على العراق تمثيله للجنوب، فهو يعترف بصواب التحليل.

بيد أن ذلك الشمال لم يكفّ عن بناء «شرق متخيل» يكون بمثابة مرآة تجد فيه اوروبا (ثم أمريكا لاحقاً) انعكاس صورة تفوّقها وتميّزها عن الآخر. انها مرآة الجهالة حسب كيڤن روبنز، لأن أوروبا انتصرت على أساس من العقلانية والتنوير، لكنها استخدمتها كنقطة مرجعية كونية تقود الى تكريس قيم الغرب باعتبارها هي وحدها الكونية. هذا ما دفع ادوار سعيد الى اعتبار أن حرب الخليج، بعنفها ودمارها الشاملين، وبأهدافها وبلاغتها، لا يمكن أن تُشن سوى ضد دولة عربية إسلامية من العالم الثالث. لقد اختزل العراق وشعبه الى كلمتين لا ثالثة لهما: صدام حسين. «كأن كل ما كنا نفعله هو محاربة طيف واحد يجسد الشر. ذلك يتيح لنا قصف العراق دون وخزة ضمير، وباحساس مفزع بالبهجة الحقة». انها «أرماغيدون» الجديدة، المعركة النهائية التي يقول «العهد الجديد» أنها ستدور بين الأمم وتشهد نهاية العالم، والأمريكيون والأوروبيون يترقبون غولاً تقليدياً واحداً هو الاسلام، حسب دانييل بايبس. لهذا تعلو الصرخات المحمومة: المسلمون قادمون! ليس في الحروب فقط (أو في كوابيس الحروب) بل في الهجرات التي تتهدد بنية وثقافة المجتمعات الغربية. بدل تكريس هذا الوهم وتعميق الهوّة الحضارية، يدعو محمد حسنين هيكل الى خروج الامريكيين (مادياً ومعنوياً) من المنطقة، لكي يولد النظام العربي الجديد: الشرعية تتجاوز كثيراً مجرّد الحفاظ على الأوضاع القائمة، إذ ينبغي عليها - أولاً وقبل كل شيء - أن تكون تعبيراً عن حقائق الجغرافيا والتاريخ.

القسم الثاني من الكتاب يميل الى البحث في الوقائع أكثر من استقراء الجوانب النظرية والايديولوجية والستراتيجية لجدل توتر الهوية الأمريكية في برهتها الراهنة. آلان غريش يستعرض الثبات والتحول في السياسة السوفياتية إزاء الشرق الأوسط في الطور الأخير من الغورباتشوفية، وإزاء أزمة الخليج من جانب صلتها بالعامل الإسلامي في الاتحاد السوفياتي. أندرو ستيفن يتابع عزلة جورج بوش أمام أخطر قراراته التي يعرف أنه باتخاذها «لا يضحي فقط بحياة الآلاف من البشر، بل بوضع مستقبله السياسي الشخصي على المحك». هي صورة صحفية برهنت الأحداث - وستبرهن أكثر - على أنها تضمنت ثغرات

واضحة، لكنها ذات قيمة خاصة في معلوماتها وتوقيت نشرها. جورج بول ينطلق من حقيقة خبرها بنفسه حين كان مساعد وزير خارجية أمريكا في الستينات: أمريكا تستسهل دائماً توريط نفسها في حروب ما وراء البحار، لكنها تجد صعوبة في فك نفسها بعد ذلك. ويرى أن وقف عدوان صدام حسين لن يجلب السلام الى الشرق الأوسط. ألكساندر كوكبرن، أكثر الصحفيين الغربيين نزاهة وموضوعية في التعامل مع حرب الخليج في رأينا، يتناول ميل الاعلام الى إبطال التاريخ في حالات الحرب على وجه الخصوص. ويكشف كوكبرن زيف ونفاق الاعلام الغربي حين يذكّرنا بأن تشرشل كان في عام ١٩١٩ من أكبر المتحمسين لاستخدام الاسلحة الكيميائية والغازات ضد «الشعوب العربية البدائية»، ناظراً الى تلك الأسلحة على أنها «تطبيق العلوم الغربية على الحرب الحديثة». توماس فيرغوسون يبحث في حوافز الحرب الاقتصادية: مبيعات النفط الى أوروبا واليابان تولّد فائض قيمة يتحول الى مدخرات وودائع واستثمارات هي نهر أمازون العالم الرأسمالي وصمّام أمان بقاء التسعير النفطي على أساس الدولار. والادارة الامريكية لم يكن بوسعها انتظار العقوبات الاقتصادية لأن ذلك - ببساطة - يكلّف أموالاً حقيقية لم تعد الادارة تملكها. لقد مضى الزمن الذي كان فيه الاقتصاد الامريكي قادراً على تمويل مغامرات أمريكا العسكرية الخارجية. في الخلفيات الستراتيجية للحرب يشير جو ستورك وآن ليش إلى شرعية النظام السياسي - الاقتصادي العربي القائم، وشكل ادارة ثروات المنطقة، وتحدّيهما كما تمثل في الخطوة العراقية والدعم الواسع الذي لقيته في صفوف الجماهير العربية بصرف النظر عن موقفها من شخص صدام حسين. هنري كيسنجر يختتم القسم الثاني من هذا الكتاب بجدول أعمال لمرحلة ما بعد الحرب. ان مقال كيسنجر يظل مثيراً للاهتمام ومدعاة أسئلة كبيرة مهما بلغت تحفظاتنا عليه. قامة الرجل ما تزال مديدة في السياسة الخارجية الامريكية، ولعلّ جيمس بيكر أحد أوائل الذين يحملون في جيوبهم - أينما حلّوا في الشرق الأوسط - نسخة من مقترحات كيسنجر... من يدري؟


القسم الأول

«نحن السادة، وعليكم أن تمسحوا أحذيتنا»

■ نوام شومسكي

احدى البدهيات الشائعة عن «النظام العالمي الجديد» هي أنه ثلاثي القطب اقتصادياً وأحادي القطب عسكرياً. الأحداث الراهنة تساعد المرء في فهم العلائق المتبادلة لهذه العوامل.

حين بدأ «صيد ديوك الحبش»(*) المجيد في الصحراء، نشرت صحيفة «نيويورك تايمز» مقطعاً من عرض حول الأمن القومي يعود إلى الأيام الأولى لادارة بوش ويتناول «التهديدات القادمة من العالم الثالث»، جاء فيه:

«حين تنطوي الحالة على مواجهة بين الولايات المتحدة وأعداء أكثر ضعفاً، عندها لا ينحصر التحدي في هزيمة هؤلاء فحسب، بل في هزيمتهم على نحو سريع وحاسم. أية محصلة أخرى ستكون محرجة، وقد تختزل الدعم السياسي».

«الأعداء الأكثر ضعفا» لا يطرحون سوى تحد واحد أمام الولايات المتحدة: تهديد الاستقلال، ذاك الذي لا تستطيع الادارة تحمّله اطلاقاً. الولايات المتحدة تدعم أكثر الطغاة اجراماً ما داموا يلعبون بشروطها، لكنها تتآمر لإسقاط أي ديمقراطي في العالم الثالث اذا نأي عن خدمة الوظيفة التي تراها الادارة لائقة. السجلات التاريخية والوثائقية واضحة بهذا الصدد.

المقطع المسرَّب لا يشير البتة إلى الوسائل السلمية. من المفهوم لدى جميع الأطراف أن الولايات المتحدة، في مواجهاتها مع العالم الثالث، «ضعيفة سياسياً». مطالبها ليست مرشحة لاستدرار الدعم من الرأي العام، ولهذا فإن الدبلوماسية ممارسة خطرة. وخصم «أكثر ضعفاً» ينبغي أن لا يهزم فقط، بل أن يسحق إذا كان لا بدّ من تعلّم الدرس المركزي لهذا «النظام العالمي الجديد»: نحن السادة، وعليكم أن تمسحوا أحذيتنا.

ثمة دروس أخرى مفيدة. ينبغي أن يقدّر المواطنون ذلك «التحديد الصريح

(*) تعبير استخدمه الطيارون الأميركيون لوصف مهامهم ضد الأهداف العراقية. (المحرر).

والجزل للمبدأ الذي طبخه (جورج بوش) في داخله خلال سنوات جامعة بيل وأندوڤر، ذلك الشرف والواجب الذي يجبرك على لكم الأزعر في الوجه». هذه هي كلمات الإطراء التي قدّم بها الصحفي عرضه للسياسة، ثم اقتبس البطل نفسه وهو يقول: «يشهد الله أننا رفسنا علّة فييتنام مرّة وإلى الأبد». ويهلّل الرئيس أننا بعد اليوم لن نقع تحت وطأة «النواهي المقيتة التي تحول بيننا وبين اللجوء إلى القوة العسكرية» لكي نستخدم تعبير المفكر الريغاني نورمان بودهوريتز.

الأرض مُهّدت جيداً للتغلب على هذا المرض العضال، بما في ذلك الجهود المتفانية الهادفة إلى ضمان فهم سليم لحرب فييتنام باعتبارها «قضية نبيلة» وليست هجوماً عنيفاً ضد فييتنام الجنوبية، ثم الهند الصينية بأسرها، عموماً. يقدّر الأميركيون حجم القتلى في فييتنام بـ١٠٠,٠٠٠، كما تخبرنا دراسة أكاديمية حديثة. ويتساءل المؤلفون أية نتائج يمكن لنا أن نستخلصها اذا قدّر الرأي العام الألماني أن ضحايا المجازر ضد اليهود تبلغ ٣٠٠,٠٠٠، مع الإعلان بأن ألمانيا كانت على صواب. سؤال قد نتأمله.

مبدأ أن تلكم الأزعر في الوجه - وأنت واثق بأنك تطرحه أرضاً وتقضي عليه - مبدأ طبيعي لمروّجي قاعدة استخدام القوة. الانتصارات الرخيصة قد تعبىء الرأي العام الداخلي، وتحرف الانتباه عن الكوارث الداخلية لسنوات ريغان - بوش، وهي ليست مسائل بسيطة والبلاد تخطو حثيثاً نحو مجتمع ينقسم إلى فئتين ويكتسب تدريجياً سمات صاعقة ينفرد بها العالم الثالث.

*

تاريخ جورج بوش كرجل «خدمة حكومية» حافل بالدروس، أيضاً، حول شكل «النظام العالمي الجديد». انه أبرز رئيس دولة يتمتع بادانة صادرة عن «المحكمة الدولية» جرّاء «استخدامه للقوة بصورة غير مشروعة». انه ينظر باحتقار إلى دعوة المحكمة بدفع تعويضات عن هذه الجرائم ذات الطبيعة الخاصة (أما غيرها من الجرائم فهي بعيدة المنال الآن)، في الوقت الذي يدعو فيه، مع جوقة المطبّلين والمزمرين، إلى إجبار العراق على دفع تعويضات.

لقد دشن جورج بوش حقبة ما بعد الحرب بغزو اجرامي ضد باناما، فارضاً حكم أقلية بيضاء لا تتجاوز ١٠٪ من السكان، وضامناً السيطرة الأميركية على القناة والقواعد التي تستخدم لتدريب مجرمي العصابات ومروّعي أميركا اللاتينية. ومنذ أن أصبح سفيراً في الأمم المتحدة سنة ١٩٧١، باتت الولايات

المتحدة في مركز الصدارة من حيث استخدام حق النقض (الفيتو) ضد قرارات مجلس الأمن، وشلّ الأمم المتحدة ومنعها من القيام بدورها كصانعة سلام. بريطانيا احتلت المركز الثاني. استدعي بوش لادارة المخابرات المركزية الأميركية سنة ١٩٧٥ - في الوقت المناسب لدعم الابادة في تيمور الشرقية. بعد ذلك أعار خدماته ومواهبه للحرب ضد الكنيسة وسواها من المنحرفين الذين وقفوا إلى جانب «خيار تفضيل الفقراء» في افريقيا الوسطى الحافلة الآن بالجثث الممزقة والمعذبة، والتي تسير نحو خراب قد لا يمكن النهوض منه.

في الشرق الأوسط ساند بوش احتلالات اسرائيل الفظة وغزوها البربري الوحشي للبنان، ورفضها الأخذ بقرار مجلس الأمن الدولي رقم ٤٢٥ الداعي إلى انسحابها الفوري من لبنان (آذار ١٩٧٨، بين عدة قرارات). الدعوى التي جددتها الحكومة اللبنانية قضى عليها صديق جورج بوش الجديد: حافظ الأسد. «صانعو السلام» الأتراك حصلوا على تخويل بمضاعفة قمعهم للأكراد، كتعويض جزئي عن خدماتهم.

ببساطة ووضوح، نحن أمام رجل يتوجب امتداحه على مبدأ نادر يتمسك به وهو يقودنا إلى «نظام عالمي جديد».

مبادىء السياسة المشار إليها نُفّذت بحذافيرها خلال أزمة الخليج. في تموز أوضح بوش أنه لا يعترض على قيام العراق بتصحيح حدوده مع الكويت عن طريق القوة، أو اجبار الجيران على رفع سعر النفط، أساء صدام حسين قراءة الاشارات، فاستولى على الكويت بأسرها، وكشف أنه ليس «قاطع طريق» (وهي نقطة لا غبار عليها في المقاييس الأميركية - البريطانية)، بل قومياً مستقلاً (وهي كبيرة الكبائر). هنا دخلت السياسات القياسية.

الولايات المتحدة وبريطانيا تحركتا على الفور لنسف العقوبات الاقتصادية والجهود الدبلوماسية على حد سواء، تلك التي كانت لها حظوظ كبيرة في النجاح آنذاك. منذ أواخر آب كشف النقاب عن عروض تسوية عراقية اعتبرها موظفو وزارة الخارجية «جدية» و«قابلة للتفاوض»، بما في ذلك الانسحاب التام من الكويت وفق شروط سيأخذ بها كل من يعتبر نفسه معنياً بالسلام. الجهود التي بذلت لتفادي الحرب البريّة عبر انسحاب العراق التام، وتوفير عشرات الآلاف من الضحايا، قوبلت بالرفض والازدراء. وضعت الدبلوماسية جانباً، وما دام هذا البلد المنتمي إلى العالم الثالث بجيشه المؤلف من فلاحين تعساء ليس سوى «عدو أكثر ضعفاً»، فلا مناص من سحقه، حتى يتم استخلاص الدروس

المناسبة.

طوائف المثقفين هرعت إلى العمل بنشاط، فصدام حسين هتلرجديد ينوي بسط سيطرته على العالم بأسره. حين أعلن بوش أنه لن تكون هناك مفاوضات، أغدق عليه مئات كتّاب الافتتاحيات آيات المديح على جهوده الدبلوماسية الجبارة. حين أعلن أنه «لا يمكن مكافأة المعتدين» وقف المعلقون فاغري الأفواه أمام عظمة مبادىء هذا الرجل العظيم.

بعضهم وافق على أن الولايات المتحدة وبريطانيا لم تكونا «على وئام تام» في الماضي (والحق انهما اتبعا مصالحهما بكل وئام). لكنهم طمأنونا: الآن تغيّر كل شيء.. لقد تعلّموا الآن أن أفضل طريق للرد على العدوان هو اللجوء السريع إلى العنف. لنا، بالتالي، أن نتوقع قيام سلاح الجو الملكي البريطاني بقصف أي مكان من دمشق إلى جاكرتا بمباركة من واشنطن ومن معها من رهط حليف.

وهكذا مهدت الأرض لذبح بشع لا رحمة فيه، حتى أن احدى صحف العالم الثالث البارزة وصفته بأنه «أكثر الحروب التي شنت على وجه البسيطة جبناً وخسة». لقد أزيلت الجثث بسرعة فائقة، لتلتحق بجثث أخرى أزيلت من قبل لأنها عكرت صفو المتحضرين.

كذلك لم يظهر أي اهتمام بحقيقة ساطعة جلية مفادها أن سبباً واحداً رسمياً لم يطرح كمسوّغ للذهاب إلى الحرب - وأقصد القول تلك الأسباب التي لا تقبل الدحض والرد من قبل مراهق يافع. انها - مرة ثانية - علامة كبرى من علامات ثقافة توتاليتارية، وصرح من صروح «النظام العالمي الجديد».

ليست أقلّ دلالة تلك الجهود القليلة فوق - الرسمية التي بذلت لتسويغ رفض الوسائل السلمية. وهكذا قرأنا أن هذه حالة مختلفة بسبب الضمّ، وأنها ستبقى كذلك رغم بعض العروض العراقية التي تقلب الحالة رأساً على عقب. لن نتحدث عن المواقف الأميركية - البريطانية من حالات ضمٍ أخرى، فهي تنطق عن ذاتها دون حجج وبراهين.

بين إحدى تلك الجهود النادرة لمواجهة السؤال الحاسم، يشرح تيموثي غارتون آش في «نيويورك ريفيو» أن العقوبات الاقتصادية ممكنة في حالة افريقيا الجنوبية أو أوروبا الشرقية الشيوعية، أما صدام حسين فأمر مختلف. ذلك يغلق النقاش. نفهم الآن لماذا توجب اتباع «دبلوماسية هادئة» حين كان أصدقاؤنا في جنوب افريقيا ينزلون خسائر تقدر بـ٦٠ مليار دولار و١,٥ مليون ضحية بين أعوام ١٩٨٠ - ١٩٨٨ في الدول المجاورة - ضع جانباً جنوب افريقيا

وناميبيا، ثم العقد الذي يليه. انهم شعب محترم نظيف، مثلنا ومثل الطغاة الشيوعيين. لماذا؟ احدى الاجابات يقترحها نلسون مانديلا الذي أدان النفاق والانحياز في صدور ردود أفعال على درجة عالية من الانتقائية ضد «جرائم» العراقيين «ذوي البشرة السمراء». الشيء ذاته صحيح حين تؤكد صحيفة «نيويورك تايمز» أن «العالم» متحد ضد صدام حسين، الرجل المكروه على نطاق «العالم» بأسره... العالم ناقصاً الوجوه الداكنة بطبيعة الحال!

*

يبدو مفهوماً لماذا تطفح العنصرية الغربية على السطح بهذا الوضوح الصاعق بعد الحرب الباردة. لقد أمكن - خلال ٧٠ عاماً - اخفاء الممارسات التقليدية خلف قناع «الدفاع ضد السوفييت». لقد كانت خدعة زائفة، وفقدت الآن مضمونها كذريعة. نعود، بالتالي، إلى تلك الأيام المجيدة حين كانت صحافة نيويورك تشرح لنا ضرورة «المضي في ذبح السكان على الطريقة الانكليزية، والفوز بأكبر قدر ممكن من الأمجاد الكامنة في القتل الجماعي حتى يتعلمون احترام أسلحتنا. المهمة الصعبة التالية ستكون اقناعهم باحترام نوايانا». والحق أنهم قد فهموا نوايانا على أكمل وجه.

وجه «النظام العالمي الجديد» قاتم بالنسبة لشعوب الشرق الأوسط. المنتصر دولة عنيفة رفضت على الدوام أية مقاربة دبلوماسية جدية لمشكلات نزع التسلح والأمن الاقليمية، وكادت أن تنفرد بذلك. مفهوم الولايات المتحدة الستراتيجي قام على أن المدراء المحليين لثروات الخليج النفطية يتمتعون بحماية القوى الاقليمية، التي يفضّل أن تكون غير عربية، رغم أن بعض الطغاة العرب يمكن السماح لهم بالانضمام إلى النادي، وربما مصر أيضاً اذا أمكن شراؤها. ولسوف تسعى الولايات المتحدة إلى عقد اتفاق بين هؤلاء الأتباع، ولعلها تفكر أيضاً في صيغة مؤتمر دولي اذا توفرت له ادارة مناسبة. وطبقاً لالحاح هنري كيسنجر، يتوجب ابقاء أوروبا واليابان خارج الدبلوماسية، أمّا الاتحاد السوفييتي فيمكن القبول به بافتراض أنه سيكون طيّعاً وسط ضائقته الراهنة، وكذلك بريطانيا.

بالنسبة للفلسطينيين، تستطيع الولايات المتحدة الآن أن تشرع في الحل الذي أوجزه جيمس بيكر قبل أزمة الخليج: الأردن هي الدولة الفلسطينية؛ الأراضي المحتلة سوف تدار وفقاً للخطوط الأساسية التي تضعها الحكومة الاسرائيلية، وفي اطارها يمكن السماح للفلسطينيين بجباية الضرائب في نابلس، وسيجري انتقاء

ممثليهم السياسيين بالنيابة عنهم، مع استبعاد منظمة التحرير الفلسطينية؛ «الانتخابات الحرة» ستجري تحت الرقابة العسكرية الاسرائيلية في حين تكون القيادة الفلسطينية في معسكرات الاعتقال. أعذار جديدة سوف تبتكر للسياسات القديمة، وسيجري الترحيب بهذه الخطوات باعتبارها كريمة.

التنمية الاقتصادية منعت على الفلسطينيين دائماً، في حين جرى الاستيلاء على أراضيهم ومياههم. لقد سمح لهم بخدمة الاقتصاد الاسرائيلي كأرقاء وعبيد عمل فقط. لكن هذا الفاصل ذاته ينصرم، فلقد وجّه حظر التجول الاداري ضربة اضافية إلى الاقتصاد الفلسطيني. يمكن للمنتصرين الآن أن يسيروا قدماً في السياسة التي أعلنها اسحق رابين من حزب العمل، في شباط ١٩٨٩، حين كان وزيراً للدفاع. لقد أبلغ زعماء «حركة السلام الآن» أنه راض عن الحوار بين الولايات المتحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية، تلك النقاشات التي بلا معنى، والهادفة إلى صرف الأنظار عن قمع الاسرائيليين للانتفاضة بقوة السلاح.

«الفلسطينيون سينكسرون»، هكذا وعد رابين، مستعيداً نبوءة المستعربين الاسرائيليين قبل ٤٠ عاماً... الفلسطينيون سوف «يسحقون»، سوف يموتون أو «يتحولون إلى غبار بشر وحثالة مجتمع، وسينضمون إلى الطبقات الأكثر فقراً في البلدان العربية». ولربما غادروا إلى الأبد في الوقت الذي يتدفق فيه اليهود الروس إلى اسرائيل المتوسعة (بعد أن منعتهم الولايات المتحدة من دخول أراضيها طبقاً لسياسات تمنع عنهم الاختيار الحر). وتبقى المسائل الدبلوماسية عائمة وسط التخبط في استقراء معالم خطة بيكر - شامير - بيريس.

القيادة السياسية في واشنطن وبريطانيا خلقت كوارث اقتصادية واجتماعية في الداخل، وليست لديها فكرة حول كيفية معالجتها باستثناء استثمار قوتها العسكرية. لقد أخذت بنصيحة صحافة الأعمال فحاولت تحويل بلدانها إلى مرتزقة ودول مأجورة تقوم بوظيفة مافيا كونية تبيع «الحماية» للأغنياء، وتدافع عنهم ضد «تهديدات العالم الثالث»، وتطلب ثمناً مناسباً لقاء خدماتها. الثروات التي تمّ تحصيلها من منتجي النفط في الخليج سوف تسند الاقتصادين الموشكين على الانهيار. أوروبا بقيادة ألمانيا، ثم اليابان بعد ذلك، ستتولى مهمّة «الأمركة اللاتينية» Latin Americanisation لمعظم ميادين الاستبداد السوفييتي المنهار، في حين قد تتولى البيروقراطية الشيوعية السابقة ادارة مكاتب الفروع التابعة للشركات الأجنبية. ما يتبقى من العالم الثالث ستحكمه الضغوطات الاقتصادية ما أمكن، وإلا فالسلاح هو الذي يتكلّم...

هذه بعض تضاريس «النظام العالمي الجديد» الذي يخطط له. انها تضاريس تظهر سريعاً للعيان حالما تنزع عنها القشرة البلاغية الخادعة.

New York Guardian,
April 1991,

حرب المخيّلة

■ ماري كالدور

كيف انخرطنا في هذه الحرب؟ لم يمض سوى عام واحد على انتهاء الحرب الباردة، وفي مثل هذا الوقت من السنة السابقة اعتقد معظمنا أننا نقف على عتبة حقبة جديدة من السلام والتعاون في القضايا الدولية. كيف تهشم بسرعة ذلك الاحساس بالتفاؤل العارم؟ كيف حدث أن الولايات المتحدة (وبريطانيا) تدمران يوماً بعد يوم عدواً من العالم الثالث ذي مستوى تكنولوجي منخفض، وتستخدمان لهذا الغرض آلة عسكرية وقوات ومعدّات تفوق ما نشر في أوروبا بأسرها في أوج الحرب الباردة؟

بالطبع، لقد كان انجازاً عظيماً أن الأمم المتحدة سارعت بالرد على غزو الكويت من قبل طاغية معروف. وبالمقارنة مع اجتياحات أخرى - الصين في التيبت، وأندونيسيا في تيمور الشرقية واسرائيل في لبنان - يثلج الصدور أن المجتمع الدولي اتخذ موقفاً ضد عمل ظالم، وفرض عقوبات اقتصادية لا سابق لها. ماذا جرى إذاً؟ كيف انحطّ هذا التعاون الكوني إلى حرب تقودها الولايات المتحدة وبريطانيا؟ كيف خطفت منظمة الأمم المتحدة لتتحول الى مؤسسة لصنع الحرب؟ كيف أمكن أن حدثاً، سيثبت التاريخ أنه ابادة بشرية بتكنولوجيا عالية، قد نُفّذ باسم القانون الدولي؟

ربّ قائل يجيب بأن مصالح الغرب النفطية هي السبب، وأن الولايات المتحدة وبريطانيا استغلتا على نحو خبيث البغض الأخلاقي لسلوك صدام حسين. ألم تدعم البلدان الغربية العراق في حربه ضد ايران من قبل، رغم أنها بدأت بعدوان عراقي غير مشروع؟ في صحيفة الـ« غارديان » بتاريخ ٢٤ كانون الثاني / يناير ١٩٩١ يقرّ دوغلاس هرد بحكاية المصالح النفطية دون أن يخفي انشراحه، أو ينسى الاشارة الى أن العراق بعد احتلاله للكويت بات يسيطر على ١٨٪ من احتياطي النفط العالمي. ولو كان اجتاح السعودية لسيطر على ٤٤٪ من ذلك الاحتياطي. إذا كان الأمر كذلك، ألم يكن يكفي الدفاع عن السعودية

وممارسة الضغط على صدام حسين عبر العقوبات الاقتصادية؟ من المؤكد ان هذه الحرب تلحق الأذى بامدادات النفط العالمية أكثر مما كان سيفعله عراق محروم من القطع النادر.

التفسير الآخر الأكثر احتمالاً يتصل بنهاية الحرب الباردة. لا بد من تفسير هذه الحرب بمصطلح انهيار النظام القديم ليس فقط بمعناه البسيط المتمثل في أن الولايات المتحدة باتت الآن القوة العظمى الوحيدة، بل بالمعنى الأكثر عمقاً والمتمثل في أن انهيار النظام القديم يتصف بعواقب بعيدة المدى تطال المجتمع والسياسة الامريكية، وأن هذه الحرب هي ردّ فعل دفاعي تجاه الاضطراب العميق الذي أحدثته نهاية الحرب الباردة. لتطوير هذا التفسير وتقدير آثار الحرب، تقتضي الضرورة فهم الكيفية التي انتظم بموجبها النظام العالمي حتى عام ١٩٨٩.

الحرب الباردة كانت أسلوباً في تنظيم العلاقات الدولية. والتكوين الأصولي للحرب الباردة، والذي اشترك فيه اليمين واليسار، نهض على توصيفه بأنه أزمة مستعصية بين الشرق والغرب. والتهديد باستخدام القوة العسكرية، أو الردع، هو الذي منع نشوب الحرب. ولقد اختلف اليسار واليمين حول طبيعة هذه الأزمة فقط. فاليمين رأى فيها أزمة بين الحرية والتوتاليتارية، أما اليسار فاعتبرها أزمة بين الرأسمالية والاشتراكية. ولقد تبادل اليمين واليسار مقولة أنها شكل من أشكال تنافس القوى العظمى.

ثمة وسيلة أخرى لفهم الحرب الباردة، لا بصفتها أزمة بل نوعاً من التواطؤ، رغم أن تعبير «التواطؤ» ينطوي على قدر كبير من القصد الواعي. لقد توفّر نظامان متميزان في الشرق والغرب: التنويع الفوردي [نسبة الى فورد] للرأسمالية، والتنويع الستاليني أو ما بعد الستاليني للاشتراكية. لكن النظامين لم يتصارعا.. لقد كانا بحاجة لبعضهما البعض، وأكملا بعضهما البعض، وارتبطا معاً في سياق نظام عالمي مشترك حدّد مضمون فترة ١٩٤٨ - ١٩٨٩.

وينبغي النظر الى المواجهة العسكرية التي مثّلت هذا النظام العالمي لا بوصفها حالة ردع، بل حرباً متخيّلة. والحال أن الطرفين لم يكونا بصدد التحضير لحرب مستقبلية تردع الطرف الآخر. الطرفان بالأحرى كانا يمارسان الحرب في نطاق المخيلة. ويوماً بعد آخر تصرّف الطرفان على نحو يوحي بأن الحرب العالمية الثانية لم تنته بعد، وتمثّل ذلك في المناورات والتدريبات العسكرية، في سيناريوهات المواجهة، وفي العاب التجسس وحروب الخطب الرنانة. لقد أفرز

هذا الموقف نتائج عميقة على قيام نظاميهما بمختلف الوظائف. الحرب العالمية الثانية أعطت الحلول اللازمة لبعض المشكلات الاقتصادية والاجتماعية المستعصية. الحرب المتخيّلة، أو السنوات العشرون الأولى بعد الحرب، أعادت انتاج حلول الحرب العالمية الثانية. لقد خلقت مناخ حرب يمكن استخدامه لادارة الاقتصاد وتوليد التجانس الاجتماعي.

بالنسبة للغرب، يمكن القول ان الحرب المتخيلة حددّت تعريف حقبة الرأسمالية الفوردية، وبمقدورنا وصفها بالمنهج الفوردي في التنظيم الدولي للعلاقات السياسية. ذلك لا يعني القول بأنها كانت واحدة من نتائج صعود الفوردية (أي التغيرات الحاصلة خلال النصف الأول من القرن العشرين في أساليب الانتاج الرأسمالية). انها بالأحرى وسيلة للتلاؤم مع بعض التناقضات التي أثارها صعود الفوردية. انها لم تولد لأسباب سياسية، بل كنتيجة لصيرورة سياسية معقدة. العديد من الخصائص التي نقرنها عادة بالفوردية، مثل المستوى العالي للانفاق العسكري أو الاستهلاك الفردي، يمكن أيضاً تفسيرها بمصطلح المؤسسات السياسية التي كوّنت الحقبة الفوردية.

الحرب العالمية الثانية حلّت مشكلات الركود الاقتصادي في الثلاثينات. ولقد أعطت زيادة هائلة في الإنفاق الحكومي في الولايات المتحدة كما في أوروبا، وخلقت اجماعاً متعدد الأحزاب، واحساساً بالتضامن السياسي على النطاق الداخلي وفي صفوف الحلفاء حول الاشتراك في قطف ثمار أهداف الحرب. بعد الحرب مباشرة انتقلت الولايات المتحدة سياسياً الى صف اليمين، في حين انتقلت أوروبا على نحو دراماتيكي الى اليسار - فلقد فقدت مؤسسات ما قبل الحرب مصداقيتها عبر المهادنة والتعامل. انتخابات ما بعد الحرب أعطت حكومات يسارية أو تحالفات ذات صبغة يسارية في جميع البلدان الأوروبية. خفضت الولايات المتحدة حجوم الانفاق الحكومي والدعم المالي لحلفائها السابقين، بغض النظر عن حقيقة أن الحلفاء كانوا في ضائقة اقتصادية وأحوج ما يكونون الى الدولار بسبب الطابع المحافظ للنظام الضريبي والطبيعة اليسارية للحكومات الأوروبية الجديدة.

كانت الحرب الباردة وسيلة لإعادة خلق اجماع تعدّدي وحس بالتضامن التحالفي، بين بريطانيا والولايات المتحدة على أقل تقدير. أصحاب نظرية «الصفقة الجديدة» في الولايات المتحدة كانوا قادرين على تأمين الدعم لفكرة حكومة كبيرة، عبر التشديد على التهديد السوفياتي. الديمقراطيون

الاشتراكيون والأحزاب العمالية في أوروبا الغربية كانوا قادرين بدورهم على تأمين هيبة الجانب بوسيلة ابراز ابتعادهم عن الشيوعيين. ذلك التجانس المكتشف حديثاً بين الحكومات في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية وفرّ اطاراً سياسياً لتنظيم الاقتصادي الدولي (في جوانبه المالية والتجارية والتكنولوجية) ولتعميم الفوردية، بالاضافة الى منهج يقنع الولايات المتحدة بصرف فائض دولاراتها.

لا أريد الايحاء بأن ستالين لم يكن له ضلع في أصول الحرب الباردة هذه. على العكس تماماً، إذ أن احتلال اوروبا الشرقية والسلوك الوحشي للجيش الأحمر كانت عناصر مكوّنة حيوية. لم يكن وارداً أن يقوم الغرب بشيء - في ذلك الميدان - لمنع الامتداد الشيوعي في أواخر الاربعينات. لعل الاتفاق حول المانيا وتقديم مساعدة مارشال بلا قيد أو شرط كان سيقود الى محصلة مختلفة. بيد أن تقسيم المانيا، وقرار انشاء دولة المانية غربية، وتأسيس حلف الناتو وفّرت الشرعية للدور السوفياتي في أوروبا الشرقية، والعكس بالعكس.

ذروة الحرب الباردة كانت أيضاً المرحلة التي عرفت فيما بعد بالعصر الذهبي للرأسمالية. ويمكن النظر الى الوفاق والحرب الباردة في السبعينات والثمانينات كأساليب مختلفة لردود الفعل ازاء أفول العصر الذهبي، وتراجع الصيغة الفوردية للتوسع الرأسمالي، وانبثاق سياسات جديدة للتراكم الرأسمالي في المانيا الغربية واليابان، ترتكز على تكنولوجيا جديدة لحقبة ما بعد الفوردية.

ڤييتنام كانت نقطة انعطاف. ليس مصادفة أن عام ١٩٧١ كان سنة أول عجز تجاري امريكي، وسنة خفض قيمة الدولار، والتخلّي عن نظام بريتون وودز في حساب معدّلات التبادل الثابتة. لقد كانت أيضاً السنة التي شهدت ذهاب نيكسون وكيسنجر الى موسكو وتدشين الوفاق. كانت ڤييتنام حرباً حقيقية، والحروب الحقيقية لا يمكن التكهن بنتائجها كما هو الحال في الحروب المتخيلة. استقطبت ڤييتنام الرأي السياسي بدل أن تعيد خلق اللحمة الاجتماعية. كانت ڤييتنام باهظة التكاليف؛ في مرحلة كوريا حدث نقص في الدولار، والانفاق الحكومي المتزايد حفّز الاقتصاد الامريكي، أما في مرحلة ڤييتنام فقد أدى الانفاق المتزايد الى التضخم والعجز التجاري.

منذ السبعينات وما بعدها ازداد تحوّل الحرب الباردة الى عقبة في وجه الاستقرار الاقتصادي والسياسي. اليسار تحدّى المساومة الاطلنطية بالحركات الاجتماعية الجديدة التي انبثقت في أعقاب ڤييتنام. في صف اليمين تولى عملية

انتقادها الليبراليون الجدد الذين فضلوا شكلاً أكثر ليبرالية من الرأسمالية. لم يعد الإنفاق العسكري الامريكي يسهّل التوسع في الاقتصاد العالمي؛ لقد أصبح بدلاً عن ذلك عقبة أمام التنظيم المالي. ولأن الانفاق العسكري امتصّ الموارد العلمية والتكنولوجية، فقد أسهم في أفول صفة التنافس التي تمتّعت بها المنتجات الأمريكية، ثم في أفول قدرة الولايات المتحدة على التحكم في الاقتصاد العالمي. جوهرياً، حافظت الحرب الباردة على هياكل السلطة الامريكية ومنعت بالتالي صعود مجموعة جديدة من المؤسسات السياسية التي كانت ستنظم الاقتصاد الكوني ما بعد الفوردية، وستدير وتعالج التغيرات الدراماتيكية في ميزان الاقتصاد العالمي نتيجة ادخال اساليب جديدة في الانتاج ـ خصوصاً في اليابان وغرب اوروبا، ترتكز على الاستخدام المكثف لتكنولوجيا المعلومات.

الحرب المتخيلة قوامها مجابهة عسكرية حقيقية، بجنود حقيقيين ومعدّات وموارد حقيقية. الستراتيجيات، والأسلحة المصممة لها خصيصاً، كانت تُمثّل في سهول المانيا الشمالية وتحمل شبهاً ملحوظاً مع التجربة الفعلية للحرب العالمية الثانية. التكنولوجيا المدنية تتغير باستمرار، وفقاً للحاجات المتغيرة التي يشير اليها السوق. التكنولوجيا العسكرية تتغير دراماتيكياً في زمن الحروب، وفقاً للتجربة في ميدان القتال. في زمن السلم تمتد التكنولوجيا العسكرية الى الخمول. الابتكارات الجديدة لا تطبق الا بقدر ما تناسب مهام واستراتيجيات قائمة حدّدتها حروب سابقة.

الحرب العالمية الثانية كانت حرباً فوردية. ولقد كان المزج بين الانتاج الجماعي ومحرّك الاحتراق الداخلي هو المسؤول عن انتصار الحلفاء. أما العامل الحاسم فقد كان قدرة الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي على التصنيع بمعدلات أعلى من معدلات المانيا. معمل واحد من معامل فورد كان ينتج من الطائرات شهرياً ما يعادل نصف الطاقة الانتاجية القصوى لجميع معامل الطائرات الالمانية. كذلك كان اختراع الدبابة والطائرة بمثابة اختراق للتعادل الدفاعي الذي اتصفت به الحرب العالمية الأولى.

الحرب الكورية كانت شبيهة بذلك تماماً. في حرب اوروبا المتخيلة أعاد الطرفان التعاقد على اسلوب ومهام الحرب العالمية الثانية. وإذا وجدت فروقات نَسَقية على الجانبين فهي تفسّر بمصطلح الاختلافات على الجبهتين الشرقية والغربية. انهما لا يقاتلان بعضهما البعض بقدر ما يحاربان خيالاً ما يمثل الجيش الألماني. ذلك يتضح على وجه الخصوص بالاشارة الى الأسلحة النووية.

الولايات المتحدة وبريطانيا نظرتا الى الأسلحة النووية بوصفها أسلحة ارهاب وتخويف، أو توسيع فرعي لمهام القصف الستراتيجي، وما الصواريخ العابرة للقارات سوى قاذفات طيار، الروس من جهتهم نفذوا القليل من القصف خلال الحرب (فقد اعتبروا القصف الستراتيجي عملاً بربرياً)، لهذا نظروا الى الاسلحة النووية كتوسيع فرعي للمدفعية، والتي كانت سلاحاً حاسماً للغاية خلال الحرب العالمية الثانية.

حروب ڤييتنام والشرق الأوسط أدخلت بعداً جديداً على الحساب الستراتيجي. لقد طرأت زيادة هائلة على القدرة التدميرية لمختلف الذخائر، مردّها ادخال تكنولوجيات الحاسبات والمعلومات. معدّلات الاستنزاف بالنسبة للدبابات والطائرات ازدادت كثيراً، مثيرة الجدل حول اشكاليات التكنولوجيا الجديدة. ثمة مدرسة في التفكير تحاجج بأن العمليات الهجومية المتحركة لم تعد ممكنة، وأن حروب المستقبل سوف تكون شبيهة بالحرب العالمية الأولى أكثر من الثانية. أفضل ما تمّ انجازه في اوروبا الغربية كان استراتيجية دفاعية مبعثرة تصدّ الهجوم في حالة الحرب، وذلك ريثما تأخذ المفاوضات طريقها. هذه الأفكار تبنّتها حركة السلام في الثمانينات كبديل عن الاعتماد على السلاح النووي. كما أنها شكلت أساس مفهوم غورباتشوف حول «الكفاية المعقولة»، وحول المفاوضات المتعلقة بخفض الأسلحة متوسطة المدى.

المدرسة الثانية تحاجج بأن العمليات الهجومية ما تزال هامة، وينبغي تصميم التكنولوجيا العسكرية بما يكفل صيانة المهام الهجومية وتزويد الدفاع بذخائر قادرة على تدمير مؤخرة العدو. لهذا فإن مفاهيم «تكنولوجيا الانبثاق» و«المعركة الأرضية ـ الجوية» و«ضربة العمق» تنطوي على استخدام معقد لسلاح الطيران مع جميع اجراءات الحماية المضادة الالكترونية واستخدام مختلف انواع الصواريخ (أرض ـ أرض أو جو ـ أرض) ومزيج من الذخائر النووية والكيميائية والتقليدية.

اختيار واحدة من مدرستي التفكير هاتين لا يمكن أن ينهض على حسابات عقلانية، إذ يتعذر اختبار هاتين المقاربتين في الحرب. ومن الناحية العملية جرى الخيار على قواعد ذاتية تعكس الميول المفضلة لواضعي الخطط العسكرية. لهذا فقد فازت المدرسة الهجومية، وما رأيناه في حرب الخليج هو التكنولوجيات الهجومية الجديدة التي لا نستطيع اعتبارها فوردية جديدة: انها تستخدم تكنولوجيا المعلومات ولكن في الإطار الذي حدّدته الحقبة الفوردية.

إذا فهمنا الحرب الباردة كحرب خيالية، كموقف يحتاج فيه التنويع الفوردي للرأسمالية الى التنويع الستاليني للاشتراكية، وتقوم فيه تلك المواجهة الكاذبة التي لا تنتهي بدعم النظامين معاً، فإن انهيار الشيوعية لا بدّ أن يقود إلى ردّ فعل دراماتيكي من قبل الغرب. حرب الخليج يمكن وصفها بصراع السيطرة على النظام العالمي بعد الحرب الباردة، بالمطالبة بالابقاء على القيادة الامريكية للعالم وتأسيس شكل من أشكال التنظيم السياسي لاقتصاد العالم في الحقبة بعد - الفوردية بما يكفل بقاء المؤسسات السياسية الفوردية.

قبل حرب الخليج بزمن طويل حذّر وزراء دفاع امريكا وبريطانيا وفرنسا من التهديد الجديد القادم من الجنوب: زيادة الصواريخ والأسلحة الكيميائية، خطر المتطرفين والأصوليين، وتجارة المخدرات، الخ. وفي خطبة عصماء تنبض بالبلاغة تحدث جورج وولدن عضو البرلمان المحافظ على شاتام هاوس في حزيران (يونيو) ١٩٩٠ عن التأثير الثوري لانهيار الشيوعية على مؤسساتنا. وأشار وولدهام الى الطريقة التي كانت وراء تضخيم دور بريطانيا بعد الحرب الباردة: «ما الذي يمكن أن يرفع المعنويات أكثر من مشهد الحكومة وهي ترفع ألوية الانتصار في وجه شرور الشيوعية والحماقات الاجرامية لجنرالات الارجنتين ودسائس الفرنسيين الغادرين»؟

«الآن انقضى ذلك كله... الشيوعيون ألقوا المنشفة وتركونا نرقص على الحلبة بحثاً عن غريم. وباستثناء الشرق الأوسط فإن البؤر الساخنة في العالم الثالث تبرد بسرعة».

«السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو ما هدف الدفاع والدبلوماسية البريطانية الآن؟ في ميادين الحياة الأخرى حين ينهار الطلب على بضاعتك لسبب خارج ارادتك كليّاً، فإنك لا تلجأ الى التفتيش عن زبون جديد بل تبدّل انتاجك في سبيل ربح أفضل. ثمة احساس مزعج حول أمر ما يجري في العالم رغماً عن بريطانيا وعلى العكس من مصالحها. الأمر ببساطة يتصلّ بالفزع من أن نهار بريطانيا الطويل تحت الشمس العالمية يسير نحو الأفول، وأنه يتوجب علينا قضاء وقت أقل في التسكع عند منحدرات القمم ووقت أطول في حفر الحيازة الوطنية الصغيرة. بانقضاء الحرب الباردة وصعود اوروبا الجديدة يقترن حسّ الأمل - في بريطانيا - مع حسّ متواتر بالفقدان».

إذا كان الحال هكذا في بريطانيا، فماذا كان عليه الحال في الولايات المتحدة،

وما مقدار الاضطراب الذي اكتنف الاحساس بأن أمراً ما قاهراً يجري اليوم في العالم. لقد استهلكت الحرب الباردة قدراً كبيراً من النفوس والمهن والآراء، والبحث المحموم الذي ساد الجماعات الأمنية والأدمغة الفكرية والجامعات على نطاق الولايات المتحدة عام ١٩٩٠ يشير الى شيء من «حس الفقدان» هذا.

ويمكن النظر الى حرب الخليج كمحاولة لعكس ذلك الأمر القاهر. في اللحظة التي شرعت فيها المؤسسات على جانبي الأطلسي في الحديث عن تخفيضات جوهرية في الانفاق العسكري، وحين أخذ دور الصقور السياسيين المتشددين يخبو بعض الشيء، وحين بدت الولايات المتحدة وكأنها تُعوِّم بعيداً عن دورها العالمي، وأن أوروبا الجديدة الواثقة من نفسها قاب قوسين أو أدنى من الولادة، في هذه اللحظة أقدم العراق على غزو الكويت. ولقد قفزت لغة الحرب الباردة واجراءاتها وروتينها الى ميدان الفعل من جديد. نُشرت القوات الامريكية وفق خطة محددة بهذا المعنى أو ذاك، «العملية ٩٠ ـ ١٠٠٢» التي طوّرت في مطلع الثمانينات لاحتواء الاندفاع الجنوبي الذي يحتمل أن ينفذه الاتحاد السوفياتي. تشدّق بوش مطوّلاً بالكلام عن الخير والشر، والحق والباطل، وعن هتلر وميونيخ والسكوت عن العدوان، مستخدماً جميع العبارات التي ظنّ معظمنا أنه سمعها للمرة الأخيرة من قبل، بعد ثورات ١٩٨٩. تفسخت الوحدة الأوروبية وجرى احياء العلاقة الخاصة الامريكية ـ البريطانية، وانضمت الأمم المتحدة الى الفعل الامريكي، وبدا أن حرب الخليج جاهزة لأن تصبح اللحظة التي يرسم بعدها نظام ما بعد الحرب الباردة.

والامبراطوريات، في طور اضمحلالها، تزداد خطورة. ويجري الحفاظ على بُنى السلطة الداخلية بوسيلة الدور الامبريالي. في كتابه «نهوض وأفول الامبراطوريات» يكشف بول كينيدي خيطاً حساساً في الجسم السياسي الامريكي. هل ستسمح حرب الخليج بتأسيس اطار دولي جديد تتسيّده الولايات المتحدة، ويخدم كأوالية لتنظيم الوضع السياسي الدولي في الحقبة ما بعد الفوردية؟ من المؤكد أنه يمكن تصوّر مثل تلك النتيجة. ثمة أمر مقبض في هذه الحرب. لقد قُدّمت كحرب «جراحية» تجري بتحكم تكنولوجي عالٍ، وأن الأهداف العسكرية وحدها هي التي تقصف، وكلّ ما نشهده ليس سوى شاشة تلفزيون تعرض الطبيعة الأخاذة لتلك المعدّات، وعجز وضآلة أولئك الأعداء ابناء العالم الثالث.

إذا هُزم صدام حسين بسهولة، وكان العرض ناجحاً، ولم تفقد الحرب

جاذبيتها وشعبيتها الراهنة، عندها سيكون ممكناً أن تؤسس الولايات المتحدة وبريطانيا واسرائيل والمملكة العربية السعودية وجوداً عسكرياً دائماً في الخليج. منذ الآن يضع البنتاغون خططاً لاحتواء بعيد المدى، يتضمن انشاء مراكز تدريب وتأهيل لآلاف الجنود. ولقد اقترح دوغلاس هيرد تأسيس مجلس تعاون حول الخليج يشترك فيه ويدعمه الغرب، لاحتواء التيارات القومية العربية والنزعات الأصولية الاسلامية.

المانيا واليابان والدول العربية الحليفة الغنية بالنفط هي التي تسدّد نفقات وجود عسكري دائم ممهدة بذلك لامتصاص التوفيرات الزائدة لتمويل العجوزات الخارجية الطويلة والدائمة التي تعاني وستعاني منها الولايات المتحدة وبريطانيا. لسوف يكون عالماً نيو ـ فوردياً تحدّد فيه أولويات الحقبة الفوردية طريقة استخدام تكنولوجيا المعلومات الجديدة، عالماً تقتصر فيه الأولويات على الإنفاق العسكري والاستهلاك الفردي، وتنحصر نوازعه في مجالي الطاقة والنقل. ولسوف يكون عالماً راكداً تتحمل شعوب العالم الثالث وطأة النفقات الناجمة عن المغامرات العسكرية والاستهلاك الفردي، وذلك عبر معدلات الفائدة العالية وأسعار النفط المرتفعة وحصّة السلام المضيّعة. ولسوف يكون عالماً استثنائياً تطهّر فيه الدول الغنية أوشاب ضغط الهجرة وتهديد الإرهاب.

والدول الغنية سوف تلتف حول شعار الديمقراطية ضد أعداء من نمط صدام حسين في الشرق الأوسط والعالم الثالث وربما في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي. قد يهزم صدام حسين، وقد يقتل، غير أن ظاهرة صدام حسين ستعيش، ولعلّها ستتغذى بفعل الحرب. انها ظاهرة التعصب والأصولية، ظاهرة هي محض نتيجة للفقر والإحباط والعجز أمام الثروات المنهوبة والثقافات المدمّرة، فضلاً عن استعداد الغرب لبيع الأسلحة والتكنولوجيا بغرض الربح أو المصالح الجيو ـ سياسية قصيرة المدى. من الممكن تصوّر حرب متخيلة جديدة بين الشمال والجنوب، بين النيو ـ فوردية والأصولية، بين الحداثة والمسخ. هذه الأنظمة الثنائية سوف يغذي بعضها البعض من خلال مواجهة مستمرة دائمة تجرى فصولها على مسرح الشرق الأوسط.

بيد أن حرب الخليج قد تسفر عن نتيجة تجعلها أقرب الى ڤييتنام من كوريا. قد تكون الشهقة الأخيرة للامبريالية الأمريكية في وجه الاضمحلال. قد تؤشر حرب الخليج على بداية نوع من البيريسترويكا الغربية. فمن جهة أولى يصعب رؤية الكيفية التي بموجبها ستصان الهيمنة الأمريكية المتجددة من الوجهة

الاقتصادية. هذه الحرب باهظة التكاليف، ونفقات الولايات المتحدة العسكرية تقدر بـ ٦٠ مليار دولار حتى الآن، أما بريطانيا فتبلغ نفقاتها ما يعادل ميزانية الدفاع لعام ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ بأسرها. لقد استدر هذا الموقف تعليقات لاذعة في الصحافة الامريكية والبريطانية حول عزوف الدول الأوروبية عن تحمّل مسؤولياتها. والحق أن الانتعاش القصير لنزعة التأييد لأوروبا التي سادت بريطانيا بعد تاتشر، غمرته بسرعة موجة الحماس الأطلسي وقرع طبول الحرب، حتى أن الحديث عن الوحدة السياسية يبدو خارج جدول الأعمال اليوم. غير أن نتيجة أخرى يجري استخلاصها بشكل مختلف في بلدان أوروبية غربية أخرى: الوحدة السياسية الأوروبية ـ ربما باستثناء بريطانيا ـ باتت اليوم على درجة من الأهمية بحيث تستطيع تدقيق السلوك الامريكي، بهدف تجنب نظام دولي أحادي القطب. في اسبانيا وايطاليا والمانيا على وجه الخصوص ثمة نقاش مستفيض حول نموذج لحوض البحر المتوسط على غرار «مجلس الأمن والتعاون الأوروبي»، المعروف أيضاً باسم سيرورة هلسنكي، وحول سيرورة مؤسساتية طويلة الأجل من الحوار والمفاوضات المتعلقة بمشكلات المنطقة، التي ينظر اليها كبديل عن «مجلس التعاون الخليجي» التي طرحها هيرد.

ان سلوك الدول يعتمد على السيرورات السياسية الداخلية. ونجاح صيغة الحرب الباردة شديد الصلة بطريقة السيطرة على اجماع سياسي عريض متعدّد الأطراف، وعلى دمج أحزاب اليسار المهيمنة. وصيغة حرب باردة بين الشمال والجنوب غير مرشحة للاستئثار بالنوع ذاته من الدعم الداخلي العريض، حتى حين يأخذ المرء بعين الاعتبار أن احزاب اليسار تدعم الحرب، في الولايات المتحدة وبريطانيا على الأقل. الحركات الاجتماعية الجديدة التي انبثقت في السبعينات والثمانينات تحركت خارج الهياكل الحزبية الشكلية بسبب الطريقة التي وقعت من خلالها أحزاب اليسار في إسار تسوية الاربعينات، التي أريد منها اجتراح مسارات تحررية جديدة. غير أن تلك الحركات مارست، دون شك، تأثيراً عميقاً على الثقافة السياسية الغربية، خصوصاً في المانيا وأوروبا الجنوبية حيث كانت المواقف من الحرب الباردة أقلّ رسوخاً وعمقاً، والسيرورات السياسية أقلّ تمركزاً.

حين تظهر الأثمان الحقيقية الانسانية والبيئية والسياسية لهذه الحرب (إذا ظهرت)، عندها قد تعود الى الصدارة تلك الحركات الجديدة التي تتمحور حول السلام والبيئة وفقر العالم الثالث والتمييز العرقي والديمقراطية، ولعلها ستحتل

رأس لائحة الهموم السياسية. وحقيقة أن قصفنا للعراق، وهو بلد صغير من بلدان العالم الثالث، قد أعاده الى القرن التاسع عشر أو قبله أيضاً؛ وأن العنف المستمر سوف يبقى احتمالاً مفتوحاً في الشرق الأوسط؛ وأن كلاً من العراق والكويت مرشح لدرجة ما من «اللبننة»؛ وأن ايجاد حلّ للمشكلة الفلسطينية يزداد صعوبة؛ وأن تهديد الارهاب يتعاظم والقوى الديمقراطية تنكمش... حقيقة ذلك كلّه سوف يقوي التيارات المعارضة لمواجهة طويلة الأجل بين الشمال والجنوب.

ان فترات الانتقال السياسي تتسم دائماً بالفوضى العارمة. انها أحقاب للتجريب السياسي، فالنظام القديم ينهار، وثمة طرق جديدة يجري اختبارها بهدف تنظيم العالم. الأمر أشبه بتنافس في ساحة السوق، والفارق فقط يتمثل في أن أثمان الفشل باهظة للغاية، وتنطوي على العنف والفوضى. الاتحاد السوفياتي يتفكك، والولايات المتحدة تغرب شمسها، وقد تكون الوحدة السياسية الأوروبية قيد الانجاز، بيد أنه من المشكوك فيه أن تلعب الوحدة السياسية الأوروبية دور القوة العظمى أو تقوم بمهام تنسيق الجهود العسكرية أو «التحدث بصوت واحد. قد لا يكون ذلك كلّه جديراً بالتجربة أيضاً. ويصعب تصوّر «سلام أوروبي» Pax Europa أو «سلام ياباني» Pax Japonica لجميع الأسباب التاريخية والجيو - سياسية.

وفي هذا العالم الذي تزايد فيه حالة الاعتماد المتبادل، قد تكون فكرة القوى العظمى ذاتها - بالمعنى التقليدي - غير قابلة للتطبيق. في الفترة التي أعقبت الحرب لعبت المؤسسات العالمية دوراً متعاظماً بصرف النظر عن خضوعها للولايات المتحدة، وللاتحاد السوفياتي بدرجة أقل. ومن الصعب على المرء أن يرى كيف ستوضع الحلول للمشكلات الدراماتيكية للعالم الحديث، كما تخلقها الفوردية، إلاّ إذا توفّر نوع من التعاون بين القوى الكبرى والأقل شأناً، ونوع من التدخل تمارسه تلك المجموعات والحركات التي تشدّد على المشكلات الكونية. إذا لم يحدث ذلك، وإذا جرى تهميش واستثناء التنازع العميق، وتعذر بلوغ هيكلية كونية لتراتب القوى، فإن المستقبل سيبدو قاتماً.

غير أنه سيكون من الصعب انشاء نظام كوني جديد لحقبة ما بعد الفوردية، يكون له حظّ من الاستقرار. انه سيفرض ضرورة اصلاح البُنى السياسية خصوصاً المؤسسات الدولية مثل الأمم المتحدة أو صندوق النقد الدولي. ذلك غير مرشح للحدوث إلا إذا استكملت الوحدة السياسية الأوروبية ولعبت أوروبا

واليابان دوراً أكثر استقلالية في القضايا الدولية. سوف يفرض مساءلة ذاتية جوهرية وتحويلاً للأحزاب اليسارية السائدة واعادة ترتيب المنظور السياسي الداخلي.

العالم سيكون حافلاً بالمفاجآت، العالم الحقيقي المضطرب المتلاطم، خلال السنوات القليلة القادمة على أقل تقدير. أكثر ما سيكون في وسع المرء أن يتكهنه هو أن التسعينات ستكون حقبة لمزيد من الشدّ والجذب، والنقلات النوعية والانعطافات المعاكسة، ثم التطورات الكبرى غير المتوقعة.

كيف سنخرج من هذه الأزمنة المضطربة (وإذا كنا سنخرج أصلاً)، أمر يعتمد على نوع الجدل السياسي والأفعال والخيارات والتحالفات التي تفاعلت خلال هذه الفترة في الولايات المتحدة واليابان والشرق الأوسط، وخصوصاً هنا في أوروبا.

Marxism Today,
March 1991

نظام عالمي جديد:

أممٌ بعد ذوبان الجليد

■ نيل آشيرسن

قبل الدخول في وصف النظام الدولي الجديد (أو الفوضى)، يتوجب علينا إيضاح ما نعنيه بالنظام القديم، وأن نحدّد قيمه. من الناحية الجوهرية، نحن نتحدث عن مرحلة الحرب الباردة ـ التي حللّتها ماري كالدور على نحو بالغ العمق في خانة «الحرب المتخيّلة»(*). ونقصد حدوده في أوروبا والعلاقات بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة. ليس لديَ في هذا الصدد ما أضيفه على تحليل كالدور.

ولكن كيف سنقيّم تأثير الحرب الباردة خارج نطاق أوروبا وأمريكا الشمالية، في العالم الذي انبثق بعد ومن الحرب العالمية الثانية وظلّ رازحاً على نطاق عريض للشرط الاستعماري؟ بالأمس حاضر نوام شومسكي في «المعهد الكاثوليكي للعلاقات الدولية» مؤكداً أن التأثير كان سلبياً بدرجة عالية: «الحرب الباردة كانت في الأساس حرباً تشن ضد العالم الثالث». ذلك يثير مئات الأسئلة، إذ لو قدّر لذلك النظام البائد أن تكون له فضائل ما، فسيعثر عليها هناك في ذلك العالم. خلال الحرب الباردة، أو بسببها ربما، تمكن العالم المستَعمر من نيل استقلاله السياسي.

لقد كان للحرب وللحرب الباردة آثارها التقدمية داخل الامبراطوريات الاستعمارية. في المستوى الاقتصادي قفزت أسعار المواد الخام الستراتيجية وأفضت الى ارتفاع في المداخيل بالعملات الصعبة: في أفريقيا وآسيا حاز العديد من السكان على قدرة شرائية وعلى مدخرات. وحين تقلّبت تلك الاسعار، بعد الانتعاش الذي تلى نهاية الحرب الكورية مثلاً، اتسع نطاق الاضطرابات التي

(*) انظر دراسة ماري كالدور في مكان آخر من هذا الكتاب (المحرر).

أخذت في الغالب شكل مقاومة لصناديق ومؤسسات نقدية سعت الى تثبيت استقرار الاسعار بدفع من القوى الاستعمارية. من قلب هذه الاضطرابات نشأت الحركات التي ستصبح أحزاباً قومية ونضالات تحرر وطني. من جان آخر سمح هامش التوتر بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ان تلعب حركات التحرر الوطني دور المنحاز الى هذا الطرف أو ذاك: الخوف من «الشيوعية» حفز بعض القوى الاستعمارية على تقديم تنازلات سياسية، في حين قدّم الاتحاد السوفياتي أسلحة وتدريباً ودعماً سياسياً لتلك الحركات. وجبهة «فريليمو» في الموزامبيق هي احدى الحركات التي تدين بنجاحها الى توترات الحرب الباردة.

بيد أن انهيار النظام القديم بات الآن مؤكداً. من خلال اصطراع وتفجر الاتحاد السوفياتي، أصبح النظام العالمي الثنائي القطب نظاماً أحادي القطب. لم يكن أحد يتوقع ذلك، وبمقدورنا أن نتذكر مرحلة «الهوس الصيني» في الولايات المتحدة خلال السبعينات، وتكهن ولادة عالم «ثلاثي القطب». أين نحن من ذلك الآن؟ لقد ساد الاعتقاد بأن ثنائية القطب سوف تعيش، حتى لو خفّت حدتها. اطار هلسنكي بأسره نهض على افتراض مفاده أن الغرب والاتحاد السوفياتي سيحتفظان بمناطق نفوذهما، خصوصاً في أوروبا، وإن كان تطبيق أساليب الهيمنة سيصبح أقلّ فظاظة وأكثر تسامحاً، وأن سلسلة من المفاوضات والاتفاقات الأمنية سوف تزيل تدريجياً احتمال مواجهة بين الشرق والغرب. لكن الحرب الباردة انتهت على نحو آخر مختلف تماماً وغير متوقع، وذلك حين انسحب أحد الجبارين من النزال وتنازل عن حصته في النفوذ داخل منطقته الأوروبية. لقد تُركت الولايات المتحدة كقوّة عظمى وحيدة في واقع الأمر.

ماذا تخبرنا الحرب ضد العراق بشأن الكيفية التي ستمارس فيها الولايات المتحدة حرية الفعل القصوى غير المتوقعة في العالم؟ قد تكون هذه النقطة مناسبة لكي أعرب عن اعتقادي بخطل فكرة قيام قوة عظمى جديدة منافسة في هيئة «مجموعة أوروبية» في المستقبل. لسوف تكون أوروبا ضيعة رائعة ككتلة بشرية واقتصادية. لكنني، سياسياً، أتكهن بقرب «جَرْمَنة» المجموعة الأوروبية، بمعنى أن الرغبة الألمانية الراهنة في تحاشي الالتزامات الخارجية الفعلية والتركيز على التنمية الداخلي سوف تصبح الخلق الدفاعي السلبي للمجموعة الأوروبية، التي ستسعى لبناء أسوار تعزلها عن اضطرامات العالم الخارجي.

ثمة نظرة تنهض على التفاؤل في تقديرها الى نوعية العالم الأحادي القطب، استناداً الى معطيات حرب الخليج. للمرة الأولى سيكون في وسع الأمم المتحدة أن

تمارس دوراً فعالاً في ضمان نظام دولي يقوم على احترام القانون، تكون فيه الولايات المتحدة هي القوة المسلحة الرادعة للعدوان. حقاً أنه لنظام عالمي جديد...

نظرة أخرى أقل تفاؤلاً ترى أن الولايات المتحدة ستكون الآن قادرة على استخدام القوة، عند الضرورة، لفرض مصالحها الوطنية في طول العالم وعرضه دونما خوف من متحدٍ أو غريم، وأن الأمم المتحدة ستسير خلفها مرغمة. الحقائق هي الحقائق... قلّة من الناس فقط يؤمنون أن الولايات المتحدة ستغيّر ثوابت سياستها في أمريكا اللاتينية، أو تعيد النظر بممارساتها في تلك البقعة من العالم، لمجرد أن «الخطر» السوفياتي قد زال. دع جانباً أية شعارات أو تسميات لتوصيف أو تسويغ التدخل العسكري وزعزعة الاستقرار. ان ضعف ردّ الفعل الامريكي على الأحداث في جمهوريات البلطيق مرّره ذلك التطابق غير المعلن حول الشؤون الداخلية أكثر منه استرضاء الاتحاد السوفياتي للحفاظ على التحالف المعادي لصدام حسين.

بطبيعة الحال، قد لا يكون هذا «النظام الجديد» أحادي القطب. ثمة تحليلات جديدة ـ ألمانية وأمريكية ـ تقول بأننا الآن نغادر ذلك العالم، بدلاً من أن نكون في طريقنا لدخوله، وأن الحرب الباردة (التي قُدّمت زوراً كحالة من توازن الرعب بين الجبارين) كانت في الحقيقة مرحلة الهيمنة الامريكية الكونية وتحدياتها. والولايات المتحدة، في أفولها الاقتصادي، سوف تنعزل الآن وتتقاعد، تاركة العماء المتزايد لنظام «الفوضى العالمية» يتحرك وفق قوانينه الخاصة. إذا صحّت تلك المقولة فإن التحالف الدولي الواسع المناهض للعراق، بقيادة الولايات المتحدة، هو نهاية حقبة أكثر منه بداية لها.

احدى النظرات تقول أن «الحرب المتخيلة» سوف تستمر، مستبدلة الحرب الباردة بخصوم جدد، وبذلك تكون حرب الخليج أقرب الى الحرب الكورية كصراع يحدّد شكل النظام العالمي الجديد. غير أنه يصعب تنفيذ استقطابات الحرب الباردة بصيغتها الاجمالية، فمن الضروري وجود فريقين لكي تنشب حرب ما، باردة أو ساخنة. ولقد أوحت الثمانينات بأن الأهداف ـ الفزّاعات الجديدة يجري انشاؤها لتحلّ محلّ الاتحاد السوفياتي. احدى هذه الفزاعات هي «الأصولية»، إسلامية أو غير اسلامية. أما الهدف الأكثر احتمالاً وديمومة فهو الصورة الشريرة للنزعات القومية. وإذا صحّ ـ كما أعتقد ـ أن القومية في أشكالها المتعددة ستبقى الدينامية السياسية الرئيسية للجنس البشري، فمن

المربك أننا نسمع إدانات قليلة واجمالية لها. القومية وجدت وتوجد وستوجد... انها ـ على حد تعبير توم نيرن ـ وجه جانوس الناظر من جهة الأمام الى التحرر والتقدم، ومن جهة الخلف الى أفكار الماضي الرجعية والأسطورية. انها القوة التي يتوجب ألا تتماهى مع الدولة ـ الأمة، المفهوم الذي التصقت به القومية كما يلتصق السرطان الناسك بالقوقعة، والذي يبدو الآن أنها تتحرر منه حيث تظهر الدولة ـ الأمة ذات السيادة دلالة واضحة على أنها آيلة للزوال.

كيف حدث أن التمييز بين الدولة والأمة ما يزال يفلت من باصرة المثقفين البريطانيين اليساريين؟ أن تسمع من يشير الى سكوتلندا على أنها انكلترا أمر يمثل غلطة شنيعة وقورة تمثّل ـ على الأقل ـ الطبيعة غير المتكافئة لصيغة علاقة. غير أنه ما من عذر لمن يخلط بين انكلترا (الأمة) وبريطانيا (الدولة متعددة القوميات).

في النظام العالمي الجديد قد يكون ممكناً للغاية أن تلعب القومية دور المعارضة لذلك النظام، والمصدر الرئيسي لمقاومة وتحدي كتل القوة الكبيرة والأكثر اندماجاً. حين غلّفتها الحرب الباردة كانت قد أدّت تلك الوظيفة عملياً ولأمد طويل. غير أن المسألة أكثر تعقيداً. ثمة احساس بأن وجود النزوع القومي ـ أو الطراز القديم من الدولة ـ الأمة على وجه الدقة ـ يمكن أن يكون مناسباً لكتل القوة الساعية الى الهيمنة.

ان «مؤثّر بانتوستان»(*) نظام يسمح لنواة مهيمنة ومتطورة بأن تحيط نفسها بدول فقيرة متخلفة و«ذات سيادة». تلك الكيانات تستخدم كاحتياطي لليد العاملة المهاجرة والمواد الخام، واليها يصدّر المركز بطالته حين تقتضي الضرورة. أهمية السيادة تكمن في أن البانتوستان يتحمل المسؤولية السياسية عن معالجة آثار التدهور الاقتصادي، في حين لا يتحمل المركز سوى قسط محدود أو لا يتحمل على الاطلاق. لقد توجب خلق الدويلات الدائرة في فلك المركز في أفريقيا الجنوبية. بالنسبة للمجموعة الأوروبية فقد وجدت هذه الدويلات خلال سنوات الانتعاش في السبعينات والثمانينات ـ على امتداد البلقان وسواه، أما بالنسبة للولايات المتحدة فتلك الدويلات تقع في أمريكا اللاتينية.

(*) الأوطان السوداء أو البانتوستان، هي مناطق تقام خارج نطاق «افريقيا الجنوبية» تسمح للأفارقة السود بتطوير حكم ذاتي تام، وفقاً لنظرية الأبارتيد حول التعددية. هذه المناطق تقع في أراض قاحلة وتضم كتلاً مبعثرة من السكان (المحرر).

بكلمة أخرى، للغرب مصلحة في الحفاظ على النزعات القومية، شريطة أن تبقى في شكلها الأكثر تخلفاً: الدولة ـ الأمة ذات السيادة، التابعة والصغيرة نسبياً، العاجزة عن حماية نفسها. محرّك هذه الأنظمة هو «مضخّة العمل» أو الابتكار الذي اعتادت جنوب افريقيا على تسميته بـ«السيطرة على التدفق»، والذي يضمن حركة اليد العاملة المهاجرة من وإلى البانتوستان حسب مقتضيات الحال.

لكن المضخة ترشح. ألمانيا التي أملت في ابقاء قوة العمل المهاجرة في اطار التعاقد المؤقت، انتهت الى تواجد جالية تركية ضخمة مستقرة. الشيء ذاته حدث في المناطق المدينية البيضاء في جنوب افريقيا، وفي مناطق متعددة من الولايات المتحدة. ان مشروع تصدير المسؤولية الاجتماعية خارج الحدود ينهار بسرعة، والهجرة من العالم الثالث وأوروبا الشرقية، وربما من الاتحاد السوفياتي، سوف تكون الظاهرة الرئيسية لربع القرن القادم، المشكلة المركزية لأي نظام عالمي جديد.

على المدى البعيد يتعذر انشاء أية حواجز فعلية. وتشديد اجراءات الهجرة أو الحدّ من منح تأشيرات الدخول أو تقليص حق اللجوء لا يمكن أن يتجاوز حدود خفض معدلات الهجرة. يتعذر أيضاً أن تنجح فكرة الحدّ من الهجرة بوسيلة برامج استثمار يغطيها الغرب مالياً وتهدف الى جعل الدول الفقيرة أماكن استقرار مقبولة. فالمبالغ المطلوبة لذلك هائلة (وقد تكون أوروبا الشرقية بمثابة استثناء في هذا المجال). في هذه الاثناء ستزداد جاذبية أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية، وستساعد على ذلك نفقات السفر التي باتت بمتناول السواد الأعظم من المهاجرين.

وإذ يزداد هذا التدفق (حركة سكان لا تقارن سوى بحركة الشعوب الواسعة نحو أوروبا والتي انتهت باندحار المغول) سوف نتلقى الجواب النهائي لجدلنا الصغير حول هوية أوروبية. الأمة ستعيش أطول، كفكرة تحمّل وتشعّب. بيد أن تصوّر الأمة منسلخة عن مغزاها الجغرافي واحتمالاتها الإثنية أمر أقرب الى طلب المستحيل من المخيلة. يتوجب أن ننتظر ونرى!

Marxism Today
March, 1991

برهة أحادية القطب

■ شارلز كراوتهامر

منذ أن بدا واضحاً أن الاتحاد السوفياتي المستنزف شرع في الانفكاك عن الحرب الباردة، بدأ البحث عن دور امريكي جديد في العالم. غير أن الأدوار لا تخترع في المطلق... انها استجابة لبُنية عالم ملموس مُدرك. طبقاً لذلك جرى وضع السياسة الخارجية الامريكية لمرحلة ما بعد الحرب الباردة في اطار افتراضات عديدة مقبولة تقليدياً حول شكل ومناخ حقبة ما بعد الحرب الباردة.

لقد قيل أولاً أن العالم القديم الثنائي القطب سوف يلد عالماً متعدد الأقطاب تتقاسم القوة فيه مراكز جديدة في اليابان والمانيا (و / أو «أوروبا») والصين والاتحاد السوفياتي المضمحل / روسيا. وقيل ثانياً أن الاجماع الامريكي الداخلي حول السياسة الخارجية الدولية ـ وهو الإجماع الذي أضعفته تجربة ڤيتنام بصورة راديكالية ـ سوف يستعاد جوهرياً بعد التقاعد الآمن للسياسات والجدالات المتمحورة حول «فزع جامح من الشيوعية». وقيل ثالثاً أن تهديد الحرب سيتلاشى بشكل دراماتيكي في المناخ الستراتيجي لحقبة ما بعد الاتحاد السوفياتي الجديدة.

الافتراضات الثلاثة خاطئة بمجموعها. عالم ما بعد الحرب الباردة ليس متعدد الأقطاب؛ انه أحادي القطب. مركز القوة الدولي هو جبار بغير منافس: الولايات المتحدة، يحيط بها حلفاؤها الغربيون. ثانياً، الاجماع الدولي يتعرض لهجوم متجدد، والهجوم هذه المرّة لا يأتي من الجيوب المعتادة لانعزالية ما بعد ڤيتنام الليبرالية (الكنائس مثلاً) بل من الولادة الجديدة لانعزالية محافظة على طريقة الثلاثينات. أما ثالثاً، فانبثاق مناخ ستراتيجي جديد يتّسم بصعود دول صغيرة عدوانية مدججة بأسلحة الدمار الجماعي فضلاً عن وسائل استخدامها (ما يمكن تسميته بـ«دول السلاح»)، يجعل العقود القادمة أزماناً لتصعيد أخطار الحرب بدل تلاشيها.

ـ ٢ ـ

السمة الأكثر بروزاً في عالم ما بعد الحرب الباردة هي حالة القطب الأحادي.

ولا شكّ في أن مرحلة تعدد الأقطاب ستبدأ بعد حين. خلال جيل أو نحوه ستكون هناك قوى عظمى مكافئة للولايات المتحدة، وسيكون العالم في بنيته شبيهاً بحقبة ما قبل الحرب العالمية الأولى. لكننا لم نبلغ بعد تلك المرحلة، وقد لا نبلغها خلال عقود. انها الآن البرهة أحادية القطب.

والمرحلة الآن لا تفتقر الى قوى الدرجة الثانية. ألمانيا واليابان محركان اقتصاديان. بريطانيا وفرنسا يمكن أن يوفرا مكونات دبلوماسية، وعسكرية بدرجة ما. الاتحاد السوفياتي يمتلك جملة عناصر للقوة ـ عسكرية ودبلوماسية وسياسية ـ لكنها جميعاً في اضمحلال سريع. في الدرجة الأولى ثمة قوة واحدة، وما من أفق في المستقبل القريب لأية قوة منافسة لها.

قبل شهور معدودات فقط كان الاعتقاد العام يقول بأن المنافسين الجدد، تلك الأعمدة الجديدة لعالم جديد متعدد الأقطاب، هم اليابان والمانيا (و / أو أوروبا). سرعان ما تفككت الخرافة... لقد اتضح أن الفكرة القائلة بتحوّل القوة الاقتصادية الحتمي الى نفوذ جيو ـ سياسي هي محض وهم ماديّ. القوة الاقتصادية شرط ضروري لاحتلال موقع القوة العظمى. لكنها ليست كافية بالتأكيد، كما يبرهن على ذلك السلوك الراهن لكل من ألمانيا واليابان اللتين اختبأتا تحت المنضدة حين تعالت الطلقات الأولى في الكويت. وإذا كان ممكناً لأوروبا في القرن القادم أن تتصرف كقوّة موحدة، فإن ردود فعلها الابتدائية المضطربة والمفككة ازاء أزمة الخليج تشير من جديد الى أن «أوروبا» غير مؤهلة حتى الآن للقيام بدور اللاعب على المسرح العالمي.

ذلك يتركنا أمام البنية الجيو ـ سياسية الحقة لعالم ما بعد الحرب الباردة، التي تركزت بحدّة خلال أزمة الخليج: قطب واحد ينفرد بالقوة الدولية ويتألف من الولايات المتحدة على رأس الغرب الصناعي. وربما كان أكثر دقة أن نقول: الولايات المتحدة ومن ورائها الغرب، إذ حيث لا تطأ الولايات المتحدة فليس ثمة أرض للتحالف. ذلك كان صحيحاً في رفع اعلام الدول على الناقلات الكويتية عام ١٩٨٧، وهو أكثر صحة في ردّ فعل العالم على غزو الكويت.

التفوق الامريكي المطلق يقوم على حقيقة امتلاك البلاد لمكوّنات عسكرية ودبلوماسية وسياسية واقتصادية تجعلها اللاعب الحاسم في أي صراع ينشب على أية بقعة في العالم، وتقرر أمريكا التدخل فيه. في أزمة الخليج مثلاً، كانت أمريكا هي التي تحركت بسرعة فائقة ـ ولوحدها ـ فمنعت العراق من بسط نفوذه الفعلي على مجمل الجزيرة العربية.

لقد كشف العراق بنية أحادية القطب تحكم عالمنا اليوم، ولهذا لم يكن بوسعه التوقف عن الشكوى منه. لقد أبصر دعم الحلفاء والسوفيات للفعل الأمريكي في الخليج، وتحدث عن مؤامرة ينفذها الشمال ضد الجنوب. ورغم أن الزعيم العراقي صدام حسين لا يملك حق تمثيل الجنوب، فإن تحليله ينطوي على الصواب. البرهة أحادية القطب تعني تلك التي يُختتم فيها القرن على ثلاثة حروب أهلية شمالية كبرى (الحرب العالمية الأولى، الحرب العالمية الثانية، والحرب الباردة)، ويبحث فيها الشمال بسلمه الايديولوجي عن الأمن والنظام من خلال وضع سياسته الخارجية وراء تلك الخاصة بالولايات المتحدة. ذلك ما يتجسد الآن في الخليج، وهو الشكل الذي ستأخذه الأمور في الأمد المنظور.

كذلك كان العراقيون دقيقين في كشف الاستار الخرافية عن الاجماع الدولي الذي يترافق مع النظام الدولي الجديد، ويحتفي به كثيراً. ولقد قالوا ان مجمل الجهاز المتعدد الجنسيات (الأمم المتحدة وقراراتها، القوات العربية، مواقف المجموعة الأوروبية، وسواها) الذي تكوّن في الخليج على يد الولايات المتحدة ليس سوى ستار شفاف لما هو في الجوهر قرار امريكي بتحدي الهيمنة العراقية الاقليمية.

ونعرف أنه قيل الكثير من الكلام الورع حول عالم متعدّد الجنسيات، ووعود بتحويل الأمم المتحدة الى ضامن لنظام يحكم عالم ما بعد الحرب الباردة. ذلك في الواقع خلط بين السبب والنتيجة، بين الولايات المتحدة والأمم المتحدة. تلك الأخيرة لا تضمن شيئاً، وما خلا المعنى الشكلي فهي بالكاد توجد. الأمن الجماعي؟ ما من أحد كان سيذكره لولا الولايات المتحدة بقيادتها ودفعها وابتزازها الآخرين أو رشوتهم. ما كان لأي اجراء أن يتم... لا الحصار الاقتصادي ولا «درع الصحراء» ولا التهديد باستخدام القوة. كان العالم سيمحو الكويت كما تمّ محو الحبشة على يد آخر هيئة دولية ضامنة للأمن الجماعي: عصبة الأمم.

ويتوجب استخلاص تمييز حاد بين حالة تعدد الجنسيات الفعلية والظاهرة. ان تعدد الجنسيات الحقيقي يتضمن ائتلافاً صادقاً من فرقاء متكافئين يتمتعون بقوة ومكانة قابلة للمقارنة المشتركة، مثل تحالف «الثلاثة الكبار» خلال الحرب العالمية الثانية. ما نشهده اليوم هو تعدد جنسيات زائف: قوة عظمى مهيمنة تتصرف بانفراد من حيث الجوهر لكنها (في حرجها من الفكرة وتعبّدها أمام مذبح الأمن الجماعي) تجنّد سفينة هنا وفوجاً هناك، وتتلقى التبريكات من

الجميع لإسباغ الزخرف التعدّدي على ممارساتها الانفرادية. ليس الخليج عملية جماعية بأكثر مما كانت عليه كوريا، الحالة المثالية لدراسة تعدّد الجنسيات الزائف.

لماذا التظاهر؟ لأن شريحة واسعة من الرأي العام الامريكي تشكك في شرعية الفعل الامريكي المنفرد، لكنها تقبل على الفور ما يقوم به «المجتمع الدولي» في اطار من التنسيق والتشاور. لست قادراً على تحديد السبب الذي يجعل الامريكيين حريصين على أن تحظى ممارساتهم بإيماءة موافقة من مجلس الأمن أو من دينغ سياو بنغ وبقية جزاري ساحة تيان آن مين. لكن الأمر يهم الامريكيين. انها الأسباب الداخلية، بالتالي، هي التي تدفع الزعماء السياسيين الامريكيين الى التأكد من الباس الفعل المنفرد لباس فعل متعدد الجنسيات. الخطر، بطبيعة الحال، يكمن في أنهم قد يميلون الى تصديق ذريعتهم ذاتها.

ولكن هل بمقدور امريكا الحفاظ طويلاً على تسيدّها المطلق أحادي القطب؟ ان مرأى وزراء الخارجية والخزانة وهم يسافرون في جهات الكون الأربع حاملين أكواب الصفيح بحثاً عن الدعم المالي لنشر القوات الامريكية في الخليج يكشف عن هوّة فاغرة بين حَقل أمريكا الجيو - سياسي وبين مواردها. ألا يعني ذلك أن المنظرين لاضمحلال أمريكا ومعها «التمدد الامبريالي» هم على حق، وان حالة أحادية القطب غير قابلة للدوام؟

صحيح، بالطبع، أن الولايات المتحدة إذا نجحت في ارساء اقتصادها على قواعد صلبة فإنها لن تكون قادرة على متابعة دورها كقطب أحادي لزمن طويل. في هذه الحالة ستكون البرهة أحادية القطب وجيزة حقاً (ربما عقد واحد بدلاً من ثلاثة أو أربعة عقود). ولكن اذا نهض الاقتصاد فلن يكون ذلك راجعاً الى التمدد الامبريالي، أي توسّع امريكا خارجياً بما يستنزفها في اشكالات جيو - سياسية. الولايات المتحدة تنفق اليوم ٥,٤ بالمئة من ناتجها القومي الاجمالي على الدفاع. في عهد جون كينيدي، حين كانت الولايات المتحدة في أوج صعودها الاقتصادي والسياسي، بلغت نفقات الدفاع ضعف ما هي عليه الآن. خطط الادارات الحالية خفّضت نفقات الدفاع الى ٤٪ في عام ١٩٩٥، وهو المعدل الأدنى منذ بيرل هاربور.

انهيار امريكا نحو المرتبة الثانية لن يكون لأسباب خارجية، بل داخلية. ليس المقام مناسباً هنا للدخول في جدل مطوّل حول سبب مصاعب امريكا الاقتصادية. غير أن الفكرة القائلة بأننا استهلكنا انفسنا في إملاق خارجي لم

تعد مقبولة. ان المعدل المنخفض للادخار الامريكي، والنظام التربوي المتدني والانتاجية الراكدة وانحطاط عادات العمل وارتفاع الطلب على وسائل الرفاه الاستهلاكي والبيئوي لا علاقة لها البتة بالالتزامات تجاه أوروبا وامريكا الوسطى والشرق الأوسط. خلال السنوات الثلاثين الماضية، ظلت الضرائب ثابتة (مرتفعة من ١٨,٣ الى ١٩,٦٪)، وانخفضت نفقات الدفاع، بينما ارتفعت الدخول الى الضعف تقريباً. المغامرات الخارجية ليست وراء اقتصاد ديون لم يسبق له مثيل في التاريخ الامريكي، بل ايديولوجيا الضرائب المنخفضة في الثمانينات مقترنة برغبة امريكية ليس لها قرار في مستويات معيشة أعلى دون تسديد الكلفة.

للمرء أن يناقش ما اذا كانت امريكا في حالة من الاضمحلال الاقتصادي الحقيقي. ان نسبة ناتجها القومي الاجمالي بالنسبة للعالم هي على حالها طيلة القرن العشرين (بين ٢٢ و٢٦٪) باستثناء عقم حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية حين كان منافسوها يخرجون لتوهم من ركام الحرب. ولكن حتى إذا حاجج المرء بأن امريكا في اضمحلال اقتصادي، فمن العبث الايحاء بأن طريق الخلاص يتمثل في نبذ السلفادور واخلاء الفيليبين أو الخروج من الخليج. قد تكون هناك أسباب وجيهة أخرى للقيام بذلك كله. غير أن الايحاء بأنها الطريق التي تقضي الى حلّ مشكلات امريكا الاقتصادية محض هذر.

اضافة الى ذلك، من الخطأ النظر الى امتدادات امريكا في الخارج باعتبارها مجرّد استنزاف لاقتصادها. ان تورط امريكا في الخارج، كما يتبدى في الخليج، هو في وجوه عديدة أحد الأعمدة الجوهرية في الاقتصاد الامريكي. الولايات المتحدة، مثلها مثل بريطانيا التي سبقتها، أمة تجارية وتبادلية تحتاج الى مناخ عالمي مستقر مفتوح لكي تنتعش. وفي عالم يكثر فيه أمثال صدام حسين سيتوجب على الولايات المتحدة اهدار دورها كقوة عظمى، مما سيعرّض اقتصادها الى أفدح الخسائر. الطرقات البحرية غير الآمنة، والشركاء التجاريون المفقرون، وأسعار النفط المتقلبة، وانعدام الاستقرار الاقليمي المتفجر هي الاخطار الأكثر جلاء، والتي تنذر ببدء تنازل الولايات المتحدة عن عرشها. صحيح أن الاشكالات الخارجية عبء حقيقي، غير أنها ضرورية أيضاً. ان نفقة ضمان عالم آمن ومفتوح امام التجارة الامريكية (٥,٤٪ من الناتج القومي الاجمالي، وأقلّ بمرور الزمن) ليست بالنفقة الباهظة.

- ٣ -

هل تستطيع امريكا دعم موقفها كقطب أحادي؟ نعم. ولكن هل سيدعم

الامريكيون ذلك الموقع؟ هذا سؤال أكثر اشكالية. بالنسبة لجوقة صـ
متزايدة من الامريكيين، تبدو رؤية عالم أحادي القطب تقو
الديناميكية أمر أقرب الى الكابوس. من هنا العنصر الرئيسي الثاني
ما بعد الحرب الباردة: انبعاث الانعزالية الامريكية.

انني أكن احتراماً كبيراً للانعزالية الامريكية، وذلك بسبب جاذبية
أولاً، ثم جاذبيتها الطبيعية ثانياً. الانعزالية في ظاهرها تبدو سياسـ
منطقية وهبها الله للولايات المتحدة. ليست الجغرافيا وحدها هي ا
بها، فنحن جزيرة قارّة يحميها محيطان ويحاذيها جاران لا يمكن أن
صداقة وتعاوناً. التاريخ أيضاً. لقد قامت امريكا على فكرة تطهير
الدسائس والزلآت، من النزاعات العشائرية والحروب الدينية. مـ
القديم» باختصار. يتوجب على المرء احترام مشقة تفكير أمريكي هـ
بحيث فرض أن لا يصوت مجلس الممثلين على قرار بتوسيع استدعاء
سوى بأغلبية صوت واحد، وذلك قبل أربعة أشهر من حادثة بيرل هار

الانعزاليون يقولون، بلا اعتراض تقريباً، انه يتوجب على الولايا
حصر اهتماماتها العالمية في الدفاع عن المصالح القومية الحيوية
الانعزاليين الأكثر غلّواً يحددون المصالح القومية الحيوية بأنها تعني الا
للولايات المتحدة، والانعزاليون الأكثر حنكة يحرصون على عدم تحديد

سيقول الانعزاليون، بالطبع، أن الأمر ليس كذلك، وأنهم يؤمنون با
المصالح القومية الحيوية خارج الحدود المادية لأمن الولايات المتحدة.
اختبار. ان غزو العراق للكويت ومخططات الهيمنة على جزيرة العر
تهديداً صريحاً واضحاً للمصالح الأمريكية، للاقتصاد الامريكي ال
النفط، للحلفاء المقربين في المنطقة، وأخيراً للأمن الامريكي بحد ذاته.
قوة معادية، تموّلها عائدات نفط لا تنتهي، وتبني ترسانة من أسلحـ
الجماعي ووسائل استخدامها اقليمياً وقارياً إذا اقتضى الحال (فلقد جـ
حسين صاروخاً يطلق على ثلاث مراحل)، لا يمكن أن يكون أمراً عـ
الولايات المتحدة.

إذا قُيِّض - ضمن هذه الشروط - لكادر من الليبراليين والمحافظين الـ
يجدوا بعد التمحيص (وعلى العكس من العقيدة التي صرّح بها أكثـ
أمريكا وداعة لمرحلة ما بعد الحرب، جيمي كارتر) أن الخليج لا يـ
نهاية الأمر مصلحة أمريكية حيوية، فمن الصعب عندها ادراك ما تعـ

«مصلحة حيوية». إذا كان الخليج ليس مصلحة حيوية، فلا شيء يستحق ذلك الوصف اطلاقاً. كل ما يتبقى هو منع غزو فلوريدا، ولهذا الغرض تحتاج امريكا الى حرس سواحل، وهي قطعاً لن تكون بحاجة الى بنتاغون، ومن المؤكد أيضاً انها لن تكون بحاجة الى وزارة خارجية.

الانعزالية هي التعبير الأقصى عن الرغبة الامريكية في العودة الى الاهتمام بكرمة العنب. لكن تلك الرغبة تجد تعبيرها في مدرسة أخرى للسياسة الخارجية أكثر تعقيداً وجدية: ليست الانعزالية، بل الواقعية... المدرسة التي تلحّ على أن السياسة الخارجية الامريكية ليس لها من دليل سوى المصالح، والتي تحدّد تلك المصالح بمصطلح قومي ضيّق.

العديد من مروّجي الواقعية كانوا أبطالاً في صراعات بطولية ضد الفاشية والشيوعية. غير أن بعضهم يجادل الآن بأن الزمن البطولي قد انقضى. جين كيركباتريك مثلاً، كتبت قبل أزمة الخليج انه «آن الأوان للاقلاع عن الفوائد الضبابية لموقع القوة العظمى»، وآن الأوان لالقاء «الاعباء غير العادية» للماضي، و«العودة الى الأزمنة المعتادة». ذلك يعني «الانصراف الى حلّ مشكلات التربية والأسرة والصناعة والتكنولوجيا» في الداخل. ذلك يعني أن لا نحاول لعب دور صانعي توازن القوة في أوروبا أو في آسيا، وأن لا نحاول صياغة المستقبل السياسي للاتحاد السوفياتي، ينبغي بدلاً عن ذلك أن نطمح الى موقع «بلد اعتيادي في زمن اعتيادي»(*).

هذه رؤية آسرة بعض الشيء للهدف الامريكي. بيد أنني لست واثقاً من وجود شيء اسمه الزمن الاعتيادي. إذا كان ذلك يعني زمناً لا تقوم فيه قائمة لامبراطورية شرّ عالمية انفلتت من عقالها، أو زمناً دخل فيه العالم طور الراحة الايديولوجية، عندها لن يكون ذلك زمن سلام بالضرورة. لقد شدّد صدام حسين على هذه النقطة بوضوح. إذا كان الزمن الاعتيادي هو ذاك الذي يفرز فيه العالم نفسه بنفسه، تاركاً الولايات المتحدة على هواها تقريباً، فسأقول انه ما من زمن اعتيادي. العالم لا يفرز نفسه على حسابه. في القرن التاسع عشر مثلاً، لم يتحقق الاستقرار الدولي إلا كنتيجة لتوسع بريطانيا المتواصل بالنيابة عن توازن القوة. لقد كانت امريكا ترعى كروم العنب، لكنها كانت تفعل ذلك وراء أسوار محيطين محروسين من البحرية البريطانية. ولقد انقرضت البحرية

(*) «بلد اعتيادي في زمن اعتيادي»، فصلية «المصلحة القومية»، خريف ١٩٩٠

البريطانية للأسف الشديد.

الاستقرار الدولي لا يعطى اطلاقاً. انه ليس المعيار. وحين يتحقق، فانه عندها نتاج الممارسة الواعية من قبل القوى العظمى، ومن قبل القوة الأعظم على وجه الخصوص: الولايات المتحدة، الآن والمستقبل المنظور. إذا أرادت امريكا الاستقرار، فيتوجب عليها خلقه. الشيوعية انتهت حقاً، وآخر العقائد المخلّصة التي حامت فوق هذا القرن ماتت تماماً. غير أن الأخطار التي تهدد السلام ستظل قائمة على الدوام.

- ٤ -

أية تهديدات؟ الكل يعترف بحدوث تغيّر كبير في المناخ الدولي، هو انهيار الشيوعية. إذا كان هذا هو التغيير الوحيد فإن زمننا اعتيادي، والرؤية أحادية القطب التي أوجزتها ستبدو غير ضرورية بقدر ما هي ضارة.

غير أن العلاقات الدولية شهدت تغييراً كبيراً آخر، وهنا نصل الى العنصر الثالث والأكثر حساسية لعالم ما بعد الحرب الباردة: انبثاق مناخ ستراتيجي جديد يتّسم بانتشار أسلحة التدمير الجماعي. من المسلم به أن المستقبل القريب سيشهد ازدياداً دراماتيكياً في عدد الدول المسلحة بأسلحة بيولوجية وكيميائية ونووية، فضلاً عن وسائل استخدامها في أية بقعة على الأرض. يقول وزير الدفاع دك شيني: «بحلول العام ٢٠٠٠ ستمتلك أكثر من ٢٤ دولة نامية صواريخ موجهة، وستكون لدى ١٥ دولة منها القاعدة التكنولوجية والمهارة العلمية لانتاجها. نصف هذه الدول يكاد يوشك على امتلاك قدرات نووية، وثلاثون دولة ستمتلك الأسلحة الكيميائية ثم ستكون قادرة على نشر أسلحة بيولوجية»(*).

ومن نافل القول ان التكنولوجيا الحديثة قد قلّصت حدود العالم. لكن الاستدلال الجلي نادراً ما يستخرج هنا: في عالم متقلّص تكاد الهوة تردم جذرياً بين القوى العظمى الاقليمية والقوى العظمى الكبرى. الصواريخ تختزل المسافات. الابتكارات النووية (والكيميائية أو البيولوجية) تضاعف القوة. كلاهما قابل للطرح في السوق. من هنا تتغير الخريطة الجيوسياسية بما يصبح عسيراً على النقض. منذ خمسين عاماً كان بمقدور المانيا - بموقعها المركزي وصناعتها

(*) خطاب أمام مؤتمر قيادة المحافظين، واشنطن ٩ تشرين الثاني ١٩٩٠.

المتطورة وكثافتها السكانية ـ أن تشكل تهديداً للأمن الدولي وللقوى العظمى. ولقد صعب النظر الى دولة شرق أوسطية ذات قاعدة صناعية استيرادية كلياً، بأنها يمكن أن تقوم بما هو أكثر من تهديد جيرانها. الحقيقة المركزية للحقبة القادمة تلغي هذه الحالة تماماً: الدول الصغيرة نسبياً، الضعيفة والمتخلفة، ستكون قادرة على البروز سريعاً وتشكيل تهديدات لا للأمن الاقليمي فقط، بل للأمن الدولي أيضاً.

إذا لم تفلح «عاصفة الصحراء» في تجريد العراق من سلاحه فإنه مرشح خلال عقد واحد لامتلاك صواريخ عابرة للقارات. انه المثال الساطع على ذلك التهديد الستراتيجي الجديد الذي يمكن تسميته «دولة السلاح»، المخلوق الدولي غير العادي الذي يتسم بخصائص عديدة:

■ انها لا ترقى الى مستوى الدولة الأمة. العراق مثلاً دولة ذات حاضر حديث بحدود اعتباطية، وحزبها الحاكم ينكر صراحة أن يكون العراق أمّة (ويشير الى العراق وسوريا كمنطقة ضمن أمة عربية أكبر هي وحدها الجديرة بالمصطلح).

■ في «دولة السلاح» يكون جهاز الدولة متطوراً بصورة غير عادية، ومسيطراً تماماً على المجتمع المدني. النفط هو العامل الذي يتيح لمعظم دول السلاح أن تحافظ على هيكلها. والدولة تحتاج عادة الى نوع من التعاقد الاجتماعي الخفي مع المجتمع المدني، لأنها تعتمد على المجتمع في جباية الضرائب. والدول النفطية تشترك بوضع واحد هو عدم حاجتها الى التعاقد الاجتماعي لأن الثروة القومية تأتي من النفط، والدولة تسيطر تماماً على عمليات انتاجه وتسويقه. الدولة هي التي توزع السلع على المجتمع، وهي بالتالي ليست مصدر السلطة فقط بل الثروة أيضاً. ذلك يتيح درجة غير عادية من الرقابة الاجتماعية التي يمارسها جهاز الدولة القوي والقمعي غالباً.

■ دول السلاح الراهنة تحمل ضغائن عميقة ضد الغرب والنظام العالمي الذي أنشأه ويسعى الى فرضه. انها بالتالي عنصر تدمير للأمر الواقع الدولي، الذي ترى فيه استعادة للاستعمار. هذه المشاعر تحرّك النزوع الطاغي الى التطوير العسكري ذي التقنية العالية كوسيلة وحيدة للقفز فوق التاريخ واحلال نفسها في موضع مكافيء تستطيع من خلاله تحدي النظام الذي يفرضه الغرب.

الخطر النابع من «دولة السلاح» يطرحه العراق اليوم، وقد تطرحه غداً كوريا الشمالية أو ليبيا. بيد أن انتشار الأسلحة الستراتيجية في القرن القادم

لن يكون مقتصراً على «دولة السلاح». ان الثروة الهابطة من السماء تسمح لدول النفط باستيراد أسلحة ذات تقنية عالية في غياب قاعدة صناعية ناضجة. بيد أنه ليس عسيراً أن نتخيل دولاً أكثر نضجاً (لنقل مثلاً: الأرجنتين، الباكستان، ايران، افريقيا الجنوبية) وقد بلغت المستوى نفسه في تطوير الأسلحة بوسائل التصنيع العادي. معظم هذه الدول صديقة اليوم، لكن بعضها غير مستقر وهو بالتالي يمكن أن ينطوي على احتمالات تنامي العداء.

بذلك قد يكون من الأفضل تسمية حقبة ما بعد الحرب الباردة بحقبة اسلحة التدمير الجماعي، ان انتشار هذه الأسلحة ووسائل استخدامها سوف تشكل التهديد الوحيد الأكبر للأمن الدولي طيلة ما سيتبقى من أعمارنا. ذلك هو ما يجعل نظاماً عالمياً جديداً مسألة يقظة محضة أكثر منه حلماً امبريالياً أو فانتازيا ولسونية. شيئاً فشيئاً يصبح محتماً على الغرب أن يؤسس لنظام جديد يكون بمثابة شرطي جديد على تلك الأسلحة وعلى من يشجع انتشارها.

في الجدل البرلماني حول أزمة الخليج، لم يتردد زعيم بريطاني عمالي مثل نيل كينوك في التشديد على أنه لا يكفي اخراج العراق من الكويت. لقد قال بوجوب تدمير مخزون العراق من الأسلحة الكيميائية ووضع برنامجه النووي تحت الرقابة الدولية. وحين يتحدث حزب العمال بهذه النبرة ـ وهو حزب أبعد ما يكون عن تمثيل الصقور ـ فإننا دون شك على أعتاب صناعة وتدشين اجماع غربي جديد.

ما الذي يتوجب القيام به على وجه الدقة؟ ليس ثمة اجابات محددة، ولكن لا بدّ لأي حل من أن ينطوي على ثلاثة عناصر: المنع، والتجريد من السلاح، والدفاع. يتوجب علينا أولاً تطوير نظام جديد شبيه بـ«لجنة تنسيق ضوابط التصدير» COCOM لمنع تصدير التكنولوجيا الأكثر رقّياً الى تلك الدول. ثانياً، يتوجب على تلك الدول التي امتلكت الأسلحة بطريقة أو أخرى أن تخضع لرقابة خارجية صارمة، وإلاّ عرّضت نفسها لخطر التجريد المادي من السلاح. ويتوجب أن يكون العنصر الأخير هو تطوير صواريخ مضادة للصواريخ وأنظمة دفاع جوي لمواجهة تلك الأسلحة التي تفلت من رقابة الغرب.

لربما توفرت تكتيكات أخرى أفضل مما ذكر، بيد أن الستراتيجية العليا واضحة. مع نهوض «دولة السلاح» لا بديل عن مواجهة وردع وتجريد تلك الدول التي تنشر وتستخدم أسلحة الدمار الجماعي. لا أحد يستطيع القيام بذلك

سوى الولايات المتحدة، مدعومة بأكبر عدد ممكن من الحلفاء ممن يتوفر لديهم الاستعداد للانضمام الى هذا المسعى.

البديل عن نزعة التدخل الصعبة والشاقة هذه (وهو بديل عن أحادية القطب) ليس عالماً مستقراً ثابتاً متعدد الأقطاب. انه ليس عالم القرن الثامن عشر الذي تتزاحم فيه بالمناكب قوى ناضجة مثل أوروبا وروسيا والصين وامريكا واليابان للحصول على موقع في لعبة الأمم. بديل أحادية القطب هو الفوضى العارمة.

لا أقصد التلميح الى أن أسلحة الدمار الجماعي هي التهديد الوحيد الذي يواجه عالم ما بعد الحرب الباردة. انها التهديد الأكثر وضوحاً، فثمة تهديدات أخرى أكثر استعراضية: نهوض نزعة قومية تعصبية في الكتلة الشيوعية المتحللة (في احدى الصيغ المتطرفة يمكن الحديث عن انبعاث جمهورية «ڤيمار» روسية مختزلة لكنها أكثر غلياناً وانكفاءً نحو الذات). التهديدات الأخرى التي يواجهها سلام القرن الواحد والعشرين لا تبدو تحت البصر اليوم مثلما كانت النازية سنة ١٩٢٠. سرعان ما ستسفر عن وجهها، والطوباوي اليائس هو وحده المؤمن بعكس هذا.

نحن في أزمنة غير عادية، وأفضل آمالنا في الأمان - كما كان الحال في الماضي الصعب - هي القوة الامريكية والارادة، قوة وارادة قيادة عالم أحادي القطب، وارساء قواعد نظام عالمي دون خجل، وفرض الالتزام به بالقوة. ان تجنيب العالم حالة من الغرق في الفوضى مهمة تدعو الى الفخار، مثلها مثل مهمة دحر الفاشية والشيوعية. انها ليست المهمة التي نتلهف على تنفيذها أكثر من تلهفنا ساعة بلوغ غسق الصراع الذي اختتمناه لتوّنا. بيد أنها مهمة ليست أقلّ نُبلاً وضرورة.

Foreign Policy
April, 1991

مرآة الجهالة

■ كيڤن روبنز

مضى الآن عامان كاملان على اعلان فرانسيس فوكوياما أن فكرة الغرب قد انتصرت. ولقد أخبرنا أن اهتراء البدائل النسقية الحقيقية، وصعود الحداثة الغربية وثقافتها الكونية لم تواجه تحديات كبرى لأنها غير قابلة للتحدي. ومع اندلاع الحرب في الشرق الأوسط نشعر باغواء مناقشة ذلك اليقين القاطع. نحن الذين نشعر وليس فوكوياما.

بالنسبة له ليست حرب الخليج أكثر من تحدٍ اجرامي للمجتمع. يرفع عقيرته لاخبارنا بأننا «نحن سكان عالم ما بعد التاريخ ينبغي أن نتذكر دائماً أن التحولات الجوهرية الكبرى في السياسة العالمية لا تجري في صحراء الشرق الأوسط النائية، ولكن هناك في هذه العجوز أوروبا Cette Vielle Europe التي كانت مهد فكرة الحرية الانسانية».

ذلك أكثر من مجرد الجهالة المطبقة. ان ثقة فوكوياما في تفوّق، وعلوّ شأن، الحداثة الغربية ينبغي النظر إليها كظاهرة بالغة الخطورة، عمياء ومتغطرسة. بامكاننا بالطبع أن نتشدق بالحديث عن صدام حسين كقاطع طريق وبلطجي، أو «الشقي القادم من قرية العوجة». العروض الشعبية السيكولوجية على صفحات الجرائد تحدّثنا عن صبي اعتاد زوج أمّه على ضربه، ثم تحوّل إلى فتى سادي نصف هام، مصاب بجنون العظمة.

على نطاق أكثر ملحمية نتخيّل كيف انقلب هذا الصبي الجموح إلى هتلرجديد. طبيعته الوحشية والشريرة تقف على النقيض من ثقافتنا الحضارية. ولا تنسوا دينه العدواني: العصبية والأصولية الإسلامية لا يمكن أن تتصالح مع السيد عقل (نا) والسيدة حقيقة (نا) والمبجل تنوير (نا).

وهكذا... وهكذا... لقد شاهدنا كثيراً ارتطام الخير بالشر. صدّام يمثّل قوى البربرية الطائشة التي يتوجب دائماً احتواءها والسيطرة عليها من قبل قوى العقل والصواب. ومرة ثانية، بالطبع، يتوجب على هذه العجوز أوروبا ووليدها

الحضاري أميركا أن تذبح التنين وتدحر الدخيل، كما يتوجب على صليبي الأمم المتحدة أن يهزموا «وحش بغداد» و«امبراطورية الرعب» التي يحكمها(*).

حين نتجاوز لغة التنديد وحقوق الانسان والدكتاتورية، يتوجب أن نتذكر من أين أتت غالبية أسلحة التدمير التي امتلكها صدام حسين: بريطانيا، فرنسا، الولايات المتحدة، ألمانيا، سويسرا، وايطاليا، جميعها لعبت دوراً في تطوير قدراته النووية والكيميائية الصاروخية. تذكّروا شراكة الغرب مع العراق حين كانت ايران هي الشيطان. وتذكّروا أيضاً دروس الموت بطرق علمية والتي أعطيناها نحن أبناء الغرب طيلة هذا القرن الدامي.

سهل أن نرشق كل الشرور على رمال الصحراء، ثم نصدّق أن الأمور على خير ما يرام في حديقتنا. مهما كانت القضية المثارة ضد صدام حسين، تظل مسألة تحويله إلى رمز للشر موضع ريبة من حيث الجوهر. ان اتهامه بالإجرام والوحشية يرتبط مباشرة في رغبتنا بتطهير ثقافتنا وحضارتنا.

أن نرى فيه تجسيداً للطيش واللاعقلانية يعني أننا نؤكد على كوننا أصحاب دوافع وأسباب عقلانية، وأننا نشيّد الدفاعات والتحصينات لحماية تكامل ثقافتنا الغربية والفكرة الغربية بأسرها. الادانة الرمزية لمركّب صدام - هتلر سوف تكشف بالتالي قدراً كبيراً من مخاوفنا وقلقناوارتيابنا، وربما شعورنا بعقدة الذنب، في طور ما بعد التاريخ هذا. لعله سيعكس شيئاً عميقاً مضطرباً في قلب الحداثة والعقلانية الغربيتين.

قوّتان متمايزتان، رغم تكاملهما، أسهمتا في تكوين الثقافة والهوية الغربيتين الحديثتين. الأولى، والتي اقترنت بعصر التنوير الأوروبي، هي مركزية العقل كمبدأ مكوِّن للحداثة ذاتها. كان التنوير على وشك التحلّل من إرث واعراف ما قبل الحديث، واستبدال ذاته بادارة للحياة الاقتصادية والسياسية أكثر ارتباطاً بالشكل والعقلانية. وفي الأساس كانت العقلانية الهادفة في قلب مجمل المشروع الغربي للعلوم والتكنولوجيا الذي حوّل النظم الطبيعية والاجتماعية في القرنين الأخيرين.

(*) يلمّح روبنز إلى كتاب «جمهورية الخوف» للمعارض العراقي سمير الخليل (اسم مستعار). من الجدير بالذكر أن الخليل انتهى الى دعوة الجنرال شوارزكوف الى الاقتداء بالجنرال ماك آرثر واقتحام بغداد لفرض الديمقراطية! نُشرت دعوته هذه في صحيفة «نيويورك تايمز»، بالطبع!! (المحرّر).

القوة الثانية التي تحدّد الغرب كانت اللقاء الكثيف والمتواتر مع الثقافات الأخرى التي جلبها التوسع الامبريالي. ويرى المؤرخ ألبير حوراني أن شيئاً جديداً تطور في القرن التاسع عشر «خلقه التوسع الهائل للذهن والمخيلة الغربيين بحيث وضع اليد على جميع الموجودات».

في هذا البحث عن سبل وضع اليد على العالم تعلّم الغرب تحديد فرادته الخاصة ضد «الآخر»، ضد ما هو «غير أوروبا». واذا كان الواقع السياسي محلّ نزاع وتفكك على الدوام، فإن بناء «شرق» متخيّل ساعد في اضفاء الوحدة والتجانس على فكرة «الغرب». فوق ذلك، كان هذا الشرق مرآة تجد فيه أوروبا (ثم أميركا لاحقاً) انعكاس صورة تفوّقها. وحين تعلّمت توظيف اختلافها عما هو «غير أوروبي»، أخذت توظف أيضاً ذلك التفوّق لبلوغ درجة باهرة من نجاحها في فرض سيطرتها على ثقافات «وضيعة».

ويبدو أن مبدأ العقلانية كان جوهرياً، سواء في اختلافها أو في تفوّقها الموروث. على هذا الأساس من العقلانية، المتمثل في العلم الحديث والتكنولوجيا المتقدمة، انتصرت تلك العجوز أوروبا هنا وهناك في العالم، وجعلت من نفسها نقطة مرجعية كونية. لقد رأت في هذه العقلانية أساساً لثقافة كونية، وتسويغاً لمزاعمها في تحديد القيم الكونية، وتحديد قيمها باعتبارها هي الكونية.

الحداثة تحدّد قياسا على ما قبل الحديث، والعقل قياساً على الطيش والتطيّر، وترسم خريطة هذا الانقسام في جغرافيا رمزية تضع الغرب في مواجهة شرقه. نعم: شرق(ـه)، لأنه لو لم يوجد «الغرب» لما كان بمقدور «الشرق» أن يوجد أيضاً. انه «الغرب» الذي أعطى وجود وهوية «الشرق». والوجود والهوية اللذان أقامهما ليسا سوى الدونية والعجز.

الثقافة الشرقية ثقافة ثانوية وبالنيابة، يجري تصويرها خلال سيرورة اخضاعها واتباعها للثقافة الكونية. وهي ثقافة تحدد وفق ما تفتقر إليه (الحداثة، العقلانية، الكونية)، وحالة «الآخر» تحدّد بمصطلح التخلّف واللاعقلانية وتدهور القيم.

هذه المواجهة اتخذت أكثر أشكالها صدامية في اللقاء مع الإسلام. منذ عهد الصليبيين والعلاقة بين المسلمين والمسيحيين تنهض على فقدان الثقة وانعدام التواصل وسوء التفاهم. في الشرق الأوسط لا يمكن مناقشة مسائل الحداثة والتحديث سوى في سياق تاريخ طويل من الاستعمار والنشاطات التبشيرية.

في تلك المنطقة كانت التجربة الزامية غير طوعية، نوعاً جديداً من الغزو الصليبي، ولقد انطوت على حسّ عميق باليأس والإذلال.

ويصف حوراني حسّ التابع الذي لازم الهوية العربية المعاصرة: «لم يعد الأمر يتصل بحيازة المرء لمستوى من القيم خاص به، أو أن يكون قادراً أصلاً على الحيازة. يتوجب عليه أن يقلّد، وأن لا يقلّد بشكل صحيح ما دام ذلك يحتاج إلى درجة ما من الأصالة». وفي وجه النزعة الكونية التي زعمها الغرب ونسبها لذاته، تعرّضت الثقافة العربية والإسلامية إلى هزّة عميقة.

اضافة إلى ذلك، لم يعد ثمة مهرب من الإذلال ضمن شروط هذه الثقافةالكونية المزعومة. الإسلام دونيّ في جوهره ذاته. وفي أعين الغرب (وعلى العكس من الدليل التاريخي) قام الإسلام كثقافة محافظة، كثقافة دوغمائية متعصّبة. التاريخ والتقدم لم يكونا ممكنين سوى في الغرب. أما الإسلام - في المقابل - فهو ثقافة جامدة راكدة، ثقافة متأخرة واقطاعية إلى أبد الآبدين، ثقافة التحديث المستحيل. لا يمكن أن تكون سوى ذلك، اطلاقاً...

انها لا يمكن أن تكون سوى ذلك لأن اختلاف وتفوّق الغرب بحد ذاتهما نهضا على هذه الصورة من «الآخر» العربي والإسلامي. ثقافة (نا) تحدّد على أساس بربرية (هم)؛ جمال (نا) على أساس وحشية (هم). اذا قُدّر لتلك الثقافة اللاعقلانية أن تمتلك عقلانيتنا وعلمنا، فماذا سيحلّ بحسّ الغرب بالاختلاف والفرادة، وأية اشكالات ستنشأ عن ذلك؟ إذا قُدّر لتلك الثقافة المتخلفة أن تنجح في تحديث نفسها، أين سنجد بعد ذلك المرآة التي نعكس عليها تفوّقنا.

تأزم الحداثة هذا هو ما يواجه الغرب في الخليج الآن. في هذه الحرب يهاجم صدّام حسين المعايير التي حدّدت فرادة وتفوّق الغرب... انه يخترق الحدود التي ميّزت بين العقلانية واللاعقلانية، بين الحداثة الغربية والشرق ما قبل الحديث. لقد سلّح نفسه بذخائر الحداثة، ولم يكتف بـ«الأسلحة التقليدية» بل حاول بناء ترسانة نووية وبيولوجية وكيميائية.

لكنه غير عقلاني بطبيعته، بطبيعته العربية والشرقية. حين يتسلّح بعدّة الحرب العلمية، لا يمكن للاعقلانية صدام حسين إلا أن تتفجّر. بالتكنولوجيا الحديثة يصبح قوّة وحشية بربرية منفلتة من عقالها. أما جيوش السيد العقل، حلفاء طور ما بعد التاريخ، فعليها يقع شرف سحق هذا المنفلت غير العاقل. ينبغي أن تحوّل هذا «الكلب المسعور» إلى خارج عن القانون، وتسحق ما

يسميّه توم كنغ، وزير الدفاع البريطاني، «الآلة العسكرية الوحشية» العراقية. والحق أن الجانب الذي لا يمكن احتماله هو الوحش الذي يسعى إلى الحداثة.

لقد تخيّلنا صدّام حسين بمصطلحات مناقضة على طول الخط لحضارتنا وثقافتنا. لقد تخيّلناه في صورة «الآخر» المطلق والوحشي. رؤيته في هذه الصورة جعلت من الممكن - وجعلت من المنطقي والعقلاني - أن نشعل النار في سماءات العراق بأسره. ولكن هل صدام حسين هكذا فعلاً؟ هل هو دخيل بدائي لا عقلاني؟ ألا يمكن أن ينطوي ذلك «الجنون» على بعض العقل؟

صدّام يستخدم أسلحتنا، الأسلحة التي بعناه إياها. وهو يستخدمها، مثلنا، بطريقة عقلانية محسوبة. انه ستراتيجي عسكري بارع، ولديه «خطّة لعب» لهذه الحرب، وهو حسب الجنرال كولن باول «واسع الحيلة» و«متدبر» في تطبيق تلك الخطة. صدّام يجسد طموحات ومنطق الحداثة. انه الحداثة كما توجد الآن في تلك البقعة من العالم، انه مرآة - مشوّهة، لكنها مرآة في كل حال - تنعكس عليها صورتنا.

والغرب لا يحب ما يراه في تلك المرآة. ولكن لنكن واضحين حول ما يظهر على تلك المرآة بالضبط. انه الجانب الوحشي من حداثة الغرب ذاته، الانتشار الذي لا يقاوم لمشروعه، ذلك المشروع المتميّز بالعقلانية والعنف معاً. صدّام ليس وحشاً دخيلاً، وليس وحشاً مناهضاً للحداثة. انه بالأحرى وليد تلك الحداثة، ووليد في تلك الحداثة، وينطبق عليه قول زعيم الحزب الديمقراطي الليبرالي بادي آشداون، دونما طرافة وخفة دم: «اليوم يحوم فوق رؤوسنا الوحش الذي ساعدنا في خلقه». تلك هي حقيقة المفارقة التي نعجز عن هضمها.

ولقد ذهب معلقون عديدون إلى حد التحدث عن خلق وحش من طراز فرانكنشتاين في العراق. بيد أن صدّام حسين، مثل مخلوق ماري شيللي(*)، ولد في سياق الانتشار الكوني للحداثة. في شخصيته أيضاً يندغم خوفنا من الجانب الوحشي للحداثة في كراهيتنا الابتدائية لصورة «الآخر». ينبغي أن يكون صدّام عرقاً يحجر عليه.

إذا كان العراق قد انخرط في سيرورة تحديث، فلا بدّ عندها من اعتباره نوعاً معادياً من الحداثة لا يمكن أن يكون مقبولاً لدى العالم المتحضر. مثل وحش

(*) مؤلفة بريطانية (١٧٩٧ - ١٨٥١) وضعت رواية «فرانكنشتاين» عام ١٨١٨، والتي تصف قيام عالم بخلق رجل - وحش تحوّل الى كائن بشري بعد ذلك.

فرانكنشتاين يتوجب منع صدّام من الحداثة، وبطرده منها ـ كشرط لا غنى عنه ـ يمكن أن يستعاد العقل باسم التقدم الكوني والانسانية. لهذا نجد اليوم أن التكنولوجيات «الذكيّة» لعقل الغرب تستخدم اليوم وتعبأ لسحق «الآخرين».

بيد أن صدّام جزء من الحداثة. وسط هذه الثقافة العالمية، هل نستطيع أن ننكر حقيقة أنه ما من مكان لم تبلغه الحداثة؟ كيف نستطيع الاستمرار في فصل «الآخر» من حلقة الكون، وعن مشروع الحداثة؟ وسائل صدّام في الحرب هي نتاجات العلم الحديث والتكنولوجيا المتقدمة، مثلها مثل الأنظمة الأشد فتكاً التي يستخدمها ضده الحلفاء الغربيون. يصعب علينا الإقرار بأن العنف والدمار ـ على الجانبين ـ هما تعبيرات عن السلوك «العقلاني»، وأن «العقل» قد يكمن في قلب العنف.

اذا أصيبت حداثة صدّام حسين ـ المنتمية إلى العالم الثالث ـ بعدوى العنف، فإن المآثر العسكرية لحداثة ما بعد التاريخ ستكون ـ بالمقابل ـ علاجية وجراحية وتطهيرية. تسحرنا طريقة تعبئة ما نملكه من «أسلحة ذكية» لانجاز «كسر» و«تحطيم» و«تحييد» و«تطهير» أهداف العدو في ما يسمونه «مسرح» العراق والكويت. يغوينا ما يمكن أن يقوم به العلم باسم الحرية والحضارة.

ان ما يميّزنا عن صدّام حسين هو قدرتنا المتفوقة، والقصوى ربما، على تمويه الموت والدمار والمذابح. ذلك بالضبط ما يجعلنا أكثر تقدماً. اننا ببساطة أفضل منه في كوننا أكثر حداثة.

ويخبرنا جورج بوش أن «الحلفاء يقاتلون في صف الله». ويردف: «لقد حسمت كل المسائل الأخلاقية في ذهني. هذه مسألة أبيض على أسود، ومسألة خير ضد شر». بعدّتنا الأخلاقية وحداثتنا وعلمنا العسكري، نبدوجاهزين للتغلب على صدّام حسين وحداثته المتداعية الآيلة إلى السقوط بما يكتنفها من شرور موروثة.

الفكرة الغربية سوف تسير كحاطب ليل. طورها ما بعد التاريخي سيكون محكوماً بالأوهام ذاتها وبمركّب الخواف ذاته، مثلها مثل تاريخها البائس الحافل بالاقتتال. أبيض على أسود. خير ضد شر. نحن ضدهم. ولكن، بأي ثمن؟

المراسل الصحفي الاسباني ألفونسو روخو يصف امرأة بغدادية يغلي في

عينيها غضب مكبوت وهي تصرخ بأعلى صوتها في حشد من الصحفيين الغربيين:

«أهذه ما تسمونها الحضارة الغربية»؟

Marxism Today,
March 1991

حرب ضد
بلد عربي ـ مسلم من العالم الثالث

■ إدوار سعيد

تشهد الولايات المحدة برهة دموية غير اعتيادية في تاريخها كآخر قوة عظمى. انني أتحدر من أصل عربي، ولعل هذا ما دفعني مراراً (خلال الأشهر القليلة السالفة، وعلى نحو أكثر قلقاً في الأيام القليلة السالفة) إلى التفكير بأن هذه الحرب التي انخرطنا فيها كأمريكيين، بأهدافها وبلاغتها، بعنفها ودمارها الشاملين، لا يمكن أن تشن سوى ضد دولة عربية ـ اسلامية من العالم الثالث. انها لا تنطوي على فضل لأحد، ولن تسفر عن أي من النتائج الكبرى المرجوة منها، مهما كان ظفر أي من الفريقين صريحاً، ومهما كانت النتائج المسجلة لفريق دون الآخر. انها لن تحلّ مشكلات الشرق الأوسط، ولا مشكلات امريكا الغارقة الآن في كساد رهيب وفقر مدقع وبطالة وأزمات مدينية وتربوية وصحية ذات أبعاد هائلة.

حرب كهذه لا يمكن أن تقع سوى في جزء من العالم يتسم بدرجة عالية من انعدام التكافؤ في الامتلاك والحكم، ويحمل في داخله تاريخاً من الوعود المؤجلة وسقوط العدل والانصاف على يد الغرب، ويتفجر ألماً وكراهية وعداء لأمريكا، وتتعاظم فيه انتفاضة هائلة واسعة وغير مرئية. انني لا أعذر، ولم أعذر، للعراق اعتداءه على الكويت. لقد أدنت منذ البدء، مثلما أدنت طويلاً اساءة استخدام السلطة من قبل حكومة صدام حسين وغيرها من حكومات المنطقة، سواء أكانت عربية أم اسرائيلية. الديمقراطية، بأي معنى حقيقي للكلمة، لا توجد في أي من مناطق الشرق الأوسط، فثمة أوليغارشيات ذات امتياز أو مجموعات اثنية ذات امتياز. الغالبية الساحقة من جماهير الشعب تنسحق تحت نظم دكتاتورية أو

حكومات شرسة منعزلة وغير شعبية. لكنني أحاجج ضد فكرة أن تكون الولايات المتحدة بريئة في هذا الصراع الرهيب، مثلما أحاجج ضد فكرة أن هذه الحرب ليست بين جورج بوش وصدام حسين - وهي كذلك بالتأكيد - وأن الولايات المتحدة انما تتصرف مبدئياً وفقاً لمصالح الأمم المتحدة وحدها. لقد جرى الآن تجاوز قرارات الأمم المتحدة، وحملة القصف الجوي ضد شعب العراق باتت حملة اجرامية. غير أن قاع الأزمة يكشف عن تصارع شخصي بين دكتاتور من العالم الثالث من النوع الذي تعاملت معه الولايات المتحدة طويلاً، وشجعت دوره، وتمتعت بخدماته، وبين رئيس لدولة استولت على وشاح امبراطوري أورثته بريطانيا وفرنسا، وهي مصممة على البقاء في الشرق الأوسط لأسباب تتصل بالنفط والامتياز السياسي والجيو - ستراتيجي.

ولقد سال حبر كثير في الحديث عن الربط، تلك الكلمة التي أرى أنها بغيضة، وذلك المفهوم الذي أراه محفوفاً بالمزالق. «التناظر»، «العلاقة»، أو «التزامل» تبدو بدائل ممكنة توحي لي بأن الولايات المتحدة لا تمتلك سجلاً متماثلاً في مناهضة العدوان (وترد الى الذهن على الفور أمثلة ناميبيا، أفريقيا الجنوبية، قبرص، باناما، نيكاراغوا، الأراضي المحتلة من قبل اسرائيل)، وأن العراق والكويت لا توجدان في منطقة ما غير تاريخية من ذهن ديك شيني أو في احدى خرائط مكتبه. لقد انحازت الولايات المتحدة، طيلة جيلين، الى جانب الطغيان والظلم في الشرق الأوسط. انني أتحدى من يشير الى دعم الولايات المتحدة لأي نضال في سبيل الديمقراطية، لأي تحرك من أجل حقوق المرأة، لأية دعوة علمانية أو مطالبة بحقوق الأقليات. لقد قمنا بدلاً عن ذلك بمساندة وكلاء طيّعين وغير شعبيين، وأدرنا ظهورنا لجهود الشعوب الصغيرة المكافحة في سبيل التحرر من الاحتلال العسكري، وموّلنا أعداءهم. لقد أطلقنا نزعات العسكرة غير المحدودة وانخرطنا في مبيعات سلاح ضخمة على نطاق المنطقة بأسرها، وخصوصاً لتلك الحكومات التي دفعت الآن الى خيارات أكثر يأساً نتيجة هوس الولايات المتحدة بقوة صدام حسين والمبالغة في تصويرها. وأن يتصوّر المرء العالم العربي بعد الحرب وقد سيطر عليه حكام مصر والمملكة العربية السعودية وسوريا (العاملون جميعاً في نطاق السلم الامريكي Pax American) أمر مرفوض أخلاقياً وفكرياً.

لقد طرأ في الأشهر القليلة الماضية أمران، على نحو متسارع وشامل. الأمر الأول أن الهجوم الاعلامي الكاسح الذي جرى بدءاً من الصيف جعل وسائل

الاعلام والاعلاميين أكثر قدرة على الإفلات من المعايير المعتادة التي تحظر التحليل المشحون بالعواطف وتثبّت الرقابة الذاتية، وأقلّ حرجاً في تقديم نوع ضحل من المعلومات الملموسة، وثمة في هذا المقام استثناءات قليلة. الأمر الثاني اننا لم نطوّر خطاباً يقوم بأكثر من التماهي مع السلطة، بصرف النظر عن مخاطر تلك السلطة في عالم تضاءل وانكمش حتى تواشجت روابطه على نحو مؤثر.

ان الولايات المتحدة لا تستطيع الاعلان بشكل عدواني أنها ـ وهي تمثّل ٦٪ من مجموع سكان الأرض ـ تمتلك الحق في استهلاك ٣٠٪ من الطاقة العالمية؛ كما أنها لا تستطيع الاعلان بشكل أحادي عن نظام دولي جديد لمجرّد انها تمارس القوة العسكرية لتدمير حفنة من البلدان المتذمرة. لم يكن ثمة دليل واحد على أن التوسع العراقي سيتجاوز الكويت. والحق أن الدلائل الكثيرة تشير الآن الى أن ترتيباً بين العراق والمملكة العربية السعودية والأردن ومصر جرى التوصل اليه في مطلع شهر آب، وكان ينطوي على انسحاب عراقي وتسوية للمنازعات مع الكويت. ومثل أية تسوية اقليمية، رفضت الولايات المتحدة ذلك على نحو قاطع. ولقد توافر دليل قوي على أن العراق سيقود الأمور الى دمار شامل، ولن يتراجع إذا تيقَّن من وجود نية أمريكية لتصفية النظام. لهذا فقد رصّت المعارضة العراقية المناهضة لصدام صفوفها، ووقفت ضد الولايات المتحدة.

ويؤمن الكثير من العرب، مثلي، بضرورة الغاء الغزو العراقي. غير أن قلّة قليلة تتفق مع استراتيجية ارسال القوات العسكرية على الفور، لمجرد أن جورج بوش ومارغريت تاتشر افترضا أن من واجب الانسان الأبيض ان يجبر الأعراب Wogs على تحسين سلوكهم. وهنالك نسق لهذه المواقف المهينة تجاه العالم العربي تعود الى أيام القوة العسكرية البريطانية التي ارسلت الى مصر عام ١٨٨٢ لاخضاع ثورة عرابي، والاعتداء الذي نفذه انطوني إيدن عام ١٩٥٦ بالتعاون مع اسرائيل وفرنسا (ومن الغريب أن موقف إيدن المشبع بالازدراء والعناد والمشاعر الانتقامية يتجسد اليوم في الكراهية الشخصية التي يعرب عنها بوش ضد صدام حسين). السؤال الذي لم تطرحه وسائل الاعلام هو التالي: بأي حق ترسل الولايات المتحدة هذه القوة العسكرية الضخمة الى آخر العالم لمهاجمة العراق بهذه الطريقة الخشنة والدامية والوعظية؟ هذه تختلف تماماً عن مسألة مواجهة العدوان، التي قد يكون عرب كثيرون تواقين لممارستها. ما فعلته الخطوة الامريكية في واقع الأمر هو تحويل قضية اقليمية الى قضية امبريالية، خصوصاً وأن الولايات المتحدة لم تبد اهتماماً باعتداءات أخرى ـ نفذتها هي نفسها أو

اسرائيل ـ ودعمتها وموّلتها. لقد عامل بوش صدام حسين باعتباره الـ« موبي ديك » الشخصي الذي تجب معاقبته وتدميره، كأن قصف وافزاع المواطنين سيقود دون شك الى تقويض ارادتهم.

لقد كتبت في مكان آخر عن الموقف المرعب القائم الآن في العالم العربي: في بلدان متحالفة الآن مع الولايات المتحدة وفي بلدان ليست كذلك، ثمة الكثير مما يثير القلق لا يعود بمجمله الى الشخصية العربية أو الاسلام، بل الى تشويهات سياسية واجتماعية لا تنفع في علاجها سوى سياسات الاصلاح العلمانية الشاقة. غير أن الولايات المتحدة هي المعنية بما أقوله الآن.

طيلة عقود، شنّت في امريكا حرب ثقافية ضد العرب والاسلام: أكثر الرسوم الكاريكاتورية اثارة وعنصرية تلك التي تصوّر العربي والمسلم في صورة الارهابي أو شيخ النفط، وأن المنطقة حارة قذرة قاحلة لا تنفع سوى للربح أو الحرب. باستثناء برهة أو اثنتين، لم يسبق اطلاقاً أن برزت الفكرة البسيطة القائلة بامكانية وجود تاريخ وثقافة ومجتمع ـ مجتمعات في الواقع ـ يتوجب التعامل معها بروح الحوار والتشارك. سيل من الكتب التافهة يغرق بها الصحافيون السوق، ويرسمون بها حفنة من الانماط الثابتة الفاقدة لهويتها الانسانية. ويكاد أي شريط سينمائي يتناول عمليات الكوماندو الامريكيين لا يخلو من مواجهة بين رامبو فائق أو « دلتا فورس » كاسحة ضد عربي / مسلم هو ارهابي / مهزوم. ويبدو الآن وكأن حاجة ميتافيزيقية لدحر العراق هي التي تولد، ليس لأن عدوان العراق أخذ شكل الجائحة، بل لأن بلداً صغيراً غير أبيض وقف وجهاً لوجه أمام أمة فائقة تزودت على حين غرة بطاقة مفاجئة وحمّى آسرة ولم تعد ترضى بغير الشيوخ والدكتاتوريين والارهابيين وراكبي الجمال. العرب المقبولون حقاً هم أمثال السادات الذين يمكن جعلهم يظهرون بمظهر من انسلخوا تماماً عن ذاتهم الوطنية وتطهروا من آثامها: ضيوف فولكلور في حفلة أزياء.

ولا يمكن أن يكون العرب سوى أمثلة بليغة على سواهم ممن أثاروا في السابق غضبة الرجل الأبيض، ذلك الأنا ـ الأعلى البيوريتاني التي لا تعرف قفزته الى المجهول أية حدود، والذي قد يذهب بعيداً جداً لبلوغ أغراضه. ان احدى المكوّنات المفقودة على نحو مثير للانتباه من نقاشات حرب الخليج هي كلمة « امبريالية ». غير أنه من الصعب على المرء ألا يلتقط في النبرات الأخلاقوية للقادة الامريكيين وفي اصداء ما يصرّحون به لوسائل الاعلام تلك العبارات المكرورة عن العظمة الذاتية للامبرياليات السالفة (رغم انهم يخفضون الصوت

قليلاً ازاء الصيغة الدينية القائلة بأن إثم العراق ضد الكويت لا تقومه سوى الولايات المتحدة). وإذ يتعاظم الشرخ العراقي أمام أعيننا، يتحول صدام حسين الى هتلر، جزار بغداد، المجنون الذي يجب سوقه الى العدالة.

«كل الطرق تقود الى البازار»، «العرب لا يفهمون سوى لغة القوة»، «الوحشية والعنف سمتان مركزيتان في الحضارة العربية»، «الاسلام دين غير تسامحي مع الآخر، تقسيمي متخلف متعصب وقاس». ما من مجموعة ثقافية أساسية يمكن الحديث عنها طبقاً لهذه الأحكام، غير أن سياق واطار وخلفية أي نقاش بهذا الصدد قد تحدّد - وتجمّد في الحقيقة - عند هذه الأفكار. لقد بدا وكأن نوعاً من المتعة يترافق مع امكانية أن يمثّل صدام العرب، ويسعى الى الارتقاء بهم أخيراً. ولسوف تسجل النقاط ضد الفلسطينيين والقومية العربية والحضارة الاسلامية. معظم أعداء الغرب القدامى هؤلاء لهم خدّ آخر يجب عدم اغفاله: العداء لاسرائيل.

الأسوأ في الاهانة هنا كان رهط الأكاديميين المختصين بالذهن العربي، المشبوهين المعتادين الذين يمكن محاصرتهم ومساءلتهم عن العروض الشنيعة للخبرة الزائفة. لقد مال المزاج العام الى نزع العراق عن سياقه وعزله بهدف المبالغة في قوته الخرافية، ولاختزال شعبه الى كلمتين لا ثالثة لهما: صدام حسين. كأن كل ما كنا نفعله «نحن» كان محاربة طيف واحد وحيد يجسد الشر. ذلك يتيح لنا قصف العراق دون وخزة ضمير، وباحساس مفزع بالبهجة الحقة. ذلك أمر شجعت عليه وسائل الاعلام وطوّرته، كأن العراق لا يرى على نحو صحيح إلا من خلال مشاهد الـ F15 أو الصواريخ المبرمجة. لاحظ أيضاً أنه مع الغياب المفاجيء لكل من ابريل غلاسبي وجون كيللي لم يعد لدى هذه الادارة المحاربة أي موظف رسمي ذي خبرة ومعرفة بالشرق الأوسط، بلغاته وشعوبه. وإذ أصبح الحال هكذا فإن شكوى العراق ضد الكويت (وهي شكوى شجعتها ودعمتها الولايات المتحدة كما يثبت محضر محادثات ابريل غلاسبي مع صدام حسين في تموز) أهملت تماماً، مؤكدة بذلك الحاجة الى الحرب. انني أقول أن العراق يدمّر اليوم ليس بسبب اعتدائه على الكويت - الأمر الذي كان يمكن صدّه اقليمياً واقتصادياً وسياسياً بصبر أكثر - بل بسبب رغبة الولايات المتحدة في وجود مادي محسوس في الخليج، وفي إيجاد رافعة نفطية مباشرة للتأثير على أوروبا واليابان، وفي وضع جدول أعمال العالم، ولأن العراق كان يشكّل خطراً على اسرائيل.

أعرف أن الولاء والوطنية تدخل في ذلك كله، غير أن هذه العوامل يجب أن تنهض بمجملها على حس نقدي بماهية الحقائق، بمصالحنا، وبما ندين به لجيراننا وللبشرية جمعاء كبشر يقطنون هذا الكوكب المتضاءل والمنكمش. ان التضامن غير النقدي مع سياسة المرحلة، سيما حين تكون باهظة التكاليف، لا يمكن السماح لها بالسيطرة. الوجود الامريكي في الخليج غير معرّض للخطر، وهو لم يكن كذلك قط. لماذا لا تنتقد تصريحات مضحكة مثل «يجب أن نوقفه الآن، وإلا سنضطر الى ذلك فيما بعد وعلى نحو أصعب»؟ لماذا لم نسمع من يقول ان قرارات الأمم المتحدة انتزعت بالبلطجة من مجلس الأمن، وأنها لا تقول شيئاً عن تدمير بلد بهدف تحرير الكويت واستعادة عرش سلالة وضعت - مثلها مثل أسَر الخليج الملكية الأخرى - ٢,٥ تريليون دولار في الاستثمار خارج العالم العربي؟ هذه أسر ملكية لا تحترم حقوق الانسان ولا أولويات شعبها ذاته.

«عاصفة الصحراء» هي في نهاية الأمر حرب ضد الشعب العراقي، وهي جهد لكسرهم وقتلهم كجزء من جهد كسر وقتل صدام. غير أن هذا الأمر خافٍ على نطاق واسع عن أسماع وأبصار مشاهدي التلفزيون الامريكي، كوسيلة للابقاء على صورة الحرب بصفتها تمرين نينتندو غير مؤلم، وصورة حية للأمريكي كمحارب نظيف فاضل. في ٢٧ كانون الثاني، في مقالة افتتاحية في «نيويورك تايمز» كتبها ر.و. أبل، يوصف جورج بوش بأنه «رجل الالتزام الصارم بقواعد مركيز كونيزبري»(*)، وكأن ما تفعله الولايات المتحدة في الواقع ليس القصف التمشيطي الشامل Carpet - bombing للمدن والبلدات العراقية، وليس خرق ميثاقي جنيف ولاهاي عبر تدمير مؤن الماء والوقود المخصصة للمدنيين، دون المساس على نحو مؤكد وفعّال بالقوات المسلحة خلال ذلك كله. وقد يشكّل بعض الفارق - حتى بالنسبة للأمريكيين البعيدين عن التاريخ - أن يعرف المرء أن آخر تدمير تعرضت له بغداد كان عام ١٢٥٨، على يد المغول... لكي نعرف بالتالي ما هي سوابق ما نفعله الآن.

أين يجري أيضاً استغلالنا على نحو مقصود في الصور العديدة التي نشاهدها؟ لا بد لي من القول ان التركيز مراراً وتكراراً على عرض مشاهد آثار بضعة صواريخ في المدن الاسرائيلية هو جزء من عملية التزييف ذاتها. لا أقول بأن

(*) المركيز جون دوغلاس كونيزبري (١٨٤٤ - ١٩٠٠) وضع عام ١٨٦٧ «قواعد كونيزبري» التي تشدد على الجانب الانساني في مختلف الاجراءات (المحرر).

تلك المشاهد لا تستحق العرض، أو أنني أتغاضى عن هجمات صواريخ سكود ضد المدنيين. كلا... يجب عرضها، وأنا ضد تلك الهجمات. ولكن لماذا يجري الافتراض بأن الخسائر الاسرائيلية والغربية جديرة بهذا القدر من الاهتمام، إذا لم يكن القصد تمرير خرافة أن العرب لا يتساوون مع من يقف في صفنا، وأن حياتهم وعذاباتهم غير جديرة بالنظر؟

ولقد تكرر كثيراً الزعم بأن العراق قصف مواطنيه انفسهم بالغاز. هذا الزعم غير مؤكد، في أفضل حالاته. ثمة - على الأقل - تقرير واحد صادر عن الكلية الحربية جرى وضعه حين كان العراق حليفاً للولايات المتحدة، يقول بأن قصف أكراد حلبجا بالغاز نفذته ايران. القليلون فقط يشيرون الى تلك التقارير في وسائل الاعلام اليوم، رغم أن الحديث عنها يظهر بين الحين والآخر في وسائل الاعلام اليوم، ذات الرأي الآخر. «قصفُ شعبه بالغاز» بات الآن حقيقة مسجلة باسم صدام، ارتقت الى مستوى الدليل الاضافي على ضرورة قيام الولايات المتحدة بتدميره، كأنها بذلك لن تدمر العراق وتقتل الآلاف من مواطنيه وتضحي بحياة امريكيين (هم في معظم الحالات من الفقراء والمحرومين)، وتخلق جملة من المشكلات الجديدة.

ان مجمل الذرائع التي جرى بموجبها الاعداد للحرب وخوضها هي استعمارية في الجوهر: الافتراض بأن دولة صغيرة من العالم الثالث لا تمتلك الحق في مقاومة أمريكا، البيضاء والمتفوقة. أعترف بأن تلك الأفكار متجردة عن الأخلاق وعفا عليها الزمان وشريرة في الأساس ما دامت لا تجعل الحروب ممكنة فحسب، بل تحجب الدبلوماسية والسياسية وتمنعهما عن أداء دورهما. وحين نستعرض سجل التاريخ على نحو واف، سنعرف ما نعرفه بشكل جزئي في هذه اللحظة: أن الولايات المتحدة قاومت ونسفت أية محاولة للتوسط والتسوية والاحتكام، وضغطت من أجل الحرب منذ البداية وعلى نحو ثابت. بذلك لن يكون لدى المرء سوى هامش ضئيل من الأمل في أن جورج بوش سيتجاوب مع اقتراح سوفياتي - عراقي بالانسحاب(*).

لسوف يتضح عندها أن هدف هذه الحرب ليس السماح لأمم أصغر وشعوب خاضعة بالتمتع بالمزايا ذاتها التي نملكها «نحن». ولو أن الولايات المتحدة اكتسبت منذ البدء سلطة أخلاقية بالوقوف خلف الجهد العربي وجهود الأمم

(*) كتب ادوار سعيد هذه المقالة بتاريخ ١٨ شباط ١٩٩١. (المحرّر).

المتحدة، موسعة نطاق قرارات الأمم المتحدة ليشمل المنطقة بأسرها وليس مجرد دولة واحدة ألصقت بها تهم الخبث والشر، فالحرب عندها لم تكن لتقع، وكان بمقدورنا عند ذاك الحديث عن الحوار والمصالحة. كم تبدو سخيفة ومقيتة أخلاقياً عبارة بوش القائلة بأن حلّ المشكلة الفلسطينية الآن سيكون «مكافأة للعدوان»، كأن التسوية السلمية لقضية لا تسبق صدام وحده بل بوش نفسه يمكن الحديث عنها بهذه الطريقة الفظة والصبيانية.

نادرة كانت الأفكار الخاصة بالمرحلة التي تعقب الحرب: الخراب الهائل الاقتصادي والبيئوي والانساني؛ تقوية الشعور الديني وهزيمة الفكر العلماني والحوار والاعتدال؛ تدمير العراق واحتمال تفتّته، والرحلة الطويلة الممضة من معاناة مواطنيه؛ نهوض التطرف، ودعوات الانتقام والمزيد من القتل والتدمير؛ اهتزاز الاستقرار في العديد من الحكومات، سيما تلك الحكومات غير الشعبية التي تحالفت مع الولايات المتحدة في حربها ضد العراق؛ التمديد غير المحدود للوجود الامريكي وما يترافق معه من قتل واحتلال وتعاون هي مفردات إرثنا؛ تنامي العداء في اسرائيل، التي ستحرك اللوبي الخاص بها في الولايات المتحدة للحصول على المزيد من التنازلات؛ تدمير البيئة والاقتصاد... والقائمة طويلة طويلة.

في عدد الشتاء من مجلة «شؤون خارجية» نشر مقال تحت عنوان «صيف السخط العربي» جاء فيه ما يلي:

■ ما كاد العالم العربي / الاسلامي يودع غضبة وعواطف حملة آية الله الخميني حتى نهض منافس له في بغداد. المدعي الجديد مصنوع من مادة مختلفة عن منقذ «قم» ذي العمامة: صدام حسين لم يكن كاتب أطروحات حول الحكم الاسلامي، ولانتاج تتلمذ رفيع في حلقات الدرس الدينية. الصراعات الايديولوجية لكسب عقول وأفئدة المؤمنين لم تكن من اختصاصه. لقد تحدّر من أرض هشة، من بلد تجاور فارس وجزيرة العرب، ولم ينل سوى النزر اليسير من الثقافة والكتب والأفكار. المنافس الجديد كان طاغية، سجاناً متمرساً عديم الرأفة روّض محيطه وأحاله الى سجن كبير(*).

ان تلميذ المدرسة الابتدائية العربي يعرف أن بغداد لم تكن فقط موئل

(*) لا يشير ادوار سعيد الى اسم المؤلف لسبب لا يخفى إذا عرف القارىء أنه فؤاد عجمي، الاستاذ الجامعي الامريكي المنحدر - للأسف - من أصل لبناني! (المحرّر).

الحضارة العباسية - ذروة ازدهار الثقافة العربية - خلال القرون ٩ - ١٢ التي شهدت انتاج أعمال أدبية ما تزال تقرأ اليوم كما يقرأ شكسبير ودانتي وديكنز، بل هي أيضاً كمدينة واحدة من أعظم معالم الفن الاسلامي. فضلاً عن ذلك، تعتبر بغداد - مثلها مثل القاهرة ودمشق - مهد الاحياء الأدبي والفني في القرنين التاسع عشر والعشرين. لقد أعطت بغداد خمسة على الأقل من أعظم شعراء العرب في القرن العشرين، والأغلبية الساحقة المؤكدة من خيرة الفنانين والنحاتين. القول بأن لا علاقة للعراق بالكتب والأفكار أمر أقرب الى فقدان الذاكرة حول سومر وبابل ونينوى وحمورابي وآشور والمعالم العظيمة لحضارة ما بين النهرين (العالم) القديمة. والقول بأن العراق «أرض هشة» - بما يوحي بالجدب والعقم - أمر يدل على جهل يخجل منه التلميذ المبتدئ. ماذ حدث لدجلة والفرات؟ ماذا حدث لحقيقة أن العراق هو الدولة الأكثر خصوبة في الشرق الأوسط؟

هذا المؤلف يزجي المدائح للمملكة العربية السعودية المعاصرة، الأكثر هشاشة وافتقاراً الى الكتب والأفكار والثقافة من العراق على مدار تاريخه بأسره. ليس القصد التقليل من المملكة العربية السعودية، البلد الهام ذي الالهامات الكثيرة. بيد أنني أريد القول ان مثل تلك الكتابات، التي تظهر والولايات المتحدة على حافة الحرب في أكثر فصليات البلاد نفوذاً حول مسائل السياسة الخارجية، لا تعدّ كتابات مفيدة في المعلومات، كما أنها لا تنطوي على أية ايضاحات ذات قيمة. الأكثر أهمية انها مثال على إذعان فكري لإرضاء السلطة ومخاطبتها بما تريد سماعه، واعطائها الضوء الأخضر للمضي في القتل والقصف والتدمير ما دام الهدف المتعرض للهجوم تافهاً وهشاً ولا علاقة له بالكتب والأفكار والثقافات، ولا حتى بالشعب بمعناه الحقيقي (كما يوحي النص على نحو ملطف). ثمة دكتاتور عراقي فقط يتوجب القضاء عليه مثله مثل أية جائحة وحشية.

بمثل تلك المعلومات، أين الفسحة للغفران والانسانية، وأية فرصة للحجة الانسانية؟ القليل القليل للأسف. غير أن بعض العلامات التي تظهر في جميع أرجاء البلاد، تحت الفورة الخادعة والوفاق الملفق من قبل وسائل الاعلام، تكشف عن غضب شعبي وضمير قلق ونفوس متألمة. ان واجبنا كمثقفين هو الانحياز للحقيقة كما يقول بندا Benda، وليس الى تشجيع العواطف الجماعية لصالح المذابح الجماعية. وحين يسمع المرء فيلسوفاً مثل ميكل ولزر Walzer أو

كاتب افتتاحيات مثل انطوني لويس يعلنان أن هذه «حرب عادلة»، يدرك المرء مرة أخرى أن الكلمات هي أولى الضحايا في أي نزاع.

London Review of Books,
7 March, 1991

المسلمون قادمون!

■ دانييل بايبس

ريتشارد كوندون، مؤلف «مرشح من منشوريا»، صرّح مؤخراً بما يلي: «الآن وقد نام الشيوعيون، يتوجب علينا اختراع تهديد آخر رهيب». ذلك محض لغو بطبيعة الحال. يصعب القول ان الشيوعيين «دُفعوا إلى النوم»، فما يزال لديهم الكثير من الزخم سيما في العالم الثالث. فضلاً عن ذلك، لم تخترع أمريكا الخطر السوفياتي، فالدبابات والصواريخ العابرة للقارات والايديولوجيا جعلت منه أمراً واقعياً بما يكفي. وبمعزل عن الحاجة إلى «تهديد آخر رهيب» ليحلّ محل الاتحاد السوفياتي، يتوجب علينا استكمال الحرية والأسواق الحرّة في الداخل. إذا كانت تلك مهمة للمستقبل البعيد، فلن يكون أمامنا سوى أن نسعد بالهجوع إلى البيوت ومشاهدة البرامج الرياضية أو إدخار النقود من أجل العطلة.

هذا التوتر الذي يطبع تفكير كوندون، ويسود على نطاق واسع، قد يكون عائداً في جزء كبير إلى خيبة الأمل التي عاشها الأمريكيون بعد الحرب العالمية الثانية. لقد كان يفترض أن يدشن الانتصار على الفاشية حقبة جديدة، بفضل «الأمم المتحدة» والعلوم الحديثة. أجهض ستالين وماو هذه الفورة. ولأن الأمريكيين يكرهون أن يخدعوا مرتين، فهم الآن يستعدون ويعدون أنفسهم لخصم جديد.

على أساس من ذلك يلتفت الأمريكيون، والأوروبيون أيضاً، إلى غول تقليدي: المسلم. بعضهم يشدّد على بلد بعينه (في نيسان، وقبل أربعة أشهر من غزو العراق، اعتبرت نيوزويك أن صدام حسين هو «عدو الشعب رقم ١»، وعلى الغلاف). غير أن الغالبية الساحقة تنظر إلى الشرق الأوسط بأسره، اذا لم نقل العالم الاسلامي بأجمعه.

وفي عام ١٩٨٤ أوضح ليون اوريس أن الهدف من روايته «الحج» هو تحذير الغرب من «ثور هائج قوامه بليون نسمة على هذه البسيطة، واذا ما عوملوا بطريقة خاطئة فسيفتحون طريقاً ثانية إلى أرماغيدون»(*) لكن «الخواف من المسلم» MUSLIMPHOBIA انطلق عام ١٩٨٩ كنتيجة فرعية لحفلة التكهنات التي ترافقت مع تحرر أوروبا الوسطى.

ولقد انقسم القلق حول التهديد الاسلامي إلى فرعين متمايزين. الأول يركز على ايران وليبيا وغيرهما من الدول المعادية، ويرى قوة عسكرية تبنى على مبدأ الجهاد (الحرب الاسلامية الحقة). الثاني يركز على الهجرة إلى الغرب، ويخشى أن ينجح المهاجرون المسلمون في تخريب الحضارة الغربية من الداخل.

آخر مرّة شكّل فيها المسلمون تهديداً مادياً للكون المسيحي (وهو تعبير بات دارجاً من جديد هذه الأيام) كانت عام ١٦٨٣، حين عسكر الجنود العثمانيون خارج أسوار ڤيينا. ولقد تمّ احياء ذكرى هذا الحدث، ولهذا فإن وليام س. ليند (الذي عمل من قبل مستشاراً لمرشح الرئاسة الأمريكي غاري هارت) يحذرنا من أن «اشكالية الانهيار السوفياتي قد تنطوي على احتمال أن تقوم الجيوش الاسلامية بمحاصرة بوابات ڤيينا من جديد».

ويوافق بيتر جينكنز، المعلّق البريطاني البارز، حين يرى مشكلات العصر في ضوء صراع يعود إلى ستة قرون ونصف. «كان رد الاسلام هو شغل أوروبا الشاغل منذ عام ١٣٥٤ حين سقطت غاليبولي وحتى آخر مناسبة وقف فيها الأتراك على أبواب ڤيينا عام ١٦٨٣. انها من جديد الشغل الشاغل في وجه الثورة الاسلامية».

كتّاب الافتتاحيات في صحيفة «صنداي تايمز» اللندنية وجدوا أن مفهوم الاحتواء ما يزال ناجعاً:

«في كل شهر تقريباً يتراجع الخطر القادم من حلف وارسو؛ ولكن التهديد القادم من الأصوليين المسلمين يزداد عاماً بعد عام، وسيطبع ما تبقى من هذا العقد وما بعده أيضاً. انه تهديد يختلف في النوع والدرجة عن تهديد الحرب الباردة. لكن على الغرب أن يتعلم كيفية احتوائه، تماماً كما تعلم من قبل كيفية احتواء الخطر الشيوعي».

هذه الأفكار لا تعبر عن آراء حفنة من المعلقين المهووسين بالخطر فقط، إذ أن

(*) في «العهد الجديد» هي موقع المعركة النهائية بين الأمم، والتي ستشهد نهاية العالم. (المحرر)

تلك المخاوف تلمس عصباً بالغ الحساسية في النفس الغربية. لنأخذ استطلاع رأي واحد جرى في منتصف عام ١٩٨٩ في صفوف مواطنين فرنسيين. «أي من الدول التالية يشكل في نظرك أخطر تهديد على فرنسا»؟ أجاب ٢٥٪ أنها ايران، و٢١٪ الاتحاد السوفياتي، و١٤٪ الدول العربية. أكثر من نصف من شملهم الاستطلاع - ٥٧٪ على وجه الدقة - اعتبروا أن دولة أو أكثر من الدول الاسلامية هي الأكثر خطراً على فرنسا. آراء مماثلة يمكن أن توجد في بلدان أخرى من أوروبا الغربية.

بعض المسلمين، لاسيما الأصوليين، يشجعون هذه المخاوف.

يقولون ان الصراع الأكبر في عصرنا لا يقوم بين الرأسمالية والشيوعية، بل بين الغرب والاسلام. ويفاخر الأصوليون بأنهم سيفوزون في هذه المعركة، ولقد صاغ محررو «الجمهورية الاسلامية» الايرانية المسألة على نحو رديء في مطلع هذا العام: «لقد فهم الغربيون جيداً أن حركة الاسلام العالمية هي أخطر تهديد يصيب امبراطورية الغرب الفاسدة». النقطة ذاتها يشرحها علي أكبر محتشمي، المنظّر الهام في القيادة الايرانية، حين يقول: «سوف يشهد العالم في المستقبل العديد من كُتل القوة... لكن الاسلام سيكون القوة العظمى دونما شك». ومن مراكش إلى أندونيسيا يشترك المسلمون ذوو النزعات الأصولية في تبني هذه الرؤية.

كيف ينبغي أن يرد الغرب؟ البعض يقول ان الحل يكمن في بناء تعاون بين البلدان الغربية. على المستوى الدنيوي يتوجب على الديمقراطيات الصناعية أن تتكاتف وتحافظ على التقاليد الليبرالية في حرية الكلام وحرية الديانة وما إلى ذلك. كما ينبغي أن تتعاون ضد الارهاب وسواه من أعمال العنف. يجب أن يتوسع حلف الناتو خارج حدود أوروبا، وأن تطور «مبادرة الدفاع الاستراتيجي» لاستخدامها ضد الصواريخ العراقية أو الليبية.

أكثر خيالاً، في الواقع، أولئك الذين يذهبون إلى حدّ اعتبار الأجزاء المسيحية من الامبراطورية السوفياتية بمثابة الحليف ضد المسلمين. وحين تعود الجمهوريات السلافية وجمهوريات البلطيق ومولدافيا وجورجيا وأرمينيا إلى معتقداتها الأصلية، فإن بمقدورها تشكيل امتداد لأوروبا في الشرق. أكثر الأفكار اثارة للاستفزازات تلك التي تدعو إلى بناء تحالف عسكري مع هذه الشعوب، وخصوصاً الروس. تدعو صحيفة «صنداي تايمز» البريطانية كلاً من الغرب والاتحاد السوفياتي «للاستعداد لآفاق هجمة اسلامية أصولية هائلة» تمتد من

مراكش إلى الصين. ولقد أوحى وليام ليند أن «دور روسيا كجزء من الغرب يحتل مكانة خاصة في ضوء امكانية الاحياء الاسلامي... ان الاتحاد السوفياتي يشغل الخاصرة اليمنى الحيوية للغرب، والتي تمتد من البحر الأسود إلى فلاديفوستوك». وولتر ماك دوغل، المؤرخ الحائز على جائزة بولتزر، يرى أن روسيا:

«تسيطر على حدود الكون المسيحي ضد عدوه المشترك. إذا أصاب الامبراطورية الروسية في آسيا الوسطى خطر التفكك والانهيار، فليس مستحيلاً احتمال نشوب حرب دينية تتضمن أسلحة نووية وكيميائية وبيولوجية. لقد أثبت العراقيون والايرانيون أنهم قادرون على ذلك، ولا شك في أن الروس اليائسين والمحبطين يمتلكون الوسائل لأمر كهذا. أبعد من قضية اسرائيل - فلسطين، تبدو طرق القوافل القديمة في آسيا الوسطى منطوية على مواقع ساراجيفو التالية».

ما الذي يمكن للمرء أن يستخلصه من هذه الأفكار؟ ينبغي القول أولاً أنها تطوير كبير للسياسات الرتيبة التي اتبعتها دول غربية عديدة في السنين الأخيرة. من الأفضل تضخيم خطر القوة الليبية من لعق حذاء القذافي، كما فعل غربيون كثر في سنوات الطفرة النفطية عامي ١٩٧٣ - ١٩٧٤.

فضلاً عن ذلك، هنالك أساس واقعي للخوف من الاسلام. منذ موقعة أجنادين عام ٦٣٤ وحتى أزمة السويس عام ١٩٥٦، كان العداء العسكري هو العامل المهيمن على العلاقة المسيحية - الاسلامية. ولقد ظهر المسلمون كأعداء أساسيين منذ «أغنية رولان» وحتى قصائد «أورلاندو»، منذ «السيد» وحتى «دون كيخوته». وفي واقع الأمر اكتسب الأوروبيون الشماليون دولتهم بطرد المسلمين، بدءاً باستعادة اسبانيا في مطلع القرن الثاني عشر وحتى حرب استقلال ألبانيا عام ١٩١٢.

اليوم، تملك حكومات اسلامية عديدة ترسانات ضخمة. الجيش العراقي مثلاً يمتلك من الدبابات أكثر مما تمتلك ألمانيا، والصواريخ الخطرة بموجب اتفاقية القوة النووية المتوسطة توجد في الشرق الأوسط. والدول الشرق أوسطية حوّلت الارهاب إلى أداة للسياسة والحكم. دزينة من الدول الاسلامية تمتلك امكانات الحرب الكيميائية والبيولوجية. ثمة طاقات فاعلة لتصنيع سلسلة واسعة من المعدات العسكرية في مصر والعراق وايران وباكستان وأندونيسيا، ولن يمرّ زمن طويل حتى تتمكن هذه الدول من امتلاك ونشر أسلحة ذرية.

ولكي تزداد الأمور سوءاً تجب الاشارة إلى أن المسلمين دخلوا في غيبوبة خلال القرنين الماضيين.. محنة أهل الله الذين وجدوا أنفسهم في أسفل الركام. التوترات كانت هائلة والنتائج بالغة الألم، ولا غرو أن البلاد الاسلامية تضم بين جنباتها معظم الارهابيين والحجم الأقل من الديمقراطيات في العالم. تركيا وحدها (والباكستان أحياناً) هي الديمقراطية حقاً، وان كان النظام ذاته هشاً. والنتيجة دائماً هي حالة مستعصية من عدم الاستقرار بالاضافة إلى قدر كبير من العدوان.

غير أن أياً من هذه العوامل لا يسوّغ النظر إلى المسلمين كأعداء ألداء. اذا انعدمت الأسباب، ثمة على الأقل حقيقة أن كراهية الغرب لا تشمل جميع المسلمين. الأبحاث الميدانية والانتخابات توحي بأن الكارهين للغرب بين صفوف المسلمين - وهم الأصوليون الراسخون - لا يشكلون أكثر من ١٠٪ من السكان المسلمين. السبب الآخر أن المسلمين ليسوا متعصبين بالفطرة، لكنهم يعانون من احباط أزمتهم الراهنة.

يضاف الى ذلك أن المسلمين ليسوا متحدين الآن، ولن يكونوا كذلك أبداً. انهم يتوزعون حول مزاعم قومية متصارعة (لبنان وسوريا) أو برامج أيديولوجية متباينة (سوريا والعراق) أو مزاعم حدودية متضاربة (العراق وايران) أو رؤية دينية متناقضة (ايران والسعودية) وما إلى ذلك. الوحدة العربية فشلت، مثلها مثل مخططات جمع شمل المسلمين سياسياً.

والعنف في الشرق الأوسط هو احدى عوارض هذه الخلافات. الحرب العراقية - الايرانية (وهي حرب اسلامية محضة) دامت ثماني سنوات رهيبة وأوقعت خسائر في الأرواح تزيد على خسائر الصراع العربي - الاسرائيلي طيلة أربعة عقود. والمسلمون يمسكون بتلابيب بعضهم البعض في الصحراء الغربية وتشاد ولبنان وآسيا الوسطى. وحتى اذا سعى المؤمنون من جديد إلى محاصرة ڤيينا، فإن نزاعاتهم الداخلية ستجعل جهودهم بهذا الصدد غير فاعلة، كما هو حالهم مع اسرائيل.

ثمة أيضاً حقيقة أن المزيد من الحكومات الاسلامية يتعاون مع الغرب أكثر مما يهدده. تركيا عضو في منظمة الـ«ناتو» والملكان الحسن المغربي والحسين الأردني عملا طويلاً مع الحكومات الغربية تماماً كما فعل حكام تونس والباكستان وأندونيسيا. أكثر من ذلك، وظف السعوديون أموالهم في الغرب على نطاق واسع حتى باتت مصالحهم معلّقة به مباشرة. الصورة أبعد ما تكون عن صورة العداء المتجانس.

لهذه الأسباب كافة، قد لا يكون الجهاد مستحيلاً تماماً لكنه يبقى خارج نطاق النقاش الجدي حول السياسة الأمريكية.

ومن المفارقة أن القلق الثاني ينبع على وجه الدقة من حقيقة أن العديد من المسلمين ينجذبون إلى الغرب. انهم يحبونه كثيراً، إلى درجة الرغبة في التحول إلى جزء منه. وكما يلاحظ دافيد برايس ـ جونز، فإن ملايين المسلمين «لا يطلبون لأنفسهم أكثر من هجرة مجتمعاتهم إلى مجتمع أوروبي».

جميع المهاجرين يجلبون معهم عاداتهم ومواقفهم الغريبة، لكن العادات الاسلامية أكثر اثارة للاضطراب من سواها. كذلك يبدو المسلمون أكثر مقاومة للاندماج، مجموعات الباكستانيين في بريطانيا، والجزائريين في فرنسا، والأتراك في ألمانيا تميل إلى تحويل البلد المضيف إلى مجتمع اسلامي عن طريق اجباره على التأقلم مع طريقة عيشهم.

على نطاق محدود، يطلبون مثلاً أن تلتزم المعامل بتقويمهم الاسلامي ـ بعطله الخاصة ومناسباته وأعياده ـ أو أن تفصل المدارس العامة بين الجنسين وتقرر تدريس مبادىء الاسلام. ثمة مجموعة متميزة من المسلمين ـ خصوصاً أتباع آية الله الخميني ـ يأملون في اعادة تغيير أمريكا وأوروبا على صورتهم. انهم لا يخجلون من قول ذلك. محرر صحيفة تصدر في انكلترا باللغة البنغلاديشية، هارونور رشيد تيبو، أوضح أن قادة «منظمة الشباب المسلم» تسعى في النهاية «إلى بناء مجتمع اسلامي».

بطبيعة الحال، بناء مجتمع اسلامي يعني الاستيلاء على سلطة سياسية. واذا كان هذا أمراً بعيداً، فهو ممكن على الأقل. في ألمانيا الغربية يسمع المرء من يقول: «في عام ٢٠٠٠ سيكون لنا مستشار اتحادي من أصل تركي». وفي تعبير أكثر تطرفاً على هذا المظهر كتب المفكر الفرنسي جان راسباي رواية بعنوان «مخيم القديسين» تصور الاستيلاء الاسلامي على أوروبا بواسطة موجات من البنغلاديشيين.

قادة الشرق الأوسط مثل وهابيي المملكة العربية السعودية يشجعون هذه المطامح صراحة. غير أن الحكومة الايرانية هي التي تدافع بعدوانية عن المصالح الاسلامية، إلى درجة تشجيع القيام بتحدي السلطات. في احدى التصريحات قالت صحيفة ايرانية متشددة أن «التأثير المتزايد للاسلام في العالم المعاصر أمر لا يمكن نكرانه، سواء شاء الغرب أم أبى». وفي مناسبة أخرى حذرّت ايران من أن المسلمين المقيمين في المملكة المتحدة قد يجبرون «على البحث عن وسائل

أخرى خارج القانون لحماية حقوقهم».

من المفهوم أن نزعة العدوان هذه تثير القلق في نفوس الغربيين، وأن يكون لمخاوفهم اطارها السياسي. في فرنسا يصف جان - ماري لوبن الاسلام بأنه «دين غير تسامحي» ويخشى من «غزو أوروبا من قبل هجرة اسلامية». ان حزبه السياسي، «الجبهة الوطنية» يدعو صراحة إلى طرد المهاجرين من فرنسا. الجمهوريون في ألمانيا الغربية والغلاة في بلدان أخرى يشاركون لوبن نظرته وبرنامجه.

ثمة تلميحات ونكات فجة تنتشر لدى الألمان خصوصاً. («ما هو الفارق بين اليهودي والتركي؟» «الفارق أن الأول نال ما يستحقه، أما الثاني فسيحين دوره»). لقد دفعت المسلمين إلى الخوف من مجزرة على الطراز اليهودي HO-LOCAUST تنتظرهم في المستقبل. يتحدث كليم صدّيقي، مدير المعهد الاسلامي في لندن، عن «غرف غاز هتلرية تحضّر للمسلمين»، بينما يكتب عضو مجلس مساجد برادفورد شابير أختار: «اذا تكررت غرف الغاز مرة أخرى في أوروبا، فليس ثمة شك في من سيكون داخلها». وبصرف النظر عن درجة المبالغة، تعكس هذه المواقف حالة من الترقب الحقيقي.

الحقائق الديموغرافية تكتنف الخوف من الجهاد والهجرة على حد سواء. المسلمون يعدون مليار نسمة على الأقل. انهم يشكلون أكثر من ٨٥٪ من السكان في ٣٢ بلداً،وبين ٢٥ إلى ٨٥٪ من السكان في ١١ بلداً آخر، ونسباً مهمة (أقل من ٢٥٪) في ٤٧ بلداً أضافياً.

بالمقارنة مع الغربيين، العاجزين أصلاً عن الحفاظ على أعدادهم الحالية (بولندا وايرلندا ومالطا واسرائيل هي الدول الوحيدة ذات النمو السكاني الطبيعي)، تشكل نسبة الولادات عند المسلمين الرقم الأعلى في العالم.تثبت دراسة أجراها جون ر. ويكس أن البلدان ذات النسبة العالية من المسلمين تتسم بخصوبة انجاب تعادل ستة أطفال للمرأة المسلمة بالقياس إلى ١,٧ للمرأة في البلدان المتقدمة. النسب العالية تكاد تنطبق على كل بلد اسلامي من شمال افريقيا إلى أسيا الجنوبية والوسطى.

يرى البعض في هذا الخلل الديمغرافي التحدّي الأعظم والأوحد للحضارة الغربية. يلخص باتريك بوشانان حسّ التوجس هذا بأسلوبه المزركش:

«طيلة ألف سنة دار الصراع حول مصير البشرية بين المسيحية والاسلام. قد

يكون هذا هو الحال في القرن الواحد والعشرين أيضاً... في القرن القادم قد نكتشف أن المحافظ ت. س. إليوت كان على حق، حين كتب الجنتلمان المسيحي في «الرجال الجوف» The Hollow Men أن الغرب سينتهي «ليس بفرقعة، بل بنشيج».

لعله نسيج طفل مسلم في مهده.

نسبة الولادات الاسلامية العالية تحرّك السياسة الآن في بلدين غير مسلمين من بلدان الشرق الأوسط. لقد فقد المسيحيون السيطرة على لبنان بعد أن أصبح المسلمون هم الأكثرية هناك. وتحدّي الحفاظ على أغلبية يهودية يشكّل لبّ الجدل السياسي في اسرائيل: السكان المسلمون يحافظون على نسبة خصوبة لا تقل عن ٦,٦ طفل للمرأة الواحدة (تقديرات ١٩٨١).

الوضع في الغرب يختلف كثيراً بطبيعة الحال، لكن السكان المسلمين يتنامون هناك أيضاً. انهم يشكلون ٢ ـ ٣ مليون في الولايات المتحدة وحوالي ١١ مليوناً في أوروبا الغربية. والمسلمون يفوقون اليهود، وأصبحوا الدين الرئيسي الثاني في معظم بلدان أوروبا الغربية. في الولايات المتحدةسوف يشكل المسلمون الجالية الدينية الرئيسية الثانية خلال عشر سنوات.

المخاوف من الموجة الاسلامية لها مضمونها أكثر من القلق حول الجهاد. ان مجتمعات أوروبا الغربية غير مهيأة لهذه الهجرات الضخمة من سمر الوجوه الذين يطبخون أطعمة غريبة ويحافظون على مقاييس مختلفة للصحة والحياة. المهاجرون المسلمون يحملون معهم شوفينية تعرقل كثيراً اندماجهم في التيار العام لمجتمعات أوروبا الغربية. بعبارة أخرى، المتحمسون الايرانيون يهددون فيينا من داخلها أكثر من تهديدهم لها عند البوابات.

غير أن ذلك كله لا يرقى إلى قول ريتشارد كوندون بوجود «خطر آخر رهيب» يشبه الخطر السوفياتي. المهاجرون المسلمون لن يفلحوا على الأرجح في تغيير وجه الحياة في أوروبا: البارات لن تغلق أبوابها، والمبادىء العلمانية سوف تحدّ من دور الدين، وحرية الكلام سوف تبقى حقاً مبدئياً. انتقال المسلمين إلى أوروبا الغربية سوف يخلق عدداً كبيراً من التحديات المؤلمة، لكنها ستكون محدودة وليس ثمة سبب لرؤيتها تقود إلى معركة لا تبقي ولا تذر. اذا عوملوا برفق، يمكن للمهاجرين أن يضيفوا قيمة كبيرة ـ بما فيها الطاقة ـ إلى المجتمعات المضيفة.

الولايات المتحدة تواجه مشكلة أقلّ حجماً، بفضل تراث طويل في الهجرة

والمواقف الصحية التي تقترن بها. أن تكون أمريكياً أمر يتصل بالمحتد أكثر من الاشتراك في القيم، وهذا ما يشجع على منح كل ذي حق حقه. الأخلاق التعددية والنظام التربوي المفتوح عاملان هامان أيضاً. اذا انتقلت جماعة اسلامية أصولية إلى الولايات المتحدة وشاءت البقاء خارج التيار العام الثقافي، فسيكون ذلك متاحاً لها دونما متاعب، كما هو حال طائفة الآميش المينونيتيين Amish Mennonites(*) في بنسلفانيا، ويهود الهاسيديك Hasidic(**) في مدينة نيويورك.

ثمة نقطة أخيرة. ان الاعتقادبأن المسلمين سيخلفون الشيوعيين في تشكيل الخطر الرئيسي ينطوي على القول بأن الانقسامات الايديولوجية تخلي المكان للانقسامات المذهبية والطائفية. ذلك يتفق مع أطروحة فرانسيس فوكوياما حول «نهاية التاريخ» - حيث تعني نهاية التاريخ ليس ذلك الزمن الذي لا يحدث فيه شيء البتة، بل (كما يقول الفيلسوف) ذلك الزمن الذي لا يتحقق فيه تقدم اضافي في فهم الشرط الانساني: حقبة لا تبتكر فيها ايديولوجيات جديدة. اذا كان التاريخ - بمعناه هذا - سينتهي، فكل ما يفكر به المرء سوف يفقد أهميته. المسألة الأساسية ستكون ماهية المرء ذاتها. غير أن تكهن فوكوياما يبدو غير محتمل بدرجة عالية. ثمة حجة كبرى ودامية حول الشرط الانساني كانت بمثابة القوة المحركة للتاريخ خلال القرنين المنصرمين، من الثورة الفرنسية إلى الحرب الأهلية في نيكاراغوا. هل يمكن لهذه الحجة، القادرة على احداث انشطارات عميقة، أن تحرق نفسها وأن تستبدل بعداءات ذات طابع أسلافي حكمت حقبة ما قبل ١٧٨٩؟ أمر مستبعد.

ان شكوكي حول نهاية الايديولوجيا تقودني إلى الاستخلاص التالي: مستقبل العلاقات بين المسلمين والغربيين لا يعتمد على أعداد فجة وأماكن ولادة واقامة بقدر ما يعتمد على القناعات والمهارات والمؤسسات. المسألة الاساسية تتصل بما اذا كان المسلم سيقبل الحداثة. والجواب لا يكمن في القرآن بل في مواقف وأفعال ما يقارب المليار مسلم.

اذا فشلوا في التحديث فإن سجلّهم العنيد في الجهل والفقر والتشدد والأوتوقراطية سوف يتواصل، وربما يزداد سوءاً. التوترات العسكرية والثقافية

(*) طائفة بروتستانتية تأسست في فريزلاند في القرن السادس عشر ذات معتقدات تشبه المعموديين. (المحرر)

(**) مجموعة طوائف يهودية صوفية، أبرزها تلك التي تأسست في القرن الثامن عشر. (المحرر)

مع الغرب ستصبح أكثر حدّة. أما اذا جرى تحديث المسلمين فستختلف الأمور. عندها سيمتلكون فرصة طيبة للتخلص من الأمية والازدهار والاستقرار السياسي. لن يكونوا بحاجة بعد ذلك إلى تدريب الارهابيين أو بناء الصواريخ لاستعمالها ضد الغرب، ولا إلى الهجرة إلى أوروبا وأمريكا، ولا إلى مقاومة الاندماج في المجتمعات الغربية إذا حدث أن بعضهم هاجر.

National Review
November, 1990

فليخرج الأمريكيون،
وليدخل النظام العربي الجديد

■ محمد حسنين هيكل

لقد قُدّم غزو الكويت في الغرب وكأن مجنوناً استفاق ذات يوم على حلم فسارع إلى ابتلاع بلد مجاور له. ذلك زيف بطبيعة الحال، والصورة أكثر تعقيداً.

لست أتغاضى عن الغزو. لقد كان عملاً خاطئاً، وعلى العراق أن ينسحب. لقد تسبب أيضاً في تعميق الانقسامات العربية. لكن الغرب فشل في إدراك حقيقة أن ردّ فعله زاد في تصعيد الموقف، وقدّم اطاراً لإحساس عربي واسع النطاق بالغضب والمهانة.

ردّ الفعل ذاك يرتقي الى محاولة فرض حلّ أمريكي بغطاء عربي قوامه بضعة آلاف من القوات المصرية والمغربية والسورية. ذلك جهد عقيم، فالحل العربي وحده هو القادر على مخاطبة الذهن العربي. لسوف اقترح ذلك الحل، ولكن اسمحوا لي أولاً بوضعه في سياقه.

لقد انبثقت حدود دول الخليج من عبقرية بريطانية في خلق مواقف تستوجب الأسباب الكفيلة بالرجوع الى تلك الحدود بين الحين والآخر. نحن في العالم العربي قبلنا تلك الحدود كوسيلة لوضع حدّ للحقبة الامبريالية. ولقد افترضنا أنها ستتطور وتتغيّر حين يصبح حلمنا بأمة عربية أمراً واقعاً، تماماً كما تتطور أوروبا وهي تكتسب هوية جديدة.

ولطالما وجدت انقسامات تقف في طريق آمالنا: التوترات بين سكان الصحراء وسكان المدن، بين العناصر المحافظة والدستورية، بين القوى الرجعية والتقدمية.

والصراع في سبيل الاستقلال وامتلاك النفط مورس في المدن (القاهرة، بغداد، دمشق، بيروت)، لكن زعماء العشائر كانوا في نهاية الأمر هم الفائزين

به. لقد حرمت المدن من ثمار هذا الصراع.

بعد رحيل البريطانيين، تصرّف الجيل الأول من زعماء العشائر بمسؤولية، محترمين العقد الضمني من الثقة بينهم وبين المدن. بيد أن ابناءهم كبروا على يقين امتلاكهم للحق في الحكم، وتوفر لهم محامون يحولون النظام القبلي الى نظام مهيب يليق بالملوك. وإذ تعاظم حجم الأسَر الملكية، ازداد تحكمها بمقادير الادارة. في المملكة العربية السعودية تتألف الأسرة الحاكمة من ٦,٥٠٠ الى ٧,٠٠٠ فرد ... انهم يمتلكون كل شيء.

ثمة نظام عالمي جديد يولد، لكن العرب معرّضون لخطر الطرد منه. وبينما يقترب الشرق من الغرب، يصبح تحجّر السلطة العربية أكثر سوءاً، في حين تغذي الآثام المفرطة لبعض الأفراد مشاعر السخط لدى الجماهير العربية.

لم يسبق لي أن رأيت العالم العربي منقسماً كما هو عليه اليوم. ثمة الكثير من العواطف والنزر اليسير من الوضوح. إذا سألت عربياً عادياً أين يقف اليوم، فلن تحظى باجابة شافية، لكن توتره لن يخفى.

ثمة حالة عامة من اليأس والغضب والمهانة. نحن العرب لدينا آمالنا، لكننا خذلنا على نحو بالغ السوء. النظام القديم يرفض الموت، والمستقبل يرفض الولادة. انه زمن باعث على التيه والحيرة والأسى.

في الأيام القليلة التي أعقبت غزو الكويت، بدا الحلّ العربي ممكناً. ولو تتابعت الجهود باخلاص وتصميم لكان قد نجح. الآن وقد انقضت بضعة أسابيع، الحلّ العربي يبقى أفضل كثيراً من الحل الأمريكي.

استخدام الامريكيين للتهديد والوعيد زاد الأمور سوءاً. لقد وحّد وراء صدام حسين العديد من العرب الذين كانوا سيعارضونه في حالة أخرى. ووجود القوات الامريكية الآن في السعودية، على مقربة من مكة والمدينة، مسألة تجرح شعور المسلم وتثير فيه أحاسيس سخط معمقة. وفي هذه الظروف، تكون الرموز أكثر قدرة على التفجير من القذائف.

وانه لأمر مستبعد أن ينسحب الرئيس العراقي صدام حسين أمام التهديدات الامريكية، ولعله، كان سيفعل اذا كانت القوات المواجهة له قوات عربية صرفة. وأخشى أن التكتيكات الأمريكية ستجعل السلوك غير العقلاني هو سيد الموقف، ولنتذكر أن الشعب في بعض الأوقات يرحب بالشهادة كممارسة للتحدي.

وحتى لو قاد الحل العربي الى اندلاع حرب أهلية، فإنه سيكون أفضل من التدخل الاجنبي أو الهيمنة الأجنبية. انني أشعر بالوجل كلما فكرت في الحال

التي سيكون عليها العالم العربي بعد الضربة الأمريكية.

ولا أخفي أنني أكن تعاطفاً عميقاً مع معضلة الملك حسين. فبعد ٣٧ عاماً من استمراره على عرش الأردن العاصف، يبدو موقفه اليوم أصعب مما كان عليه في أية حقبة سابقة. وفي الوقت الذي راوغ فيه الآخرون وناوروا، بذل الملك جهده للعثور على حلّ عربي. ان زياراته الى لندن وواشنطن وعواصم أخرى جلبت عليه المزيد من المهانة، لم يكن أقلها تلك الصادرة عن «داوننغ ستريت». لقد اختلفت معه حول الكثير من النقاط، لكنني أشهد أن دبلوماسيته في هذه المسألة كانت الوحيدة التي تعطي بصيص أمل.

ما الذي يتوجب القيام به الآن؟ قمّة هلسنكي أعطت فرصة لالتقاط الأنفاس يتوجب على العرب انتهازها. سوف تواصل واشنطن استعداداتها للحرب، في حين ستسعى موسكو الى السلام. ينبغي عدم اغفال الاتحاد السوفياتي في هذه المعادلة، ومن الخطأ أن يظن المرء أنه سينعزل عند اندلاع الحرب في المنطقة، سيّما وانها قد تلهب شعوبه المسلمة. وإذ يتوجب مقابلة الدور السوفياتي بالترحيب، فالمبادرة تقع على عاتق العرب أساساً.

أفضل المقاربات تلك الباحثة عن نظام عربي جديد للمستقبل. ويخيل إليّ أن بمقدورنا أن نتعلم الكثير من نهج الأمم الأوروبية في التقارب بعد الحرب العالمية الثانية. لقد بدأوا بانشاء «المجموعة الأوروبية للفحم والفولاذ» عام ١٩٥٧، وانها لفكرة بوسعنا استعارتها مع بعض التعديلات.

معظم الدول العربية ينتج النفط أو يؤمن طرق مروره وشحنه، كالأنابيب والأقنية والطرقات، انني اقترح انشاء هيئة عربية لتوحيد هذه المصالح. لنكرّس جزءاً من مواردنا للجغرافيا، وجزءاً آخر للتاريخ: حصة تذهب الى البلد المنتج للنفط أو الذي يمرّ منه النفط، وحصة أخرى لهيئة عربية تنموية. وينبغي ان يتمثل الهدف في انجاز مصلحة عربية مشتركة في خفض الحالة الراهنة من انعدام التكافؤ.

قد يبدو ذلك أقرب الى الحلم، لكن الأحلام ضرورية في الأزمنة العصيبة المحاطة بأخطار جسيمة. وما من حلّ له نصيب في النجاح إذا افتقر الى الرؤيا. احترام الحدود، مهما كانت عشوائية، ينبغي أن يتوازن بوسيلة التشارك في الثروات. ينبغي اخراج العالم العربي من ركوده عبر الوضوح واليقين، وليس عبر التهديدات والعسف. العرب وحدهم هم القادرون على اقامة حوار.

القوة عقيمة ولن تفضي الى شيء. الشرعية تتجاوز كثيراً مجرّد الحفاظ على

الأوضاع القائمة: ينبغي عليها، أولاً وقبل كل شيء، أن تكون تعبيراً عن حقائق الجغرافيا والتاريخ. يتوجب على الشرعية أيضاً أن تعكس القيم الانسانية والآمال والمطامح، فضلاً عن حقيقة أن هذه تتبدّل بمرور الزمن.

The Times (London)
September 12, 1990


القسم الثاني

أزمة الخليج والبعد الاسلامي: الثبات والتحول في السياسة السوفياتية

■ آلان غريش

في اليوم التالي لقيام العراق بغزو الكويت أعلن وزيرا الخارجية السوفياتي ادوارد شيفارنادزه والأمريكي جيمس بيكر ما أسمياه «خطوة غير عادية». لقد أصدرا بلاغاً مشتركاً «يحض المجتمع الدولي على الانضمام الى بلديهما وتعليق شحنات الأسلحة الى العراق على نطاق دولي». أزمة الخليج، باعتبارها أولى الأزمات الدولية الرئيسية لمرحلة ما بعد الحرب الباردة، تطرح مقياساً ملموساً للاستراتيجية السوفياتية المتبدلة في العالم الثالث. وإذا كانت السياسة السوفياتية تفسر في جزء كبير بالرغبة في الحفاظ على علاقات طيبة مع الولايات المتحدة، فإن على المرء في المدى القصير أو البعيد ألا يتغاضى عن ثقل علاقات موسكو مع الشرق الأوسط، وكيف تؤثر على استراتيجيتها وتكتيكاتها في المنطقة.

ان السياسة السوفياتية تستجيب لضرورة جوهرية هي تجديد الاقتصاد والمجتمع السوفياتيين. ولقد عنى ذلك بالنسبة للقيادة السوفياتية الاندماج في السوق العالمية واستقبال شحنة هائلة من المساعدات والتكنولوجيا الغربية. «ان السياسة الدولية تستجيب لهذه الحاجات الداخلية»، كما عبر غورباتشوف. الوفاق البسيط لن يحقق هذه الأهداف الطموحة، التي تتطلب تفاهماً خلّاقاً مع الغرب[1]. بالاشتراك الفعال في حلّ جملة من أزمات العالم الثالث ـ من ناميبيا

(١) حول هذا الموضوع انظر آلان غريش:

"L'Union soviétique á l'heure de toutes les surenchères", Le Monde diplomatique, March 1990.

الى كمبوديا - وباستخدام النفوذ السوفياتي على الحلفاء حين يقتضي الأمر، سعى السوفيات الى تقوية تحالفهم مع الغرب عشية تبني الاصلاحات الاقتصادية التي يمكن أن تكون آثارها الداخلية مدمرة.

«عمل غادر»

بعد فترة وجيزة من وصول خبر قيام العراق بغزو الكويت، أدان الاتحاد السوفياتي هذا العمل باعتباره «عدواناً صريحاً واضحا» وعلّق شحنات الأسلحة لحليفه الذي يلتزم معه باتفاقية صداقة وتعاون منذ عام ١٩٧٢[٢]. وفي ٦ آب صوّت الاتحاد السوفياتي لصالح قرار بفرض العقوبات الشاملة على العراق في مجلس الأمن. وخلال مناورات الأسطول السوفياتي في البحر الأسود في ١٧ آب برّر غورباتشوف موقف بلاده الحازم على النحو التالي: «لقد شهدنا عملاً غادراً وخرقاً فاضحاً للقانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة. انه باختصار خرق لكل شيء تعلّق الانسانية أملها عليه... من الضروري استعادة احترام القانون الدولي»[٣].

في ١٩ آب أبلغ السوفيات البنتاغون بـ«نوعية الاسلحة والمعدات العسكرية المرسلة الى العراق في مراحل مختلفة»، رغم أن وزير الدفاع ذكر أن أعداد ومواصفات الأسلحة «لم تجر الإشارة اليها لاعتبارات تعاقدية»[٤]. كذلك صوّت الكرملين في ٢٥ آب لصالح قرار أصدره مجلس الأمن يخوّل القوات البحرية (الامريكية على وجه الخصوص) الحق في «استخدام الوسائل والاجراءات التي تقتضيها الظروف» لفرض الحظر على العراق بالقوة. غير أن شيفارنادزه سارع الى القول بأن السوفيات «ليست لديهم خطط لاستخدام القوة»[٥]. ونظراً لأن ذاكرة أفغانستان لم تبارح أذهانهم فقد تخوّف السوفيات من أية عملية بارزة خارج حدود البلاد، رغم أن بعض الأصوات أثارت مسألة «التهديد الجنوبي» وضغطت باتجاه الحفاظ على المعدّل العالي للإنفاق العسكري[٦].

---

(٢) تصريح الكساندر بيلونوغوف، نائب وزير الخارجية السوفياتي، Temps nouveaux (Moscow), August 14, 1990.

(٣) International Herald Tribune (IHT), August 18 - 19, 1990.

(٤) Le Monde, August 26 - 27, 1990.

(٥) I.H.T., August 27, 1990.

(٦) انظر على سبيل المثال الجنرال ف. ماكارايفشي في:
Temps nouveaux, August 21, 1990.

ولقد أثار نشر القوات الامريكية في المملكة العربية السعودية «الحذر والقلق» اللذين أثارهما ضمّ الكويت، وتبدى ذلك في تصريحات وزير الخارجية السوفياتي الذي «تلقى ضمانات من وزير الخارجية الامريكي بأن نشر القوات الامريكية في المملكة العربية السعودية اجراء مؤقت ذو طبيعة بالغة الخصوصية، وأنها سوف تسحب في أقرب فرصة»[٧]. وفي مناسبات عديدة سوّغ غورباتشوف شرعية الانتشار العسكري الأمريكي: «لقد استجابت الولايات المتحدة لطلب المملكة العربية السعودية. لقد تصرفت وفق معايير ميثاق الأمم المتحدة»[٨].

وفي الوقت الذي التزم فيه الصف الأمريكي، فإن الاتحاد السوفياتي ظلّ راغباً في تفادي المغامرة العسكرية، وآملاً في أن تصويته داخل الأمم المتحدة والتطبيق الصارم للحظر سوف يجرد «الصقور» الامريكيين من أسلحتهم. لم تكن موسكو راغبة في التخلي عن مصالحها الخاصة بها، سيّما ذلك التأثير الخاص الذي تملكه في بلدان عربية عديدة وعلى الرأي العام في المنطقة. ولدى موسكو من الأسباب ما يجعلها تخشى وقوع انفجار على مبعدة ٢٠٠ كلم من حدودها الجنوبية، أكثر مما لدى واشنطن. ثمة قلق كبير حول نزاع ذي آثار غير متوقعة وغير مرئية في العالمين العربي والاسلامي. ولقد قال غورباتشوف: «كلما أسرعنا في خفض سوية التسليح، كلما ازدادت طمأنينتنا»[٩].

المحور الأول في الستراتيجية السوفياتية كان الحفاظ على الحوار مع بغداد. أرسلت القيادة السوفياتية جملة اشارات الى صدام حسين وقبلت «بناء على طلبه» زيارة سعدون حمادي نائب رئيس الوزراء العراقي في ٢٠ ـ ٢١ آب. هذا الموقف مكّن الاتحاد السوفياتي من إجلاء جميع رعاياه من الكويت، بالاضافة الى عائلات ٦٥٠٠ من موظفيه العاملين في العراق. غير أن السماح لمن أنهى مهمته بمغادرة البلاد تطلّب زيارة خاصة قام بها يفغيني بريماكوف مستشار غورباتشوف. ومنذ مطلع اكتوبر لم يفتح الاتحاد السوفياتي أي حوار جوهري مع بغداد. لقد شدّ وتر القوس.

المحور الثاني كان محاولة ايجاد حلّ عربي. السفير السعودي في واشنطن،

---

(٧) I.H.T., August 10, 1990.

(٨) L'Humanité, September 5, 1990

(٩) Le Monde, September 2 - 3, 1990

الأمير بندر بن سلطان، استقبل بحرارة في موسكو. السفير المتجول ميخائيل ستينكو جاب العالم العربي، بينما كان غورباتشوف يلحّ بين الحين والآخر على «العامل العربي».

أخيراً، صعّد الاتحاد السوفياتي المبادرات التي تأخذ الاهتمامات العربية بعين الاعتبار - خصوصاً مأساة الفلسطينيين - في محاولة لتفادي تحويل ادانة العراق الى نزاع بين العالم العربي من جهة، والولايات المتحدة وأوروبا من جهة أخرى. انتهز شيفارنادزه الفرصة في مطلع أيلول لنفض الغبار عن مقترح المؤتمر الدولي حول الشرق الأوسط. ولقد لاحظ أن «موافقة اسرائيل سيكون لها تأثير بالغ على الموقف»، مضيفاً بأن الاتحاد السوفياتي «لن يدع تلك الخطوة من قبل اسرائيل تمرّ دون تأثير، وسينظر باهتمام أكثر الى العلاقات السوفياتية - الاسرائيلية»[١٠].

قمّة هلسنكي

يساور الكثير من المسؤولين السوفيات القلق حول نطاق الانتشار العسكري الامريكي. «لا توجد ضمانات بأن الولايات المتحدة ستغادر السعودية بعد انتهاء الأزمة»، هكذا صرّح الكساندر بيلونوغوف أمام هيئة برلمانية سوفياتية[١١]. أما رئيس أركان حلف وارسو، فلاديمير لوبوف، فقد صرّح لوكالة تاس «بصفة شخصية» أن الوجود العسكري الامريكي قد غيّر بعمق العلاقات بين القوى الستراتيجية في المنطقة ويمكن أن ينسف محادثات التسلح في أوروبا. صحيفة البراڤدا، الناطقة بلسان الحزب الشيوعي، حذّرت من أي تصعيد عسكري: «لن يسقط الشعب وحده ضحية لهذه الأعمال، ولا مصافي النفط، بقدر ذلك الأمر الذي قد يبدو بسيطاً للوهلة الأولى: سيرورة أنسنة العلاقات بين الشرق والغرب، التي ما تزال في مراحلها الأولى»[١٢].

غينادي غيراسيموف فنّد هذه المزاعم باسم وزارة الخارجية[١٣]، رغم أنها تستثير ملاحظتين، الأولى تتصل بالصحافة السوفياتية التي باتت الآن تعبر عن سلسلة واسعة من الآراء، والغربيون الواقعون في إسار اخصائيي الكرملين ينظرون غالباً الى المقالات الصحفية باعتبارها تعكس الرأي الرسمي. ذلك لم

(١٠) Le Monde, September 5, 1990

(١١) I.H.T., September 4, 1990

(١٢) Financial Times, September 3, 1990

(١٣) انظر I.H.T., September 4, 1990

يعد صحيحاً حتى بالنسبة لصحيفة البرافدا. الثانية تتصل بوجود «مصالح» متصارعة في القيادة: وزارة الخارجية، الجيش، المخابرات (ك.ج.ب)، الرئاسة... مما يشبه قليلاً البيروقراطية الامريكية التي تسفر غالباً عن اختلافات متضاربة في المعنى. ان قرارات غورباتشوف وشيفارنادزه «تمثل» السياسة السوفياتية تماماً كما «تمثل» قرارات بوش وبيكر سياسة الولايات المتحدة.

قمة ٩ ايلول في هلسنكي، التي جمعت غورباتشوف وبوش، أكدت على تعاون جديد بين الجبارين. «اننا متحدون في عدم وجوب استمرار العدوان العراقي. فلا يمكن قيام نظام سلمي عالمي إذا ظلت الدول الكبيرة قادرة على ابتلاع جيرانها»، هكذا أكد الجباران قبل أن يشددا على دعم قرارات الأمم المتحدة. ولقد ضمن الاتحاد السوفياتي اقرار الولايات المتحدة بدور الاتحاد السوفياتي في الشرق الأوسط وضرورة البحث عن حل دبلوماسي. وصرّح غورباتشوف: «نحن نفضل حلّ الأزمة سلمياً». أما اذا تعذر ذلك فإن موسكو لن تعارض «اجراءات اضافية متطابقة مع ميثاق الأمم المتحدة»، أي استخدام القوة[١٤]. بعد بضعة أسابيع تابع شيفارنادزة الاعراب عن الدعم لعمل عسكري تنسقه الأمم المتحدة، لكنه أقرّ بأن عملاً عسكرياً من الجانب الامريكي وحده «لن يشكّل خرقاً لقرارات مجلس الأمن»[١٥]. لقد انطوت تلك التصريحات على بعض التشاؤم، لكن هذه الأحاسيس لا تعرقل البحث اليائس عن حل دبلوماسي.

غلاسنوست في الخليج

تجنب المواجهة مسألة حيوية بالنسبة للكرملين، ما دامت الحرب ستعرّض للخطر خمس سنوات من الدبلوماسية الماهرة في الخليج، وقد تقود الى احداث شرخ اسلامي في الاتحاد السوفياتي يخلّ بالتوازن. يكتب ڤيتالي نومكين وإيرينا زفياجيلسكايا، الباحثان البارزان في «معهد الدراسات الشرقية» أنه «ما دامت الشعارات الايديولوجية الجامدة لم تعد تشكل عائقاً في اختيار الحلفاء والشركاء، فان الاتحاد السوفياتي مستعد لاجراء صلات سياسية وروابط اقتصادية وثيقة مع جميع دول الشرق الأوسط، بهدف بناء نظام للعلاقات في

(١٤) I.H.T., September 10, 1990

(١٥) The Independent (London), September 25, 1990

المنطقة لا يستند الى توازن القوة بل توازن المصالح »[١٦]. هذه الفكرة قادت «التفكير الجديد » السوفياتي وسمحت بتطوير شبكة مكثفة من العلاقات السياسية والاقتصادية مع الاردن ومصر. غير أن النقلة السياسية لوحظت على نحو خاص في العلاقة مع امارات الخليج.

بعد عام ١٩٦٣ كانت الامارة الكويتية هي الوحيدة التي أقامت علاقات دبلوماسية مع موسكو، بل وقعت أيضاً عقود سلاح مع الاتحاد السوفياتي عام ١٩٧٧ و١٩٨٠. العلاقات الدبلوماسية مع المملكة العربية السعودية قطعت عام ١٩٣٨، ورغم أن بعض الصلات الرسمية جرت في مناسبات عديدة فقد ظلت المملكة العربية السعودية تعتبر الاتحاد السوفياتي قوة معادية، تسلّح «بلداناً معادية» وتثير القلاقل الثورية وتهاجم الاسلام، خصوصاً في بدايات غزو أفغانستان.

في الثمانينات، خلال فترة الانتقال الطويل من بريجنيف الى غورباتشوف، ظهرت أولى علامات ذوبان الثلوج. في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٢، بعد قمة فاس، استقبل اندروبوف وفداً يمثل الجامعة العربية كان في عداده وزير الخارجية السعودي. لقد كانت تلك أول زيارة الى موسكو يقوم بها ممثل رفيع المستوى للدولة الوهابية منذ الثلاثينات. في عام ١٩٨٥ أقام الكرملين علاقات دبلوماسية مع عمان والامارات العربية المتحدة. في كانون الثاني ١٩٨٧ زار موسكو وزير النفط السعودي حيث أجرى مفاوضات حول أول اتفاق تجاري بين البلدين، وكان ذلك مبيعات نفطية على حساب العراق. (من الجدير بالذكر أن سعر النفط مسألة حاسمة بالنسبة للسوفيات، حيث يشكل النفط ٨٠٪ من مصادر العملة الصعبة، ولهذا فقد بدأت موسكو التنسيق مع منظمة أوبك). في عام ١٩٨٨ جاء دور قطر لفتح سفارة في موسكو، وفي شباط ١٩٨٨ قام أول مسؤول سوفياتي بزيارة السعودية، بعد بضعة أيام من اعلان موسكو نيّتها سحب قواتها من أفغانستان.

ولقد ساهم في هذا المناخ الجديد استئناف شحنات الأسلحة الى صدام حسين في خريف ١٩٨٢. الخوف من الثورة الايرانية قاد السلالات الحاكمة الى البحث عن «قوى ضامنة» ولمساومة الاتحاد السوفياتي. في نيسان ١٩٨٧ كان الاتحاد

---

(١٦) "La politique Soviétique á l'égard du réglement du conflit du Proche-Orient", Politique étrangère, 2, 1990

السوفياتي هو أول دولة كبرى تستجيب لطلب الكويت وترفع علمها على ناقلات النفط الكويتية. بعد بضعة أشهر، وبعد تكرار الهجوم على سفنها، حذّر الاتحاد السوفياتي أنه «سيرد بعنف اذا ارتكبت ايران أي عدوان جديد»[١٧].

ومن المفارقة أن الوفاق مع ايران بدأ في الفترة ذاتها. لقد حاول الاتحاد السوفياتي على الدوام الحفاظ على علاقات طيبة مع ايران، التي يشترك معها بـ ٢٠٠ كلم من الحدود. في أعقاب الثورة الاسلامية، ورغم التزلف الى آية الله في أعوام ١٩٨٠ ـ ١٩٨٢، فقد ظلّت العلاقات على سوئها. في شباط ١٩٨٧، وسط انكشاف فضيحة ايران ـ غيت، قام وزير الخارجية الايراني علي أكبر ولاياتي بزيارة موسكو وأعلن «أننا وضعنا أسس علاقات دولية مع الاتحاد السوفياتي». ورغم الخلافات حول رفض ايران قبول وقف اطلاق النار مع العراق، فإن الكرملين ردّ بالايجاب «على رغبة ايران في موضوع التعاون المشترك»، ودرس بعض المشاريع المشتركة[١٨].

في ٢٠ تموز ١٩٨٧، حين تبنى مجلس الأمن الدولي القرار رقم ٥٩٨ القاضي بوقف اطلاق النار بين ايران والعراق، كان الاتحاد السوفياتي هو الدولة الكبرى الوحيدة التي حافظت على حوار مع العرب وايران. لقد أرجأت أي محاولة لفرض حظر عسكري على ايران، ومارست الضغط على طهران لقبول الهدنة، وأدانت السعي الامريكي الى ايجاد قواعد عسكرية في المنطقة.

وحين قبلت ايران القرار في آب ١٩٨٨ نال الاتحاد السوفياتي مكانة جديدة أتاحت له توطيد صداقته مع الفريقين. في نيسان ١٩٩٠ استأنفت ايران مبيعات الغاز الى الاتحاد السوفياتي في مقابل موافقة السوفيات على تزويد ايران بأسلحة «دفاعية». في ايلول ١٩٩٠ تلقت ايران أول دفعة من طائرات ميغ ٢٩.

علاقات التبادل مع امارات الخليج ارتفعت وتائرها أيضاً. منحت الكويت موسكو قرضاً بقيمة ١٥٠ مليون دولار في عام ١٩٨٨ و٣٠٠ مليون دولار في ايار ١٩٩٠، غير أن موسكو، بصرف النظر عن مصالحها السياسية والاقتصادية والستراتيجية، قد بدأت منذ عام ١٩٨٨ تتلمس بعداً خاصاً لعلاقاتها مع هذه الدول، لم يكن موجوداً من قبل: الاسلام.

---

(١٧) Le Monde, June 3, 1987

(١٨) انظر آلان غريش في: "Les enchères de la guerre du Golfe: périlleux dilemme pour la politique soviétique,", Le Monde diplomatique, October 1987.

البعد الاسلامي

حين زرت موسكو في ايلول ١٩٨٧ أخبرني العديد من المسؤولين أن الاسلام لا يطرح مشكلة، حتى أن أحدهم اعتبره مجرد «طور». بعد عام واحد تغيّر الخطاب جذرياً. لم يعد ينظر الى الاسلام كتحدٍّ فقط، بل أخذ كل مسؤول سوفياتي يقيس التطورات في الشرق الأوسط بمعاييرٍ صدى الاحداث داخلياً.

منذ عام ١٩٥٥ استخدم الاتحاد السوفياتي الأقلية الاسلامية لتسهيل الاتصالات مع البلدان والحكومات المسلمة[١٩]. أما اليوم، وهي مسألة جديدة تماماً، فهو يستخدم جيرانه لتهدئة الأمور في الداخل وللحفاظ على الوحدة التكاملية للاتحاد السوفياتي.

في أعقاب الحملة المناهضة للاسلام في عامي ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧ (التي اقترنت جزئياً بالصراعات ضد الـ«مافيات» المسيطرة على جمهوريات آسيا الوسطى السوفياتية)[٢٠]، ومرحلة لاحقة من التردد، بدأ الاتحاد السوفياتي يسمح بأداء الشعائر الدينية الاسلامية بحريّة أكثر. في آذار ١٩٨٩ شهدت طشقند انتخاب المفتي الجديد والشاب، ولأن الاتحاد السوفياتي يعتبر خامس أكبر قوة اسلامية في العالم، نحو ٢٠ مليون مسلم، فلقد أمل في أن يكون قادراً على توجيه دفة الأحداث. ذلك التوجه يقتضي، على أقل تقدير، موقفاً محايداً لجهة القوى المرشحة لإثارة المشاحنات الدينية، سيما ايران والمملكة العربية السعودية.

ولقد أظهرت موسكو لتوّها أنها أحرزت موقفاً ايرانياً «متوازناً» خلال زيارة رفسنجاني للاتحاد السوفياتي في حزيران ١٩٨٩. وفي اجراء غير عادي، دُعي الرئيس الايراني لمخاطبة ٥٠٠ مسلم في باكو، حيث أطلق على غورباتشوف صفة «رجل دولة عظيم، ليس في الاتحاد السوفياتي فقط بل في العالم بأسره»[٢١]. كما أن موسكو لم تكن تخشى العلاقات المباشرة: وفود عديدة من أذربيجان وطاجكستان وتركمانيا وأوزبكستان زارت ايران، وبذلت الجهود

---

(١٩) ذلك هو الحال الآن أيضاً. لقد قام وفد يمثل جمهورية طاجكستان في لجنة التضامن الأفرو ـ آسيوي بزيارة الأراضي المحتلة صيف ١٩٩٠. انظر «الطليعة»، القدس ١٢ تموز، ١٩٩٠.

(٢٠) انظر: Martha Brill Olcott, "Soviet Central Asia: Ethnic Dilemanas and Strategies" and Marie Broxup: "Soviet Perception of Militant Islam," in Hafeez Malek, ed., **Domestic Determinants of Soviet Foreign Policy Towards South East Asia and the Middle East,** London, MacMillan, 1990

(٢١) Le Monde, June 25 - 26, 1989

لتسهيل عبور الحدود[٢٢].

هذا العامل الاسلامي يلعب دوره أيضاً في الصلات مع السعودية. وعلى سبيل المثال زار وفد يمثل «الجامعة الاسلامية العالمية» الاتحاد السوفياتي في آب ١٩٨٩ ووعد المسلمين السوفيات بهبة قوامها مليون نسخة من القرآن المطبوع في «المدينة»[٢٣]. ولقد اعتاد الاتحاد السوفياتي على طباعة ٢٥,٠٠٠ نسخة من كل طبعة، وكانت الطبعات تظهر كل ٢٠ عاماً، آخرها طبعة ١٩٦٨[٢٤]. في شباط ١٩٩٠ توجه فلاديمير بولياكوف الى السعودية لترتيب شحن نسخ القرآن الى المدن السوفياتية، وبقبول مساعدة ببناء ٥٠٠ مسجد جديد (في عام ١٩٨٩ كان هناك ٣٥٠ مسجد رسمي في مختلف ارجاء الاتحاد السوفياتي)، وكذلك للاتفاق على تفاصيل الحج الى مكة. كان عدد الحجيج المسموح به في السابق لا يتجاوز ٢٥ ـ ٣٠ حاج سنوياً، أما في عام ١٩٩٠ فقد بلغ العدد ١٥٢٥ حاج، ويمكن أن يزداد بسرعة في السنوات القليلة القادمة.

هل ستسمح هذه الاجراءات بتحييد المجموعات الوهابية الموجودة في عدة جمهوريات، خصوصاً في طاجكستان، والتي ناضلت ضد الاتحاد السوفياتي منذ مسألة أفغانستان؟ في منتصف ايلول تمكّن السوفيات أخيراً من اقناع الملك فهد باستئناف العلاقات الدبلوماسية بين البلدين. ولقد كان للموقف السوفياتي الحازم من أزمة الخليج، التي اندلعت صيف ١٩٩٠، دوره الحاسم في تحرير العلاقات. وإذا لم يصعد الموقف في الخليج الى حرب مخلّة بالتوازن، فإن موسكو ستعزّي نفسها بالتحالف الباهظ الثمن مع العراق في الوقت الذي تمكنت فيه من تقوية العلاقات مع اثنين من أعداء صدام حسين: الأسرة الوهابية الحاكمة والجمهورية الاسلامية، وكلاهما قادر على الاسهام في نجاح سياساتها الداخلية.

حدود ستراتيجية

الصحفي السوفياتي المعروف والأخصائي في شؤون الشرق الأوسط إيغور بيلاييف لخص اهتمامات موسكو خلال الأزمة الراهنة، وذلك في «ليتراتورنايا غازيتا»: «مصالحنا في الخليج تختلف عن مصالح الولايات المتحدة، غير أننا

(٢٢) حول الوفود انظر على سبيل المثال بيان الوكالة الايرانية للأنباء، ١٥ تموز ١٩٩٠، في B.B.C. World Service، ٢٤ تموز ١٩٩٠، حول الحدود انظر تصريحات وزير الخارجية الايراني في The Soviet Union and the Middle East, Jerusalem, Vol. XV # 5, 1990

(٢٣) **Les Musulmans de l'Orient Soviétique** (Tashkent) # 4, 1989

(٢٤) رحلة المؤلف الى طشقند في تشرين الأول ١٩٨٩.

نرغب كذلك في رؤية المنطقة هادئة. العراق، في نهاية الأمر، ليس بعيداً جداً عن حدودنا الجنوبية. سوف نبذل قصارى جهدنا لتهدئة الموقف»[٢٥]. ان الاتحاد السوفياتي يجاور تركيا وايران وأفغانستان على مدى آلاف الكيلومترات، وهو ضمن مدى الصواريخ الاسرائيلية والعراقية الوسيطة[٢٦]. لقد جهد الاتحاد السوفياتي، منذ الحرب العالمية الثانية، لاقامة علاقات طيبة مع جيرانه، وسعى الى منع الغرب من اقامة قواعد عسكرية على تراب أولئك الجيران. في الأزمة الراهنة يقع الاتحاد السوفياتي ضمن مدى ٣٠ صاروخاً منطلقاً من حاملة الطائرات الامريكية ويسكونسون USS. لهذا بمقدور المرء فهم معلق الأزفستيا ألكساندر بوڤين حين يتحدث بمرارة عن السياسة البعثية الراهنة:

«بصورة موضوعية، لعب ضمّ الكويت دور بطاقة الدعوة الموجهة الى الولايات المتحدة الأمريكية وضمن للقوات الأمريكية أفضل المقاعد على مسرح العبث العراقي... حتى إذا انسحبت القوات الامريكية عاجلاً أم آجلاً من المملكة العربية السعودية فإنها ستترك وراءها بنية تحتية (مهابط، مستودعات، محطات رادار) في أتم جاهزيتها، بمثابة سابقة لا مثيل لها ولم تكن متوقعة على الاطلاق. والعالم العربي يدين بالشكر لصدام حسين على ذلك كله»[٢٧].

وبالاضافة الى انشغاله العميق بستراتيجية التطويق الغربية، التي تظل قوية في بعض الشرائح العسكرية، فإن الاتحاد السوفياتي يخشى تراكم هذا الكم الهائل من الأسلحة الكيميائية والنووية في يد قادة لا يمكن التكهن بردود أفعالهم، مثل صدام حسين على الأخص. في كانون الأول ١٩٨٧، وخلال زيارته لواشنطن، قال بريماكوف أن اسرائيل تملك الأسلحة النووية ولهذا «لا نستطيع استبعاد امكانية ان يحذو الطرف الآخر حذوها، مضيفاً على النزاع أبعاداً جديدة»[٢٨]. وخلال قيامه بجولة في الشرق الأوسط في شباط ١٩٨٩ قال شيفارنادزة أن «الاسلحة التي نزيلها نحن والولايات المتحدة، مثل صواريخ INF، تظهر الآن في المنطقة... ان الشرق الأوسط يصبح عقبة رئيسية في وجه

---

(٢٥) كما وردت في I.H.T., August 7, 1990

(٢٦) العلاقات بين الاتحاد السوفياتي وتركيا شهدت تحسناً ملحوظاً في الأشهر الأخيرة.

(٢٧) Actualités soviétiques, August 29, 1990

(٢٨) تصريح بتاريخ ١٠ كانون الأول ١٩٨٧. B.B.C. World Service, December 12, 1990

التطور المستقبلي لعملية نزع الأسلحة »[٢٩]. كذلك حين كان الرئيس المصري حسني مبارك يقوم بزيارة لموسكو في أيار ١٩٩٠، دافع غورباتشوف عن فكرة خفض الأسلحة « إلى مستوى الاكتفاء الدفاعي »، وحمل البيان الختامي فكرته حول جعل المنطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل[٣٠]. لقد رفض السوفيات حجة بغداد حول ضرورة ربط مفاوضات خفض السلاح الكيميائي والنووي، وفي مطلع أزمة الخليج أعرب بيلونوغوف عن الأسف لأن العرب « أخضعو مشكلة الأسلحة الكيميائية لمشكلة السلاح النووي الذي تملكه اسرائيل، وأعطوا بذلك الضوء الأخضر لسباق التسلح الكيميائي » في الشرق الأوسط[٣١].

لقد أحيت الأزمة الراهنة المخاوف حول اشتعال الحريق في المنطقة. في آب ١٩٩٠ اقترح شيفارنادزة ضبط مبيعات الاسلحة في اطار الأمم المتحدة، كما اقترح أن تنطوي التسوية السلمية للنزاعات في العالم على حدّ متبادل لشحنات الأسلحة[٣٢].

صراع عربي - اسرائيلي؟

خطوات القيادة السوفياتية باتجاه حلّ الصراع العربي - الاسرائيلي تعكس الروح ذاتها التي اتسم بها ايجادهم للحلول في أفغانستان وناميبيا. يجب أن تؤخذ مصالح جميع الأطراف بعين الاعتبار، سواء أكانت تخص جنوب افريقيا أم اسرائيل، الولايات المتحدة أم الاتحاد السوفياتي. في كتابه « البيريسترويكا »، الصادر عام ١٩٨٧، يكتب غورباتشوف:

« نحن نفهم أن من الصعب في الظروف الراهنة التوفيق بين مصالح كافة الأطراف. غير أنه من الضروري اختصار مصالح العرب واسرائيل وجيرانها والدول الأخرى الى قاسم مشترك. بالطريقة ذاتها يصعب علينا ابعاد الولايات المتحدة عن الشرق الأوسط، فذلك أمر غير واقعي بصراحة. لكن على الولايات المتحدة من جهتها أن لا تتطلع الى أهداف غير واقعية ».

هذه المقاربة لا تعني تجاهل المكونات الجوهرية للتسوية (انسحاب اسرائيل من الأراضي المحتلة، اشتراك منظمة التحرير الفلسطينية، انشاء دولة

---

(٢٩) خطابه في القاهرة، ٢٣ شباط ١٩٨٩. Information Bulletin, Embassy of USSR in Egypt

(٣٠) The Soviet Union and the Middle East, XV, 5, 1900

(٣١) Temps nouveaux, # 33, August 14, 1990

(٣٢) رسالة الى الأمين العام للأمم المتحدة Actualités soviétiques, August 22, 1990

فلسطينية). انها تدعو الى الارتقاء بالحالة الثنوية Manicheanism (العرب الخيّرون ضد الاسرائيليين الاشرار) لتحقيق مرونة تكتيكية، خصوصاً.

في تموز ١٩٨٥، وبعد بضعة أشهر من انتخاب غورباتشوف أميناً عاماً للحزب الشيوعي، بدأ الحوار الاسرائيلي - السوفياتي، وتبادل البلدان البعثات القنصلية. ثم بدأ التعاون الثقافي والتجاري. خلال زيارة الرئيس السوري حافظ الأسد الى موسكو في عام ١٩٨٧، لاحظ غورباتشوف أن غياب العلاقات الدبلوماسية بين بلده واسرائيل «لا يمكن اعتباره طبيعياً، غير أن التقدم في علاقتنا مع اسرائيل لا يمكن تصوره إلا كجزء من عملية السلام في الشرق الأوسط»[٣٣].

هل غيّرت حرب الخليج هذا الموقف؟ ان استقبال غورباتشوف لوزيرين في الحكومة الاسرائيلية اليمينية، موداعي ونيئمان، واستئناف العلاقات القنصلية الرسمية في نهاية ايلول تشير الى استمرار التطبيع بين البلدين. ثمة اشاعات تذهب الى حدّ القول أن غورباتشوف تحدث عن احتمال دعم الاتحاد السوفياتي لاسرائيل في حال تعرضها لهجوم من العراق.

رغم ذلك يبقى دعم منظمة التحرير الفلسطينية هو حجر الأساس في سياسة الكرملين، وهي الورقة التي تسمح للاتحاد السوفياتي بالاختلاف عن واشنطن. ولقد ساهم الاتحاد السوفياتي بنشاط في اعادة توحيد منظمة التحرير الفلسطينية في اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر في نيسان ١٩٨٧. بعد ثلاث سنوات من البرود، الناتج عن الاتفاق الاردني - الفلسطيني لعام ١٩٨٥، قام ياسر عرفات بزيارة موسكو في نيسان ١٩٨٨. ولقد طالب السوفيات الفلسطينيين باستثمار نجاح الانتفاضة والاعلان عن الموافقة على القرارين ٢٤٢ و٣٣٨، الاعتراف باسرائيل وادانة العنف. لقد حاول السوفيات ثني منظمة التحرير الفلسطينية عن اعلان الدولة، خشية ان يدفع ذلك اسرائيل الى ضم الضفة الغربية وغزة. ولم يعترف الاتحاد السوفياتي بدولة فلسطين سوى في كانون الثاني ١٩٩٠، وذلك للتعويض عن زيارة عازر وايزمان لموسكو إذا صحّ التعبير، وهي الزيارة الأولى التي يقوم بها وزير اسرائيلي للاتحاد السوفياتي.

ويبقى الاتحاد السوفياتي ملتزماً بمبدأ المؤتمر الدولي، ولكن دون رفض أي جهد يسهم في تقدم عملية السلام. بذلك لم يشجع الاتحاد السوفياتي على

---

(٣٣) خطاب في مأدبة على شرف حافظ الأسد Actualités soviétiques, May 6, 1987

الحوار بين منظمة التحرير وواشنطن فقط، لكنه الآن لم يعد يدين مبادرات الولايات المتحدة «الفردية» - مثل خطة بيكر - شريطة اتفاقها مع توطيد السلام العالمي.

اعادة تقييم التحالفات

هذا التوجه لم يكن ساراً لحلفاء موسكو التقليديين. ولقد غضبت القيادة السوفياتية من سلسلة مقالات ظهرت في مجمل الصحافة العربية، وتتحدث عن «تواطؤ امريكي - سوفياتي» حول مسألة المهاجرين اليهود. ويلخص عبد الله حوراني، عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، شعوراً عاماً يسود العالم العربي بأن «المواقف السوفياتية لم تعد متكافئة مع مطامح الشعب الفلسطيني»[٣٤].

رغم ذلك، وبعد خمس سنوات على بدء البيريسترويكا، توفرت في مناسبات عديدة فرصة إيجاد لغة مشتركة قائمة على الواقعية والفهم المعمّق للمصالح. وتقدم العلاقات بين الاتحاد السوفياتي وسوريا مثالاً طيباً. في نيسان ١٩٨٧ انتهت زيارة الرئيس الأسد لموسكو نهاية سيئة، حيث أوضح غورباتشوف أن غياب العلاقات بين موسكو وتل أبيب ليس أمراً طبيعياً، وأن «الرهان على أن القوة ستسمح بتسوية الصراع انما هو رهان خاسر تماماً». وتحولت ديون سوريا الى نقطة مقايضة حادة، وتلقت دمشق ضربة قاصمة نتيجة الجهود السوفياتية التي تكلّلت بتوحيد منظمة التحرير تحت قيادة عرفات. وسيصرح وزير الدفاع السوري مصطفى طلاس بأن بلده «مضطر للمفاوضة والمساومة والقتال طلقة بطلقة، وما زال لدينا الحدّ الأدنى من احتياجاتنا»[٣٥].

بعد ثلاث سنوات، في نيسان ١٩٩٠، أظهرت زيارة الرئيس الأسد وجود تقدم ملحوظ في الأجواء بين البلدين. ولقد أشار السفير السوفياتي في دمشق ألكساندر زوتوف الى التزام الاتحاد السوفياتي بأمن سوريا. «ينبغي أن يمتلك هذا البلد أساساً دفاعياً قوياً ما دامت مبادىء العدل غير سائدة»[٣٦]. وشرع السوفيات في ارسال الميغ ٢٩، وأظهروا استعداداً لتزويد سوريا بطائرات سوخوي ٢٥، وتعاقب وصول الوفود العسكرية. وكعادته في التزام الواقعية قال

(٣٤) Le Monde, November 3, 1989

(٣٥) مقابلة مع I.H.T., September 26 - 27, 1987

(٣٦) مقابلة مع الاذاعة السورية، ٢ أيار ١٩٩٠، B.B.C. World Service, May 3, 1990

الأسد: «حين بدأ الزعماء السوفيات في تطبيق البيريسترويكا لم يكن معيارهم الأساسي يتصل بحجم الضرر الذي سيلحق بالعرب... لا أحد يتوقع أن يقرّر الاتحاد السوفياتي شؤونه الداخلية والخارجية على ضوء مصالح العرب فقط»[٣٧].

ولقد أسهمت هجرة اليهود السوفيات بدرجة كبيرة في استثارة التوتر بين موسكو والعرب، غير أن منظمة التحرير، مثل سوريا، أدركت أن المسألة غير قابلة للمفاوضة. غورباتشوف حذّر الاسرائيليين من توطين المهاجرين في الأراضي المحتلة. غير أن جوهر سياسة الهجرة ظلّ على حاله: بلغ عدد المهاجرين السوفييات ١٧,٤٩٤ في شهر آب ١٩٩٠.

غير أن الاتحاد السوفياتي غير راغب في التضحية بشركائه، حتى لارضاء واشنطن، فما تزال لديه مصالح ستراتيجية في المنطقة. ان افغانستان خير مثال. لقد سحب الاتحاد السوفياتي قواته، لكنه لم يتخل عن نظام نجيب الله، ولقد ساهم جسر جوي سوفياتي حقيقي بتقوية حكمه. ان الاتحاد السوفياتي - لأسباب لا تتصل بسمعته فقط بل بستراتيجيته أيضاً، إذ أنه يشترك بـ ٢٥٠٠ كلم من حدوده مع افغانستان - لم يسمح باقامة سلطة معادية له في كابول لن تتأخر في تصدير «الثورة الاسلامية».

في أمكنة أخرى تطرأ تغيرات تأخذ بالحسبان الرؤية الجديدة للسياسة الخارجية والأهداف الستراتيجية الموضوعية - الأقل طموحاً وميلاً الى الايديولوجيا من حقبة بريجنيف - والحقائق الاقتصادية. في ٢٥ تموز ١٩٩٠ وقّع غورباتشوف مرسوماً رئاسياً يعلن أن منح المساعدات لدول العالم الثالث سيتم «وفقاً لموارد بلدنا الحقيقية»[٣٨]. هذه الاعتبارات واضحة في انفكاك الاتحاد السوفياتي عن التزاماته مع اليمن الجنوبي ودعمه غير المحدود للوحدة اليمنية. وتذكر بعض المصادر أن الاتحاد السوفياتي بدأ بتفكيك قواعده العسكرية في اليمن الجنوبي واثيوبيا.

هذا التلخيص للسياسة السوفياتية في الشرق الأوسط هو بالضرورة مؤقت بدرجة عالية. ان مستقبل البلد ذاته موضع شك. هل ستبقى الجمهوريات الاسلامية داخل الاتحاد؟ لا أحد يستطيع التكهن بهياكل الاتحاد السوفياتي في

---

(٣٧) مقابلة مع صحفيين مصريين في ايار ١٩٩٠: B.B.C. World Service, May 30, 1990

(٣٨) The Guardian (London), July 26, 1990

المستقبل. ان نمط العلاقات التي سوف تقوم مع شعوب الشرق يعتمد على تلك الصراعات الجارية في الاتحاد السوفياتي بالاضافة الى ما تسفر عنه أزمة الخليج.

Middle East Report,
November - December 1990

جورج بوش في أوديسة العزلة

■ أندرو ستيفن

أوديسة الألم والعذاب والعزلة التي دامت ١٦٦ يوماً، بلغت نهايتها أخيراً. في يوم الاثنين الماضي(*) اتخذ جورج بوش قراره وأبلغه لمساعديه المقربين. وفي اليوم التالي، قرب نار متأججة في المكتب البيضاوي، وقّع الأمر الاداري السري للغاية الذي يخوّل البدء بالحرب. وطيلة مساء الاربعاء وصبيحة الخميس جلس في البيت الأبيض يتابع على شاشات التلفزيون - مثله مثل الملايين في أنحاء العالم - سير الأعمال العسكرية الأولى في حرب أمر هو نفسه بإشعالها على مبعدة ٧٠٠٠ ميل.

لقد كان يعرف جيداً أنه ما من أمة حديثة انخرطت في الحرب بهذه العجالة. في عطلة نهاية الاسبوع الماضي جرى التصويت على الحرب في مجلس الشيوخ بفارق ٥٢ - ٤٧ صوتاً، وفي الكونغرس بفارق ٢٥٠ - ١٨٣. قبل نصف قرن صوّت مجلس الشيوخ على اعلان الحرب ضد اليابان وألمانيا وايطاليا بالإجماع، أما في الكونغرس فقد اعترض عضوواحد من أصل ٣٨٩.

وعندما قرّر شنّ حرب تكلف مليار دولار يومياً، كان بوش يعرف أنه لا يضحي فقط بحياة الآلاف من البشر، وبمواجهة كيميائية وبيولوجية ونووية - بل بوضع مستقبله السياسي الشخصي على المحك. ان الفشل (متمثلاً بحرب مطولة تنطوي على خسائر مادية وعسكرية ومدنية أميركية عالية) سوف يعني أن التاريخ سيجعل من جورج بوش الرئيس الأميركي الأسوأ في تاريخ الولايات المتحدة. أما النجاح (متمثلاً في حرب خاطفة بخسائر طفيفة) فسوف يعني العكس، وسيجعله المرشح الذي لا يقهر في انتخابات ١٩٩٢. لقد كان قراراً اتخذ وحدُ السكين على العنق، والـ ١٦٦ يوماً من العذاب استقرت الآن في طيات وجهه المرهق الشاحب.

بدأ كل شيء سريعاً وعلى نحو غير متوقع. قبل التاسعة من المساء الأول

(*) نُشر هذا المقال بتاريخ ١٩٩١/١/٢٠ (المحرر).

لشهر آب الماضي [١٩٩٠] عرضت على بوش برقية تقول إن العراق اجتاح الكويت. ولقد ناقشها على نحو مقتضب مع مساعده لشؤون الأمن القومي الجنرال برنت سكاوكروفت، ثم أوى إلى فراشه.

في الصباح التالي استيقظ باكراً ووقع قراراً بتجميد الموجودات العراقية والكويتية، ثم أخبر الصحفيين أنه لا ينوي التدخل أو إرسال قوات أميركية إلى الخليج. التقى بأعضاء مجلس الأمن القومي، ولم يكن واضحاً أن أحداً منهم يظهر قلقاً على ما جرى هناك، ففي المنطق الأميركي تختصر المسألة إلى نظيرها التالي: بلد لا تتجاوز مساحته ضعف مساحة ولاية إيداهو اجتاح بلداً آخر أكبر بقليل فقط من مساحة هاواي. والأذهان الأميركية مشغولة هذه الأيام بحكايات الميزانية وما اذا كان بوش سيحنث بوعده الانتخابي: لا ضرائب جديدة.

غير أن القدر تدخل في اليوم التالي، متخذاً هيئة مارغريت تاتشر. كانت رئيسة الوزراء البريطانية موجودة في كولورادو لاستلام جائزة من معهد آسبن، وكان مقرراً أن يلقي جورج بوش خطاباً حول انتهاء الحرب الباردة والخط الذي ستلتزم به ادارته لتخفيض القوات المسلحة الأميركية إلى الربع (لكي تكتمل سخرية الأقدار). وجد بوش أن تاتشر كانت مستنفرة ضد العراق أكثر بكثير من الولايات المتحدة، حتى أنها قارنت العمل العراقي بغزو الأرجنتين لجزر المالوين في عام ١٩٨٢، االأمر الذي يتطلّب استجابة وطنية بطولية مماثلة من قبل الولايات المتحدة. «أنتم أمة عظمى ولا بد أن تقوموا بشيء»، «لا تكن رخواً يا جورج»، «الفرنسيون لن يكفوا عن اثارة المتاعب في وجهك حتى النهاية، لكنك تستطيع الاعتماد عليهم اذا تأجج الصراع».. هكذا تكلمت تاتشر!

في نهاية اليوم، اليوم رقم (١) من العد العكسي لأزمة الخليج، اتصل بوش هاتفياً بالملك الأردني حسين والمصري مبارك واليمني صالح، أما الملك السعودي فقد سبق أن حادثه قبل هؤلاء وبصحبة تاتشر. في تلك الليلة عاد إلى واشنطن جورج بوش الجديد، المفعم حماسة وتصميماً، قبل يومين فقط كان صدام حسين صمام أمان ضد الأصولية الايرانية... بعد أيام قليلة لن يتورع بوش عن مقارنته بأدولف هتلر.

نظرياً، كانت هذه هي اللحظة - والقضية - التي ينتظرها بوش. في الأيام الأولى من رئاسته كان بوش مولعاً باصطحاب زواره في أرجاء البيت الأبيض، والتوقف

عند صورة أبراهام لنكولن. في كل مرة كان بوش يتمتم: «لقد خاض امتحان النار، وأثبت عظمته».

لم يكن ثمة شك في الموقع الذي يطمح بوش إلى احتلاله في التاريخ، أما السؤال فهو: كيف يصل إلى ذلك الموقع؟ لقد أثبت في الماضي أنه يتقيد ببرنامج طموحه يوماً بيوم، فلكي يصل إلى البيت الأبيض نفّذ حملة انتخابية آثمة ضد منافسه الديمقراطي مايكل دوكاكيس عام ١٩٨٨، متهكماً - بين مسائل أخرى - على قناعة دوكاكيس بامكانية استخدام الأمم المتحدة كمنبر لحل المشاكل الدولية.

كلما استعرض بوش سلوك صدام حسين زادت ثورته وتعاظم غضبه. البلطجي العربي التافه يتحدى رئيس الولايات المتحدة، عملاق الكون الأكبر... نعم، سيصغي جورج بوش إلى كلمات تاتشر ولن يكون رعديداً، ولسوف يصرّح بأنه سيركل صدام حسين في قفاه. السؤال هو: كيف؟ ولماذا؟ كيف سيبيع هذه القضية للرأي العام الأميركي؟ ردّ فعله الأول تمثّل في الممارسة التي يحبها كثيراً: استخدام الهاتف، وإظهار الصورة الودودة الرقيقة للعم جورج.

في الـ٣١ يوماً الأولى لما تحول تدريجياً إلى أزمة، أجرى ما لا يقل عن ٦٢ اتصالاً هاتفياً مع رؤساء دول وحكومات في أنحاء العالم، مستخدماً الدول الصغرى مثل قطع في لوحة شطرنج: مهمة الغني «س» أن يتولى «تطبيق» الفقير «م» بالمال بحيث ينخرطان معاً في اللعبة؛ اشتروا سوريا وخففوا الضغط عنها؛ لا تثيروا المتاعب في وجه غورباتشيف حول مسألة البلطيق ما دام طيّعاً في حكاية الخليج... أما الأمم المتحدة - الهيئة التي استخدمها للتشهير الفاضح بمنافسه دوكاكيس - فهي مطيّة مناسبة الآن. بعد ستة أيام من تأكيده للعالم أنه لا يفكر بالتدخل العسكري في الخليج، غيّر بوش رأيه وأرسل الفيلق المجوقل ٨٢ بأعداد هائلة. ستكون هذه أولى النقلات المفاجئة في سياسته الخليجية. غير أن تلك كانت أيام سلام، حين كان بوش يجري اتصالاته وهو يزرع شواطيء كينينكبورت على ظهر قاربه... كانت الحرب شبه مستحيلة وبعيدة الاحتمال. لقد أكد لأسر العسكريين أن القوات الموجودة هناك لأغراض دفاعية محضة، فلسوف يتكفل الحظر الاقتصادي بإخراج العراق من الكويت.

في اليوم ٩٨ حنث بوعده الانتخابي حول الضرائب، كما حنث بوعده الخليجي حين ضاعف عدد القوات إلى ٤٠٠,٠٠٠ وأعلن أن المهمة لم تعد دفاعية بل هجومية. ولقد خشي مئات الآلاف من الأميركيين أن أبناءهم وبناتهم

سيتورطون في فييتنام جديدة، وعادت ذاكرة الـ٥٩,٠٠٠ قتيل أميركي إلى الأذهان. معظم الأميركيين عجز عن إدراك السبب في اللهاث خلف الحرب بهذه السرعة في الوقت الذي يثبت فيه أن الحظر الاقتصادي يخنق العراق شيئاً فشيئاً. المشكلة أن بوش نفسه بدا عاجزاً عن تبيان الأسباب. قد تكون الحرب ضرورية لأن صدام أخذ يهدد «أسلوب حياتنا»، ولأنه ارتكب «عدواناً عارياً»، أو لأنه «هتلر جديد» لكي تتعدد الأسباب. العم الودود الطيب جورج كان يتحول تدريجياً - بفعل خطابته الطنانة ذاتها - إلى رامبو بوش، مقتنعاً أن اشاراته المتكررة للجبروت الأميركي سوف تجبر صدام على الاذعان قبل الموعد الأقصى الذي حدّدته الأمم المتحدة.

في نهاية تشرين الثاني - اليوم ١٢٠ من الأزمة - أدرك بوش أنه بلغ نقطة اللاعودة. اذا لم يرضخ صدام - وتقارير المخابرات تقول انه لن يفعل - فسيكون على الولايات المتحدة مواجهة واحد من احتمالين: اذلال غير محتمل، أو حرب شاملة. في عيد الشكر زار القوات في الخليج، وبعد يومين - ودون استشارة حلفائه - أعلن أن واشنطن ستجري محادثات مع بغداد.

النصيحة السرية التي قدمها له الخبراء العسكريون - والتي لم تُعلَن قط - حددت الخسائر الأميركية بـ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ قتيل، والحرب يمكن أن تستغرق أياماً أو ساعات. غير أنهم أوضحوا أن الحرب لا يمكن أن تنطوي على ضمانات صريحة، وأنها يمكن أن تتطور إلى مواجهة كيميائية وبيولوجية ونووية مع احتمال انجرار اسرائيل وانهيار التحالف الهش. في كل حال، الرأي العام الأميركي لا يستطيع تحمّل وجود ٤٠٠,٠٠٠ جندي أميركي في الصحراء طيلة شهور أو سنوات من استمرار الحظر.

في اليوم ١٤١ من الأزمة ألغى بوش مواعيده واختلى بنفسه في كامب ديڤيد برفقة أفراد أسرته وأقرب المقربين إليه. لقد كان يقلّب الأمر في المستحيل... أدرك أنه وقع في سوء حساب قاتل حين اعتقد أن صدام حسين سيرضخ حين يواجه بنصف مليون من القوات المتحالفة وبما يساوي تريليون (واحد إلى يمينه ١٢ صفراً) دولار من المعدات العسكرية المعقدة. والعملاق الأميركي أساء فهم الرئيس العربي، وعليه خلال ١٢ يوماً من الآن أن يتخذ قرار الحرب. كان بحاجة إلى طمأنينة روحية خالصة حاول منحها له كبير قساوسة البيت الأبيض بيللي غراهام. من الآن فصاعداً سيرى موظفو البيت الأبيض جورج بوش القلق، العصبي، المتابع المتوتر للأحداث عبرجهاز تلفزيون صغير يحمله في جيبه. في

الساعات الأولى من بدء الحرب شوهد وهو يلوّح بقبضته في الهواء معرباً عن ابتهاجه بانتصار ساحق مبكر.

بعدها ـ وحتى تاريخ كتابة هذه السطور ـ عاد جورج إلى صورته الواقعية: رجل يشغل المهنة الأكثر عزلة في العالم، على حد تعبير جون كنيدي. لقد قطع الأوديسة الأولى من الألم، وها هو يحث الخطى نحو أوديسات أخرى قادمة.

بوش يذهب إلى ساحة القتال:

للحروب عادتها المزعجة في السير بعكس الخطط. كان جورج بوش يفكر في قضاء أمسية هادئة في احدى المسارح الخميس الماضي(*) ـ في المسرح ذاته الذي شهد اغتيال ابراهام لنكولن قبل ١٢٥ عاماً ـ لمشاهدة «النسور السوداء»، المسرحية التي تتحدث عن التمييز العنصري الذي خضع له الطيارون الأميركيون السود خلال الحرب العالمية الثانية. لكن خطته اضطربت.

فترة ما قبل الظهر صرفها في الجناح الغربي من البيت الأبيض بحضور جميع مستشاريه: بيل وبستر مدير المخابرات المركزية، وجون سنونو كبير موظفيه المتشدد، ودك تشيني وزير دفاعه المنتمي إلى تيار الصقور والذي تفادى ـ مع ذلك ـ دعوته إلى الخدمة العسكرية في فيتنام خمس مرات، وكولن باول رئيس الأركان العامة، وسواهم. «دعونا نتقيد بالخطة»، هذه كانت عبارته المفضلة في نقاشاته الخاصة خلال أزمة الخليج، وفي فترة ما بعد الظهر هذه أيضاً.

من الناحية العسكرية لم تكن الأمور تسير سوى على خير ما يرام: مستشاروه لشؤون المخابرات أخبروه أن النصر بات مؤكداً أكثر من ذي قبل. صدام حسين في ورطة. بحريّته دُمرت وقواته الجوية حُيّدت وامكاناته لانتاج أسلحة بيولوجية ونووية تمت تصفيتها، بالاضافة إلى نصف أسلحته الكيميائية. معظم دفاعاته الجوية وشبكة الطاقة الداخلية ونظام تكرير النفط تحولت إلى حطام. حوالي ٢٠٠٠ من دباباته دمّر، بينها ٧٠٠ من نوع T-72 المتقدمة والتابعة لقوات الحرس الجمهوري. لقد بات موقع صدام حسين يائساً إلى درجة تحولت معها الحرب البرية إلى نزهة، بخسائر بشرية قليلة في صفوف الحلفاء.

عاد بوش إلى الأقسام الخاصة من البيت الأبيض واستعد للذهاب إلى المسرح حين رنّ جرس الهاتف في الساعة ٦,٤٧ مساء. على الخط كان ميخائيل

(*) نُشر هذا الجزء من المقال بتاريخ ٢٤ شباط ١٩٩١ (المحرر).

غورباتشوف المنفعل، الذي حذره وبستر منه، وأنه يتكيء أكثر فأكثر على الحزب الشيوعي والمخابرات .K.G.B والأباراتشيك العسكريين. البيت الأبيض بالتالي لم يأخذ مبادرة غورباتشوف السلمية حول حرب الخليج على نحو جدّي: «لقد تلاشت على الفور في رمال الصحراء»، هكذا صرّح موظف كبير في الادارة بعيداً عن الأضواء.

غير أن الاتصال الهاتفي جعل بوش يدرك فجأة أن غورباتشوف وصدام حسين قد نجحا في إبعاد المبادرة الدبلوماسية عن منال يديه وعن التحالف، مما وضعه في صورة المعتدي أكثر من العراق. ذلك لم يكن جزءاً من الخطة على الاطلاق.

تحدث الزعيمان طيلة ٣٣ دقيقة، متوقفين بين الحين والآخر لإفساح المجال أمام ترجمة شاقة لعبارات حاسمة لا تخلو من توتر. كانت هناك سبعة شروط للانسحاب العراقي «غير المشروط» من الكويت، اكتشف بوش أنها تعيد الأمور إلى الوضع الثابت الذي كان فيه صدام حسين قبل ٢ آب: ايقاف العقوبات الاقتصادية حتى قبل استكمال انسحاب القوات العراقية، ثم الغاء جميع قرارات مجلس الأمن التي جرى تجميعها بعناية، سيّما منها القرار المتصل بدفع تعويضات الحرب.

الأكثر اثارة للغيظ أن مسؤولي العلاقات العامة لغورباتشوف نجحوا في بث اعلان «شروط السلام» في نقل حيّ على جميع شاشات التلفزيون العالمية، قاطعين الخط على بوش بصورة تظهر أن السلام ـ بغض النظر عن درجة عدم الواقعية في الشروط ـ بات قاب قوسين أو أدنى لو قرّر الأميركيون اغتنام الفرصة.

لقد أخذ بوش على حين غرة حين أعيدت الكرة إلى ملعبه بهذه القوة. تشاور مع ما تبقى من فريقه الخاص: الجنرال برنت سكاوكروفت مستشاره للأمن القومي، جيمس بيكر وزير خارجيته الأقل انتماء لمعسكر الصقور في الادارة، ودان كويل نائبه والأكثر تشدداً.

بعد ٢٠ دقيقة، وسط لا مبالاة ارستقراطية مميّزة، نوى أن يظهر للعالم أنه لن يكون رهينة صدام حسين في البيت الأبيض كما كان كارتر خلال أزمة الرهائن مع ايران... لقد غادر لحضور المسرحية.

في مداولاتها السرية لم تخف ادارة بوش غضبها من تدخل غورباتشوف. الاتحاد السوفييتي لم يرسل قوات عسكرية أو تجهيزات إلى منطقة الخليج، وثمة

دليل على أن عناصره العسكرية كانت تقدّم مساعدة سرية إلى العراق، بما في ذلك تقديم معلومات استطلاعية عبر الأقمار الصناعية. الأكثر من ذلك أن الاتحاد السوفييتي كان حليف العراق الرئيسي ولن يمنعه شيء من استئناف بيعه المعدات العسكرية واستعادة النفوذ الذي فقد بشكل حاسم في منطقة الشرق الأوسط.

البيت الأبيض كان يعرف أيضاً أن ايران كانت تلعب دوراً لا يقلّ عن دور الاتحاد السوفييتي في المبادرة، والحق أنها مبادرة سوفيتية - ايرانية مشتركة بوشر بالإعداد لها في ٤ شباط (فبراير) خلال زيارة نائب وزير الخارجية السوفييتي ألكساندر بيلونوغوف إلى طهران. المصالح المشتركة جمعت اثنين من خصوم واشنطن التقليديين في الأمس القريب: المخاوف من أن تقود الحرب إلى تقويض تام للعراق، وإلى سيادة حالة من انعدام التوازن في الخليج لعقود قادمة، وتثبيت حضور أميركي عسكري طويل الأجل في المنطقة، وانتصار الولايات المتحدة كقوة وحيدة ترسم معالم «نظام عالمي جديد» لحقبة ما بعد الحرب الذي تحدث عنه بوش بحماس.

هرع بوش إلى البيت الأبيض بعد أمسية متوترة غير مريحة في المسرح، ودخل على الفور إلى «غرفة تقدير الموقف» للتباحث مع فريق مستشاريه الدائم الحضور. لم يكن بوسعه قبول المقترحات العراقية - الايرانية - السوفييتية، ولكن ليس بوسعه أيضاً أن يرفضها على أساس أنها سخيفة. ليس بمقدوره أيضاً - الآن خصوصاً - أن يخاطر بمزيد من العلاقات المتدهورة مع موسكو أو مع قيادة غورباتشوف تحديداً التي ما يزال يأمل منها الخير رغم كل الدلائل.

كان الجنرال باول - القادم لتوه بمعلومات طازجة من البنتاغون - هو الذي وصل في منتصف الليل، حاملاً الحل السحري. في ساعة مبكرة من صبيحة الغد - الجمعة - سوف يؤكد الرئيس على المبادرة عبر طرح انذار جديد محدد للانسحاب العراقي من الكويت.

قال باول أن وقف اطلاق النار مع العراق سيكون كارثة للحلفاء: سيعطي صدام فرصة اعادةتجميع قواته وتموينها في وقت باتت فيه بحاجة حتى لماء الشرب. ينبغي عدم السماح لغورباتشوف بالسيطرة على النقاش بهذه الطريقة الانتهازية، والظهور على المسرح العالمي كصانع سلام بعد أن قامت الولايات المتحدة وحلفاؤها بالمهام الصعبة.

«ينبغي أن نسترد المبادرة من السوفييت ونقول: حسناً، نحن التحالف، ونحن الذين سنضع شروط انهاء هذه الحرب»، هكذا قال أحد كبار موظفي

الادارة. «ان هزيمة عسكرية صريحة أمر ضروري كي تصبح مزاعم صدام حول الانتصار أقل مصداقية».

ولقد أعلمني سيناتور وثيق الصلة أن «روسيا كانت تجلس على طرفي السياج في الآن ذاته، والمشكلة أنها كانت تحاول امتطاءه. كان ذلك أمراً غير مسموح به. كان يتوجب علينا في واقع الأمر أن نقول لصدام حسين. اذا أردت أن تفاوض فاخرج مرفوع اليدين».

تزايد سخط ـ لم يكن ممكناً التعبير عنه علناً ـ مردّه أن الاتحاد السوڤييتي، بتقديمه هذه المقترحات، كان ينقض ميثاق جنيف الذي ينص على أنه «من غير المسموح لأي من الدول الموقعة أن تضع نفسها أو غيرها في حلٍّ من الانتهاكات الفادحة للميثاق».

لا أحد بحاجة إلى التذكير بانتهاكات صدام لميثاق جنيف: قتل المدنيين، اساءة معاملة أسرى الحرب، الرهائن، الاستيلاء على الممتلكات، اطلاق صواريخ سكود على اسرائيل غير المشتركة في الحرب، وهكذا.

اقتنص بوش بضع ساعات من النوم، واستيقظ فجر الجمعة ليبدأ جولة جديدة من ممارسة يهواها كثيراً: الدبلوماسية المحمومة عبر أسلاك الهاتف الدولية.

تحدّث شخصياً مع جون ميجور، والرئيس المصري مبارك، والكندي بريان ملروني، والفرنسي ميتران ليخبرهم عن نواياه. البرقيات أرسلت والاتصالات الهاتفية أجريت مع ٢٠ طرف في التحالف. كان يتمشى جيئة وذهاباً أثناء حديثه مع ميتران، وكان نصّ انذاره الجديد لصدام حسين يطبع على الآلة الكاتبة. ومما له دلالة هنا أن بوش لم يعلم غورباتشوف مسبقاً بما ينوي قوله (رغم أنهما تحادثا على الهاتف طيلة ٩٠ دقيقة نهار الجمعة).

الرئيس الذي اكتسب ثقة جديدة، محصناً بوقائع القوة والحقائق العسكرية التي جلبها باول، خرج الآن إلى «حديقة الورود» لمواجهة وسائل الإعلام العالمية. كان يصرّ على أسنانه وهو يعلن: «بكل صراحة نحن نقدّر» المبادرة السوڤييتية. لكن «التحالف سيعطي صدام حسين فرصة حتى ظهيرة يوم السبت للقيام بما ينبغي عليه القيام به: أن يبدأ انسحابه الفوري وغير المشروط من الكويت»، هكذا أعلن جورج بوش الجديد بكل حزم.

ومضى إلى القول ان صدام بدأ بتطبيق «سياسة الأرض المحروقة» على الكويت، فأشعل النيران في حقول النفط أو دمّرها، فضلاً عن تخريبه لخزانات النفط ومحطات التصدير. كان ذلك أداءً بوشياً غير عادي... مشدوداً ومباشراً

بقدر ما ينطوي على تفادي الانجرار إلى ملاحظات عشوائية متناقضة لا تؤدي سوى إلى تعقيد الموقف وخلط الحقائق. أعيدت الكرة الآن بكل صرامة إلى ملعب صدام حسين وميخائيل غورباتشوف.

أعقب ذلك يوم مشهود حافل بالدراما الدبلوماسية المتوترةوأجواء الترقب. في موسكو توصل فريق المفاوضات السوفييتي - العراقي إلى المزيد من التنازلات والتعديلات: وافق العراق على سحب جميع قواته من مدينة الكويت خلال أربعة أيام من وقف اطلاق النار، ومن البلد بأسره خلال ٢١ يوماً.

لكن ادارة بوش أخذت تشتّم روائح الظفر، ولهذا رفضت كل ذلك، لا بل زادت في مطالبها وضيقت الخناق على صدام. ينبغي أن يخرج العراق من الكويت خلال أسبوع، ومن المدينة خلال يومين، وينبغي أن يطلق سراح جميع أسرى الحرب والرعايا الدوليين المحتجزين رغماً عنهم، ويسلّم جثث عناصر التحالف في الفترة ذاتها. يتوجب على العراق أيضاً ازالة جميع المتفجرات والعبوات الناسفة بما فيها تلك الموضوعة في المنشآت النفطية الكويتية،ويكشف مواقع الألغام البريّة والبحرية.

ولقد كان أحد المسؤولين في وزارة الخارجية صريحاً حول كيفية اكتساب الأهداف الأميركية زخماً خاصاً بها، مستقلاً تماماً عن قرارات الأمم المتحدة. وأوضح أن الهدف الأميركي لا يقتصر الآن على اخراج العراق من الكويت كما أوضح مسؤولو الادارة مراراً وتكراراً. احدى اهدافنا الآن هو «إذلاله بحيث لا يمتلك المقدرة على ادعاءأي نصر من هذا الصراع».

باختصار: النصرلم يعد كافياً: ينبغي أن يركع صدّام أمام بوش في سياق مواجهة أكسبها الرئيس الأميركي طابعاً شخصياً بعيد المدى خلال الـ٢٠٥ أيام من عمر الأزمة.

ببلوغ هذا الطريق المسدود أصبحت مخاطر أزمة الخليج أشدّ عمقاً وتشابكاً. تلقى بوش تأكيدات قاطعة من قادته العسكريين أن الحرب البريّة ستكون الآن أقلّ إيلاماً نسبياً لقوات الولايات المتحدة والحلفاء، ولهذا فقد اتخذ قرار منازلة صدام حسين وعدم السماح له ببارقة كرامة واحدة في خروجه من الكويت.

صحيفة «واشنطن بوست» كتبت تقول: «انه قرار خطير حافل بالمزالق والمخاطر. صوابه لا يمكن أن يُرى سوى بعد حقيقة النصر (اذا كان هنالك نصر) وحقيقة الكلفة. ما من أحد يستطيع التكهن الآن».

صبيحة الأمس غادر طارق عزيز العاصمة السوفيتية على متن طائرة تابعة

لشـركـة الخطوط السـوفـيـتيـة (ايروفلوت)، دونما اتفـاق مع الولايات المتـحـدة وحلفائها أو مع الأمم المتحدة، ولكن باتفاق تام مع السوفييت. خيّمت على سماء الكويت سحابة داكنة سوداء من ١٧٩ بئراً مشتعلة، في حين سقط على العراق والكويت ما وزنه ١٦٠ مليون باوند من المواد عالية الانفجار.

وفي أجواء أقرب إلى الاثارة السينمائية، هبط على واشنطن صمت ثقيل مزعج حين حلّت ساعة الظهيرة، ثم انقضت. ولقد اتخذ هنا، في واشنطن، القرار الأكثر خطورة في تاريخ الأزمة طيلة ستة أشهر: لقد كان جورج بوش مصمماً على النيل من صاحبه، وليكن ما يكون!

The Observer
February 24, 1991

أزمة الخليج

■ جورج و. بول

(١)

مع نهاية الحرب الباردة واندلاع أزمة الخليج، بمقدور الولايات المتحدة الآن أن تختبر صلاحية مفهوم ولسون حول الأمن الجماعي، ذلك الاختبار الذي منعه الڤيتو السوڤييتي الآلي في مجلس الأمن الدولي طيلة أربعين عاماً.

في الثاني من آب (أغسطس)، يوم الغزو العراقي للكويت، بدأت الادارة الامريكية ذلك الاختبار برعايتها لقرار من مجلس الأمن يعتبر الغزو «انتهاكاً للقانون والأمن الدوليين». ذلك الإقرار كان يلبّي الشرط الشكلي المسبق لاحياء آلة انتداب القوة لتطبيق القرارات، أو الفصل الخامس من ميثاق الأمم المتحدة.

ثمّ، ودونما انتظار لدخول تلك الآلة حيّز التنفيذ، استجابت الادارة لطلب سعودي عاجل فنشرت قوات عسكرية وفقاً للمادة ٥١ من الميثاق، والتي تحفظ للدول حق اتخاذ «اجراءات فردية أو جماعية للدفاع عن النفس وذلك ريثما يتمكن مجلس الأمن من اتخاذ الاجراءات الضرورية للحفاظ على السلام والأمن الدوليين».

لقد تمسكت الادارة بهذا الوضع القانوني لأمد وجيز، إذ سرعان ما وجدت انها تستطيع ادراج دعم الدول الأخرى باتخاذ ترتيبات محسوبة خطوة خطوة حسب ما تنص عليه المواد ٣٩ ـ ٤٢ من الميثاق. وحين اعادت تحديد قواعدها الاجرائية للانتقال الى الفعل، انضمت الادارة الى اعضاء آخرين في مجلس الأمن للحصول على قرارات تبطل ضمّ الكويت وتطالب باطلاق سراح الرعايا الأجانب، وتدعو الى العقوبات الاقتصادية كاجراء ينفذ بالقوة، واذا ثبت ان تلك العقوبات غير فعّالة فمن حق الدول الأعضاء استخدام القوة العسكرية المحدودة.

ورغم ان نشاطات الادارة حتى هذه النقطة كانت بمنأى عن اللوم، فإنها في تقديري أقدمت على اتخاذ خطوتين تكتيكيتين خاطئتين. لقد توجب عليها، في نهوضها لنجدة المملكة العربية السعودية، أن تتحاشى إعطاء الانطباع بأن

المسألة مشروع أمريكي في الجوهر. ويفترض المرء أن الرئيس تولّته خشية جدية من قيام العراق بالتحرك صوب حقول النفط السعودية، لدرجة اطلاق يد رئاسة الاركان العسكرية. ولقد فعلوا ما يتوقعه المرء منهم دائماً.

لقد أدركت رئاسة الأركان انها ستكون أكثر عرضة للملامة إذا نشرت قوات غير كافية من أن تنشر الكثير المفرط منها، ولهذا فقد أظهرت سرعة استعراضية مذهلة فنشرت في غضون ثلاثة أسابيع قوات ومعدّات تعادل ما استغرقت أمريكا ثلاثة شهور لنشره في كوريا الجنوبية.

ولقد رأى كثير من المراقبين خارج الحكومة أن هذه الأرمادا الضخمة مبالغ فيها، وقالوا انه بمقدور أمريكا ان توقف اتساع رقعة العدوان العراقي بالابقاء على الحصار البحري ونشر حاملتي طائرات على الأقل بغرض القصف المركّز، وقصر الانتشار البري في السعودية على فوج مدرّع واحد يتألف من قيادة وخمس كتائب، أو ما يزيد قليلاً عن خمسة آلاف جندي (بما فيه العناصر الداعمة).

هذه التشكيلة العسكرية (الجوية والبحرية والأرضية) ستكون كافية لتقاوم أية مغامرة عراقية داخل حقول النفط السعودية، سواء بقدرتها على تدمير الدبابات أو بوظيفتها كنقطة انذار قادرة - عند الضرورة - على استدعاء الانتشار الضخم الذي تحقق بشكل متسرع.

غير أن تنافس مختلف صنوف الخدمة للقيام بدور ما في الانتشار أدّى الى تشكيل زخم خاص لم تعد السيطرة عليه ممكنة. وكانت النتيجة ان الانتشار في مراحله الأولى انطوى على معدات لأعمال هجومية ضد العراق والكويت أكثر بكثير من تلك الخاصة بالمهامات الدفاعية. ولقد أظهر الاجراء مرونة لوجستية عالية إذا نظر اليه كتدريب على الانتشار السريع، بيد أن تدفق هذا العدد الضخم من الأفراد كان مكلفاً كثيراً، ليس بالمعنى المالي فقط. لقد قطع الحياة المدنية الامريكية، وجعل فترة انتظار تأثير العقوبات الاقتصادية صعبة للغاية، كما قيّد المرونة الدبلوماسية وألهب العداء السياسي في منطقة من الشرق الأوسط بالغة الحساسية ازاء التوترات التاريخية والإثنية والدينية.

كان خطأ الادارة الأول هو الإفراط في نشر القوات، أما الخطأ الثاني فكان الفشل في اتباع المنحى الذي حدده ميثاق الأمم المتحدة بموجب المادة ٤٣ التي تكفل تشكيل قوة حقيقية تابعة للأمم المتحدة وتحت القيادة العسكرية المباشرة لعناصرها المتخصصة.

لقد كان استخدام اجراءات الميثاق في تشكيل تلك القوة قميناً بتجنب أمريكا انفاق رصيدها السياسي في مغازلة دولة بعد أخرى لتأمين التحالف الهش التالي. وكان سيوفر على الادارة مهانة تسوّل الدول الأخرى لتمويل نفقات ما بدا وكأنه مبادرة امريكية صرفة. حسب المادة ٤٣، مدعومة بالمادة ٢٥، يتوجب قانونياً على كل دولة عضو الاستجابة لدعوة مجلس الأمن الى تزويده بقوات ومعدات عسكرية، حيث يقوم المجلس بجمع النفقات المالية وفق حصص متفق عليها. وبدلاً من أن تظهر امريكا بمظهر الراهب المتسوّل الباحث عن مساعدة مالية وعسكرية، كان مجلس الأمن سيقوم بذلك باسم الامم المتحدة.

والمفارقة أن قوة الأمم المتحدة كانت ستؤمن هيكلية قيادة أكثر فاعلية. ان قيادة أركان مشتركة، مسؤولة اسمياً على الأقل أمام اللجنة العسكرية التابعة للأمم المتحدة، كانت ستتضمن جنرالات من أمريكا والاتحاد السوفياتي وأوروبا الغربية والسعودية ومصر، وربما المغرب أيضاً. وعلى العكس من الخليط الراهن من القوات الدولية، كانت تلك الصيغة ستؤمّن عملية ممركزة. وباعتبارها المساهم الأكبر في الجهد العام، بما لا يتناسب مع سواها، كان بحكم المؤكد ان تتمكن الادارة من انتداب جنرال امريكي لممارسة القيادة العامة كما فعل الجنرال أيزنهاور في «عملية السيد الأعلى Operation Overlord»، في الوقت الذي تترك فيه مسؤوليات محددة عن تنفيذ بعض المهمات الموكلة إلى قادة من جنسيات أخرى. المثال الذي كان يتوجب الاحتذاء به هو غزو كوريا الجنوبية عام ١٩٥٠ حيث نصّ القرار (المتخذ في الجمعية العمومية وليس في مجلس الأمن) على دعوة الأعضاء الى الإسهام «بقوات عسكرية ومساعدات أخرى» في «قيادة موحدة باشراف الولايات المتحدة» مخوّلاً استخدام علم الأمم المتحدة الأزرق والأبيض.

في أزمة الخليج الراهنة كان وجود علم الأمم المتحدة سيؤمن التخفيف من مصداقية الانتقادات اللاذعة للولايات المتحدة في الوقت الذي يتيح فيه امكانية قيادة مركزية مخوّلة. ثمة الآن ما يقارب ٢٠٠,٠٠٠ جندي من أحد عشر بلداً، بينما باتت مئة سفينة في متناول اليد، والسماء تزدحم بمقدار مختلط من الطائرات التي أسهمت بها الولايات المتحدة، السعودية، فرنسا، ايطاليا، كندا، وبريطانيا. ولأن معظم المعدات التي يستخدمها السوريون من أصل سوفياتي فهي عسيرة على التمييز عن المعدات العراقية، ويتوجب الحذر بالتالي من وقوع خسائر بفعل «النيران الصديقة».

الترتيبات المتخذة حالياً للقيادة والسيطرة أشبه بدوامة محيّرة. انها تدعو قائد الجيش السعودي لتنسيق المناورات بين القوات العربية في البلاد. ووفق اتفاقية توصّل اليها الملك فهد مع وزير الخارجية بيكر في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) فإن هجوماً سرّياً يشن من الأراضي السعودية ضد القوات العراقية أو ضد العراق يستوجب اقراراً مشتركاً من قبل الرئيس بوش والملك فهد. ولكن حين يعطي الزعيمان التخويل ببدء الهجوم، فإن القوات الامريكية تصبح مطلقة اليد في العمل تحت قيادتها الخاصة دونما تدخل من العسكريين السعوديين.

من جهة أخرى، إذا شنّ العراق هجوماً على السعودية واقتضى ذلك تنفيذ عملية دفاعية، فإن هيكلية القيادة المشتركة التي أنشئت عشية بدء انزال القوات الامريكية ستبقى سارية المفعول. ذلك يعني ان القائد الأمريكي سوف يتشاور مع نظيره السعودي حول «القرارات التكتيكية المشتركة».

القوات البريطانية الجوية والبرية ستنضوي تحت القيادة التكتيكية الامريكية، أما الوحدات الفرنسية فستبقى مستقلة. الوحدات البحرية الفرنسية والأطلسية تضبط تحركاتها مجموعة تنسيق عاملة في اطار «اتحاد اوروبا الغربية» بينما تظل الوحدات الامريكية بأمرة شبكة قيادتها الخاصة. ورغم بذل بعض الجهد لتحسين الترتيبات بما يكفل وضع جميع الوحدات تحت السيطرة الأمريكية الفعلية، فإنها ظلت على الأغلب مجرد تحايلات تعاني من فقدان الإطار الشرعي.

ولو حدث أن اندلعت حرب بنيران شاملة، فمن المرجح أن يسفر هذا الخليط في تركيب القيادة عن زلآت كبرى تؤدي الى قيام وحدات التحالف باطلاق النيران بعضها على البعض الآخر، وأن يقصف الطيران وحدات صديقة. ان مشكلة التعريف بالهوية لا تفيد في شيء ما دامت وحدات الطيران ذات أصل أمريكي وبريطاني وفرنسي وسوفياتي. في مثل تلك الظروف سرعان ما تنهار القيادة والسيطرة عند أول اشتباك فعلي.

الوضوح الامريكي الملحّ هو مشكلة أخرى، فمعظم شعوب أوروبا والشرق الأوسط باتت الآن تعتبر بحكم البدهي أن الولايات المتحدة وضعت على عاتقها حماية السعودية، وأنه مشروعها الخاص، الأمر الذي يفسّره معظم العرب وكأنه يعني فرض «النظام العالمي الجديد» على المنطقة بمواصفات تشكيل محميّات أمريكية.

أكلاف وضع أحادي الجنسية

ما هي النفقات الجزائية التي ستدفعها الولايات المتحدة لقاء قيامها بدور أحادي الجنسية (أمريكا فقط)؟ يميل الكثير من العرب الى الغمز من قناة أمريكا في بحثها عن أغراضها الامبريالية الخاصة بغية بسط سيطرتها الفعلية على موارد الطاقة في الشرق الأوسط. انهم يروننا نقاتل دفاعاً عن حفنة دول شاء لها الحظ ان ترقد فوق بركة واسعة من الثروات النفطية، بصرف النظر عن كون النخب الحاكمة في تلك البلدان تبعثر تلك الثروات بطريقة استهلاكية فضائحية، وتودعه في مصارف سويسرية تحت حسابات سرّية، أو تستثمر ما يزيد على ٢٠٠ مليار دولار خارج الشرق الأوسط - في الولايات المتحدة واليابان وأوروبا - في حين لا تكاد تبذل أي جهد لتحسين السواد الأعظم من الأخوة العرب.

هذا الارتياب يترسخ أكثر عند معرفة أن الزيادة التي طرأت على أسعار النفط أضافت الى أرصدة السعودية والامارات الأخرى ما يتراوح بين ٦ مليار دولار شهرياً، أو ٣٠ مليار دولار في العام بالاضافة الى ما كانت تتلقاه من قبل. لماذا لا يكون متوقعاً منها أن توزع قسطاً من هذه الثروة على الأشقاء العرب في البلدان التي أفقرتها الأزمة، مثل الأردن ومصر؟

بالاضافة الى ذلك يقود السلوك الامريكي العديد من العرب الى الشك في أن امريكا تسعى الى وقف التقدم السياسي في المنطقة. ورغم حديثها المتواصل عن الديمقراطية، فإن امريكا تركّز قواتها للدفاع عن حفنة من الأنظمة الاوتوريتارية والمشيخات الملكية المطلقة. لا غرابة والحال هذا ان تبدو امريكا في أعين العديد من العرب وكأنها تمارس اللعبة الامبريالية القديمة في الدفاع عن أنظمة السلالات بهدف كبح التطورات السياسية التي قد تفضي الى تحدّي ما يعتبرونه مطامح أمريكا في النفوذ أو بسط السيطرة.

أمّا أن تكون بعض الأنظمة الوراثية، مثل الكويت، أكثر تسامحاً وأقلّ وحشية من الأنظمة البعثية أو سواها ممن تدّعي التقدم، فهو أمر لا يغيّر تصوّر العرب الذين يبغضون الحكام التقليديين المنعمين في دول الخليج. اليوم يوظف صدام حسين مشاعر بغض أمريكا، ويستقبل اعجاب الشعوب العربية رغم أنف حاكميها.

والعرب شعب مسكون بتاريخه العاصف، ولهذا فان العديد من العرب يرى في سياساتنا الراهنة مثالاً جديداً على مشركين مسيحيين أو يهود قادمين من الغرب لشن حرب ضد الاسلام. ورغم ان صدام حسين مارس السلطة كزعيم

علماني لدولة بوليسية، فإنه يحاول بنجاح إيقاظ المشاعر الدينية الدفينة في ذلك المفهوم.

ومن المحتمل في هذا الصدد أن تحدث بعض الاحتكاكات بين القوات الامريكية والسعوديين حول الثقافة والأعراف. وليس من الضروري أن يكون المرء متشائماً مسبقاً حتى يتوقع التأثير الذي ستتركه في قواتنا المنتشرة تواريخ مثل صعوبات العواصف الرملية في كانون الثاني (يناير)، وصيام شهر رمضان في آذار (مارس)، والحج الى مكة في حزيران (يونيو)، وحرمة شهر محرّم في تموز (يوليو). في جميع أرجاء الشرق الأوسط يكنّ البشر مشاعر عداء صريح لوجود جيش الكفر في بلد يعتبر نفسه حامي العتبات المقدسة.

أخيراً فإن الجانب الأكثر تدميراً للموقع الامريكي يتمثل في النفاق والازدواجية والتمييز التي يرى العرب أن الولايات المتحدة تمارسها مع اسرائيل، فضلاً عن سياسات التفضيل والانحياز لذلك البلد على حساب الدول الأخرى في الشرق الأوسط.

ورغم أن الادارة الامريكية رفضت باستمرار وجود أي توازن بين دخول العراق الى الكويت واحتلال اسرائيل واستمرار استيعابها ليس للضفة الغربية وغزّة فقط، بل للقدس الشرقية أيضاً. ولقد دافعت الادارات الامريكية المتعاقبة عن موقفها بالقول ان احتلال اسرائيل لأراض تضمّ مليوناً ونصف المليون من الفلسطينيين لم يكن عملاً عدوانياً بل عملية دفاعية خلال حرب ١٩٦٧ حين هوجمت اسرائيل عن سابق قصد من قبل الجيوش العربية. غير أن الولايات المتحدة دمّرت موقعها ذاته بالقول انها تدعم قرارات الأمم المتحدة المطالبة بانسحاب اسرائيل، وأنها تريد التوصل الى تسوية عن طريق المفاوضات، وذلك في الوقت الذي تفشل فيه في ممارسة أي ضغط جدّي لحمل اسرائيل على قبول أي من الهدفين.

الحصار

انني الآن مواطن عادي، ولم يعد في وسعي الاطلاع على تقديرات المخابرات الامريكية(*). لا أستطيع بالتالي الحكم على تأكيدات الادارة المتكررة بأن الحصار يؤتي ثماره على نحو ملموس. التقارير الصحفية توحي بوجود فائض كاف من الأغذية، في حين أن نقص قطع الغيار الحالي يمكن التحايل عليه باستخدام قطع مماثلة من آلات ومعدات أخرى. أشك أيضاً في اننا نستطيع الإبقاء على الحصار بالمدى الزمني والنطاق الذي نشتهيه.

ان جهودنا لقطع استيراد الأغذية للعراق والكويت يتنافى مع سمعتنا كشعب متحضّر. ان ممارساتنا تذكّر بغضبة مزاجية تستحوذ على بارون اقطاعي يحاصر قلعة عن طريق تجويع حاميتها. ورغم ان جورج بوش أوضح بجلاء - في خطابه أمام الأمم المتحدة بتاريخ الأول من تشرين الأول (اكتوبر) - أن الولايات المتحدة سوف تسمح بشحنات الأغذية طالما بقي توزيعها خاضعاً لإشراف منظمات مثل الصليب الأحمر، فالمعلومات تذكر أن صدام حسين ما يزال يرفض السماح للجنة من الأمم المتحدة بضبط تلك الشحنات. ويبدو من المشكوك فيه ان يحلّ هذا المأزق المغلق دون أن نضطر الى إدخال تعديل جوهري على سياساتنا القومية.

تلك، بالطبع، ليست المشكلة الوحيدة التي يثيرها الحصار الغذائي. ورغم التأكيدات الراهنة، من المتوقع أن يلجأ صدام حسين الى مساواة الرهائن ببقية أفراد شعبه من حيث الحصص الغذائية. في الآن ذاته نقوم بالسماح بقسط ضئيل فقط من شحنات الأغذية التي ترسلها بعض بلدان العالم الثالث الى رعاياها العاملين في العراق، مما يزيد في حقدهم علينا واتهامنا بانعدام الانسانية، ويرفع المسؤولية عن صدّام حسين إذا لم نقل أنه يقوّي رصيده.

ويروي بعض الرهائن الذين أطلق سراحهم أن الأمريكيين عوملوا بطرق جعلتهم على حافة الانهيار العصبي، ولو ظهر هؤلاء على شاشات التلفزيون وهم يتضورون جوعاً نتيجة حصارنا ذاته، فللمرء أن يتوقع ما تشاء له المخيلة من ردود الأفعال. قد يطالب أصدقاء الرهائن وأقرباؤهم بتغيير فوري مباشر في ستراتيجية الحصار؛ اما القسم الأكبر (والذين ليسوا أقوى سياسياً بالضرورة) فقد يترجمون مشاعر الأسى والغضب والإحباط الى مطالبة بهجمات فورية ووحشية على العراق رغم ان ذلك قد يؤدي الى تعريض الرهائن لأخطار فادحة.

اللجوء الى الفعل العسكري الهجومي

ما هي فرص فشل الحظر الاقتصادي، وأي تأثير سيكون له على وحدة التحالف؟

تصعب الإجابة على السؤال الأول. الاقتصاديون الذين درسوا تجربة العالم المتكررة في فرض الحصار الاقتصادي يستطيعون بالكاد قياس الزمن الذي يستغرقه حصار جوي شديد لخفض مستوى الاستهلاك في بلد محاصر. ولكن ما من خبير يستطيع التكهن بالدرجة التي يتوجب أن ينخفض اليها ذلك الاقتصاد قبل أن تجبر المشاق الناتجة النظام المعني على اتخاذ قرار سياسي مكلف، فثمة

الكثير من العوامل المتغيرة والعناصر الذاتية الواجب وضعها في الاعتبار. غير أن التجربة أوضحت أيضاً ضرورة عدم دفع العدو الى جدار مغلق، إلا إذا كان المرء مستعداً لاستخدام القوة الضرورية لتدميره.

حصارنا لا يمكن أن يحقق النتائج المرجوّة سياسياً، إلا إذا ترافق مع دبلوماسية تمنح صدّام حسين فرصة عكس مجرى الأحداث دون فقدان ماء الوجه كليّاً. خلال ذلك يجب ان نتوقع الضعف التدريجي للحصار. فرداً فرداً، قد ينخرط أعضاء التحالف المنوّع المعادي للعراق في عقد صفقات خاصة مع العراق لشراء نفطه، بينما ستتيح صفقات فاسدة أخرى (كما هي العادة في الشرق الأوسط) امكانية ترتيب أقنية تصدير سرّية وملتوية بحيث يصعب ضبطها.

ثمة دول عديدة أرسلت قوات الى الخليج لكنها أوضحت - بهذه الدرجة أو تلك - انها لن تشارك في عمل عسكري فعلي إلى جانب القوات الامريكية ضد بلد عربي. سرعة تفكك التحالف أمر يعتمد بدرجة كبيرة على قناعة أطراف التحالف بأن سلوك العراق يشكل استفزازاً كافياً لتسويغ التدخل العسكري، أو شكّهم في أن أمريكا قد اخترعت مبرّراً للهجوم بدافع نفاذ الصبر.

البواعث المختلفة للدول الأعضاء في التحالف تحتاج الى تدقيق أوثق مما أظهرته منذ البداية:

المملكة العربية السعودية

بواعث المملكة العربية السعودية واضحة جلية. لقد اهتزّت ركائز الأسرة الحاكمة واستولى عليها الرعب من قيام العراق بالاستيلاء على آبارها النفطية أو تدميرها اسوة ببقية الثروات، واسقاط حكمها. أما إمارات الخليج وسلطنة عمان فلم يكن بوسعها سوى اللحاق آلياً بالأسرة السعودية.

وعند قدومها للدفاع عن المملكة العربية السعودية كرّرت ادارة بوش أنه في حال فشل الحصار في ضمان النتيجة السياسية المطلوبة فإن القوات الامريكية ستشن عمليات هجومية، حتى إذا تسبّب ذلك في الإضرار الشديد بالتحالف.

إذا لم تحصل الولايات المتحدة على دعم مفتوح وتام من أطراف التحالف - وهو ما يبدو صعباً الآن - فمن المحتمل ان تواجه موقفاً مغلقاً لا انتصار فيه إذا ما شنّت الهجوم. أما إذا انتصرت بشكل حاسم (وهو أمر مشكوك به) فإن معظم الشعوب العربية ستظهر مشاعر الصدمة والاستنكار لمرأى قوّة غربية ضخمة تهاجم بوحشية بلداً عربياً، وتستخدم ثروتها واسلحتها المتطورة للفتك بآلاف العرب.

ولكن إذا حدث أن الولايات المتحدة فشلت في تحقيق نصر حاسم صريح، وتورطت في صراع طويل معقد فإن سمعتنا ستنحدر، وسنتلقى ما يكفي من مشاعر الشماتة والاتهام بالعجز. لا يمكن لنا أن نكون متأكدين حتى من الدعم السعودي، فثمة دليل في الواقع على أن عدداً من أفراد الأسرة الحاكمة يعيدون النظر في حكمة إقدامهم على دعوة قوّة كبرى مشتركة للتدخل في شؤونهم. هنالك فجوة شاسعة بين جيلين: الأمراء السعوديون الشيوخ الذين يحتفظون بشكوكهم التقليدية من التدخل الغربي، والأمراء الأصغر الذين يرحبون بمنظورات تدمير العراق.

في نهاية الأمر - كما يلمّح بعض القادة السعوديين - تُختصر المسألة في أنهم طلبوا تدخلنا لحمايتهم من العراقيين... فقط. إذا أقدمنا على شنّ هجوم فقد ينكروا علينا الحق في القيام بمثل تلك العمليات من أراضيهم. ان انتدابنا المحدود يتصل بحماية الدولة السعودية، وليس قتلَ العرب.

مصر

دوافع مصر مختلفة. ولعلّ العامل الحاسم هنا يتمثل في وضع اقتصادي يائس، زاد في سوئه تصرّف صدام الذي أفقد مصر تدفق مداخيل المواطنين المصريين العاملين في حقول النفط سواء في العراق أو الكويت. ولا يجرؤ نظام مبارك على المخاطرة بالمعونات السنوية الامريكية، أو بوعد أمريكي بمحو ٧ مليارات دولار امريكي من الديون المستحقة، لهذا لا بد له من التلويح بالعلم حين تتخذ امريكا خطوة قوية.

وحسني مبارك يحب أيضاً أن تستعيد مصر دورها التقليدي في العالم العربي، وهو يرى في صدام حسين منافساً. ولقد أحرجه الأخير حين أكّد له أن العراق لن يجتاح الكويت، ثم فعل ذلك في اليوم التالي دون أن يرفّ له جفن.

لكنني بغض النظر عن هذه العوامل أشكّ في أننا يمكن ان نتوقع الكثير من الـ ٢٠,٠٠٠ عسكري مصري(*) يرابطون الآن من أصل قوة موعودة ستصل في نهاية تشرين الأول (اكتوبر). ويشير بعض المسؤولين المصريين الى احتمال عدم اشتراك مصر في حال تطوّر الموقف الى حرب شاملة.

تركيا

موقف تركيا أكثر تعقيداً. الرئيس أوزال متلهّف على كسب اعتراف الغرب ببلاده، فهو يطمح كثيراً الى قبول طلب تركيا الانضمام الى المجموعة الأوروبية. انه يحب النظر الى بلاده كجسر بين الغرب والشرق الأوسط،

والأكلاف التي دفعتها تركيا في مشاركتها بالحصار تبدو ثمناً معقولاً لمتابعة ذلك الطموح، خصوصاً وأن أوزال يعتمد على قيام دول الخليج بتعويض تركيا عن أضرارها. لكن هجوماً تقوده الولايات المتحدة سوف تكون له آثاره الصاعقة على حماس تركيا الراهن.

سوريا

موقف سوريا يعكس الكراهية العمياء التي يكنها حافظ الأسد لصدّام حسين، حيث يرى فيه المنافس الأكبر على زعامة العرب. لقد ساندت سوريا ايران في حربها مع العراق، وهي تعتمد سياسة النزاع المطلق مع العراقيين في سياق العقيدة البعثية. وتفاعلات حرب الخليج أعطت حافظ الأسد فرصة لا تعوّض لبسط نفوذ بلا منازع على لبنان تمهيداً لتحقيق «سوريا الكبرى».

من الواضح ان الأسد سيكون مستعداً بكل قوة لدعم الجهود الامريكية لدحر واسقاط صدام حسين. بيد أن توقف الشحنات الكبيرة من الأسلحة السوفياتية ستبعد احتمال زجّ قواته في حرب شاملة.

المغرب

أرسل المغرب فوجاً صغيراً يمكن أن يزداد حجمه الى سبعة آلاف مقاتل، ولكن يبدو واضحاً أن الملك الحسن يعتبر هذا الفوج وحدة دفاعية محضة ولن يقبل بانخراطه في أية ضربة هجومية ضد العراق.

الأردن

لقد تعرّض الأردن الى أذى كبير وعومل باجحاف بالغ أكثر من أي بلد عربي آخر، باستثناء الكويت ذاتها. الامريكيون كانوا ينظرون الى الملك حسين كصديق وكقوة اعتدال في الشرق الأوسط، ولقد شجعوا جهوده لتحويل نظام ملكي مطلق الى نظام ملكي دستوري. بيد أن القليل من الامريكيين - ويا للعار - أظهروا تعاطفاً مع مشكلات بلده الخانقة أو تفهّموا طبيعتها على الأقل.

ليس الأردن شريك العراق التجاري الرئيسي فقط، بل انه ضحية موقعه الجغرافي المأساوي. انه يقع بين العدو - اسرائيل - غرباً، والعراق شرقاً، وسوريا التي تواصل تهديده من الشمال. ومثل مصر وسواها من بلدان الشرق الأوسط، اعتمد الأردن طيلة سنين على مساعدات الدول الغنية المنتجة للنفط. وبين أعوام ١٩٧٨ و١٩٨٨ قدّمت الدول العربية مليارات الدولارات الى الأردن، بيد أن قطر وأبوظبي توقفتا عن الدفع اعتباراً من مطلع ١٩٨٣، وسددت الجزائر قسطاً واحداً، ولم تدفع ليبيا أي قسط على الإطلاق. ووسط يأسه من أوضاع بلاده،

ناشد الملك حسين أمير الكويت مساعدة الاردن في التغلب على عجز بلاده البالغ ستة مليارات دولار أمريكي، ذكرت التقارير أن الأمير صدّه بجلافة قائلاً: «الذنب ذنبك. لست دولة خليجية، ولست دولة منتجة للنفط، لماذا يكون عندك هذه الخطط التنموية الطموحة وهذه الجامعات والمشاريع؟ ليس في وسعك تأمين نفقاتها».

والأردن في وضع لا يحسد عليه لأنه اعتمد كثيراً على المساعدات العربية وعلى تحويلات مواطنيه العاملين في العراق والكويت. اليوم انقلب السعوديون ضد الملك حسين لأنه رفض الانضمام الى التحالف، وتوقفوا عن تزويد الأردن بالنفط. وهكذا، وبدلاً من استمرار تدفق التحويلات الخارجية والمساعدات، ابتلي الأردن باعداد هائلة من ابناء العالم الثالث كانوا يعملون في العراق والكويت واحتشدوا في الأردن، فخلقوا صعوبات بالغة للحكومة والحياة اليومية في الأردن.

وإذا كانت هنالك حالة تلزم الدول الغنية بالتعاطف معها وتفهم مصاعبها ومساعدتها، فهي حالة الأردن دون أدنى شك.

(٢)

دول عربية عديدة منخرطة في تحالفنا الهش سوف تجد عذراً للانسحاب منه عند حدوث حرب شاملة ضد العراق. ولسوف تعزو جماهيرها ما نقوم به في الخليج الى الامبريالية الغربية المقيتة.

ومن المحتمل ان تلتحق بهذه الدول العربية أم أوروبية أخرى بالاضافة الى اليابان، على قاعدة أنها هي أيضاً لا ترغب في التورط بصراع عسكري، خصوصاً إذا ساد الشعور بأن الولايات لمتحدة أخذت المبادرة قبل استنفاذ جميع الفرص الدبلوماسية.

ذلك قد يكون الرأي السوفياتي. الانضمام الى الحصار كان قراراً مؤلماً بالنسبة لغورباتشوف. ومن هنا فمن غير المحتمل أن يشارك السوفيات بقوات عسكرية. لقد شددوا حتى الآن على ضرورة الحل الدبلوماسي، وبذلوا في سبيل ذلك جهوداً مضنية.

ان تورّط القوات السوفياتية الفعلي سوف يعيد ترديد الأصداء المزعجة لتجربة أفغانستان، في الوقت الذي يضع فيه البلاد ضد بلد احتل موقع الحليف على الدوام. ولقد أوضح السوفيات، رغم ضبابية موقفهم بالنسبة للمسائل الحاسمة، انهم لا يستطيعون زجّ قواتهم في مواجهة عسكرية مباشرة دون

تفويض وتخويل من مؤسساتهم الدستورية. تلك واحدة من أفضل ذرائعهم للتملّص.

رئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر مضت بعيداً في دعمها للمبادرة الامريكية، ربما إحساساً منها بالامتنان ازاء مساعدتنا لبريطانيا في أزمة جزر الفولكلاند. لكنها، على العكس من حربها ضد الارجنتين، لا تملك تخويلاً صريحاً من حزب «العمال» المعارض للقيام بالعمل العسكري(*).

الرئيس الفرنسي اتخذ قراراً صعباً حين انضم الى امريكا في الحصار، ضمن خلفية السياسة الفرنسية العسكرية المتميزة بالاستقلال الصارم والتشكيك بأمريكا. ارسلت فرنسا ١٤,٠٠٠ جندي الى المنطقة، وهو أكبر انتشار لقواتها منذ حرب الجزائر. غير أن ميتران أوضح رأيه في ضرورة أن تستنفذ أمريكا جميع الامكانات الدبلوماسية، وهذا ما لم نفعله حتى الآن حسب اعتقاده.

الحكومة الايطالية تبدو منقسمة على نفسها حول احتمالات شن هجوم عسكري. رئيس الوزراء أندريوتي معروف بميله الى حلّ دبلوماسي يتيح لصدام حسين مخرجاً مقبولاً، أما وزير الخارجية دي ميكيليس فيعتبر ان الحلّ العسكري بات شبه ضروري عملياً. ولا أحد يستطيع التكهن برد فعل ايطاليا حين تقرر أمريكا بدء العمل العسكري.

تردّد المانيا لا ينبع فقط من قيودها الدستورية (التي فرضها الحلفاء في نهاية الحرب العالمية الثانية) بل أيضاً من العبء الثقيل الذي تتحمله الآن في استيعاب المانيا الشرقية. حتى الآن اقتصرت مشاركتها في الحصار على اسهام مالي مقداره ٢,١ مليار دولار. أن يرتقي ذلك الى مستوى المشاركة العسكرية أمر ينطوي على سؤال سياسي صعب يتصل بشرعية ارسال قوات عسكرية خارج البلاد دون تفويض دستوري.

دستور اليابان لحقبة ما بعد الحرب يطرح بدوره عقبات داخلية جدّية، أمام المشاركة في عمل عسكري، أكثر مما هو عليه الحال بالنسبة لألمانيا. ونشر اليابان لقوات عسكرية في الشرق الأوسط اجراء ينذر بحدوث انشطار حاد في سياستها الداخلية، فضلاً عن اثارة مخاوف حقيقية لدى شعوب شرق آسيا التي تتذكر على نحو حيّ سلوك الجيش الياباني قبل نصف قرن.

من هذا الاستعراض أستطيع الاستنتاج بأن أية نقلة من الضغوط الاقتصادية للحصار الى العمل العسكري الهجومي سوف يكون كفيلاً بإبعاد عناصر هامة من تحالفنا الحساس. في الوقت ذاته يتوجب أن نتعامل مع أية أوهام تتوفر لدى

شركائنا في التحالف حول حقائق التدخل العسكري، وأن ننذرهم بعدم الانخراط في الافتراض المريح القائل باننا نستطيع بلوغ أهدافنا السياسية عن طريق الاكتفاء بالضربات الجوية المدمّرة ضد أهداف حساسة.

وخلال عملي كمدير لشعبة «التقدير الاحصائي للقصف الستراتيجي الامريكي» خلال وبعد الحرب العالمية الثانية(*)، تعلّمت درساً بليغاً مفاده أن مفهوم «الضربة الجراحية» مجرد وهم لا وجود له في الواقع. والحق أنه لو قيّض لطبيب محترف أن يتبنى مقاييس سلاح الجو، لتوجب أن يفقد المريض قلبه ودماغه فيما تظلّ الزائدة الدودية سليمة!

في أيلول أعفي الجنرال مايكل دوغان من منصبه كرئيس لأركان القوى الجوية الامريكية لأنه ذهب بعيداً في أحاديثه مع وسائل الإعلام حول خطط امريكا الحربية. قبل ذلك كان الجنرال دوغان قد قال بأن بؤرة القصف الجوي الامريكي «ستتركز على عمق مدينة بغداد ذاتها»، مدينة تضمّ ٤ ملايين نسمة منهم ١,٥ مليون لم يتجاوزوا سن الرابعة عشرة، ينبغي ان لا تتحمل الولايات المتحدة مسؤولية اندثار جزء جوهري من الأجيال العراقية الفتية.

ثمة كابح آخر يكبّل قدرتنا على حلّ الموقف عن طريق الضربات الجوية، وهو اعلان صدّام حسين عزمه على استخدام الرهائن كـ«دروع بشرية». ورغم قول الادارة بأنها لن تسمح لمصائر الرهائن بالتأثير على قراراتها التكتيكية، فإن غارة واحدة يقتل فيها بعض الرهائن جرّاء القصف ستكون كفيلة باثارة مشاعر السخط والرفض لدى الامريكيين وأصدقائهم.

ويتوجب على الولايات المحدة وأعضاء تحالفها أيضاً أن يدركوا حقيقة توزيع العراقيين لمنشآتهم على رقعة واسعة في جميع أنحاء البلاد، ولهذا لن يكون سهلاً تكرار نجاح الاسرائيليين عام ١٩٨١ في تدمير مفاعل أوزيراك. كذلك ينبغي ألا ينخدع أحد بتصريحات جنرالات سلاحنا الجوي، بحيث يجري التقليل من فاعلية الدفاعات العراقية الأرضية والجوية ذات المنشأ السوفياتي. والصحافة تروي الآن أن العراقيين استولوا على ما يقارب ١٥٠ صاروخاً مضاداً للطائرات من طراز هوك، فضلاً عن أجهزة رادار دقيقة ينهمكون الآن في التدرب عليها. ويشاء سوء الحظ أن تكون معظم الطائرات الامريكية العاملة في المنطقة غير مزودة بأنظمة مضادة لنظام صواريخ هوك.

درس آخر تعلمته في شعبة «التقدير الاحصائي للقصف الستراتيجي»، من خلال دراستي للهجوم الستراتيجي الذي شنّه الحلفاء ضد المانيا، وهو أن الحروب

لا تحسم من خلال القصف الجوي وحده. فبالرغم من التفوق الجوي الكاسح لقوات الحلفاء بدءاً من عام ١٩٤٣ وما بعد، ظلّ الألمان قادرين على الصمود حتى صيف ١٩٤٥. وقد يكون من المناسب القول أن الانجاز الرئيسي للقصف الستراتيجي كان إجبار سلاح الجو الألماني على التحليق في مجالات كانت تتيح لطائراتنا فرصة اسقاطها، ضامنة بذلك سيطرة الحلفاء على السماء في طريق الغزو.

وأخيراً، ينبغي ألا يفترض أحد أن الهجمات الجوية تهدّ المعنويات بالضرورة، بل على العكس تماماً. مراراً وتكراراً أظهرت تجربتنا في المانيا أن قصف العدو قد يزيد في تصميم الشعب على مواصلة الحرب، خصوصاً في البلدان ذات الدرجة العالية من الانضباط والرقابة.

إذا كنا لا نستطيع تحقيق أهدافنا عن طريق القصف فقط، فما هي نتيجة استخدامنا للقوات الأرضية بهدف اخراج العراق من الكويت؟ لا ريب في أن هذا المشروع سيكون قضية دامية، ودامية للغاية، مع فرصة كبيرة لإبقاء قواتنا لأمد غير محدود في حالة من العجز والعزلة داخل السياق المعقد للشرق الأوسط. انها تجربة تستثير ذات المشاعر التي أثارتها مغامرتنا في فيتنام (الغضب والاحباط).

قد يفترض المرء أن الجيش العراقي سوف يفتقر الى الكثير من روح المبادرة والمرونة، وذلك قياساً على العدد الكبير من القادة العسكريين الذين قام صدام حسين بتصفيتهم (خصوصاً من كان يتوسم فيهم ملامح التحوّل الى خصوم). بيد أن الجيش العراقي قد يبرهن على عكس ذلك في دفاعه ضد أي اندفاع للحلفاء داخل الكويت. الخبراء العسكريون السوفيات (الذين صمّموا خططهم الستراتيجية ومبدأ الدفاع في أذهانهم دائماً) قاموا بتدريب المهندسين العراقيين على اقامة التحصينات والعوائق، بأناة وصبر. أضف الى ذلك المبدأ العسكري الناجز الذي يقول بأن الهجوم الفعال ينبغي ان يمتلك ضعف عدد وعدّة القوات التي يهاجمها، ومن الواضح ان القوات الامريكية يمكن أن تتكبد خسائر فاجعة سواء في المرحلة الأولى من القتال مع تشكيلات الدرجة الثانية من الجيش العراقي، أو المراحل التالية مع التشكيلات المنتخبة التي تركت في المؤخرة لتنفيذ هجمات مضادة أو عمليات طارئة.

انني أرى فرصة ضئيلة أمام امكانية تفادي مواجهة عسكرية بين قوات المشاة أو المدرعات الامريكية والعراقيين، ولقد عبّر العديد من الخبراء العسكريين عن

شكّهم في أن ما أرسلناه حتى الآن من قوات عسكرية مجهزة على نحو فعّال لذلك النوع من القتال الذي سيفترضه اندلاع الحرب في الصحراء. القوات العراقية ضخمة من حيث العدد (رغم أن رقم مليون مقاتل يبدو مبالغاً)، ورغم تفاوت مستويات الكفاءة، فالعديد من تلك القوات تمرّس بتجربة ثمانية أعوام من القتال ضد ايران. والقتال في ظروف الصحراء تحت تدريب سوفياتي عالٍ.

جنرالاتنا تواقون، بطبيعة الحال، إلى اختبار دُرَرهم العسكرية الجديدة، ولإغراق لجان الكونغرس في انطباعات مضلّلة حول التفوق والسيطرة. بيد أن أحداً منهم لا يستطيع الجزم بفعالية تلك الدرر في شروط صحراوية قاسية. ومن المشكوك به أيضاً ان نتمكن من انجاز الحدّ الأدنى من الأهداف التي نصّت عليها قرارات الأمم المتحدة دون الحاق خسائر جسيمة بالجانبين، ودون تحويل الشرق الأوسط إلى بيروت جديدة واسعة.

مسار بديل

منطق هذا الاستنتاج يستتبع ضرورة اللجوء الى دبلوماسية نشطة وصادقة لم يدرجها الرئيس الامريكي في خياراته حتى الآن، متجاهلاً اشكالية ميثاق الأمم المتحدة في فصله السابع تحديداً، والذي يتيح اللجوء الى اجراءات القوة على نطاق محدود شريطة ان تستنفذ البلدان المعنية جميع احتمالات الفصل السادس (التي تنصّ على أوالية محددة للدبلوماسية).

الملك حسين وممثلو الاتحاد السوفياتي يبذلون الجهود لايجاد تسوية سلمية. الرئيس ميتران طرح بعض الأفكار لتسوية أبدى صدام حسين بعض الاهتمام بها، وهذا ما فعله أيضاً عدد من أفراد الأسرة الحاكمة السعودية. من وجهة النظر الامريكية ثمة خطر محدود في أن تقود الجهود الدبلوماسية الى مخاطرة، فالوجود العسكري الامريكي سيبقى قائماً في الخليج الى أن يتم التوصل الى تسوية سلمية مقبولة. دعونا الآن نواجه بعض حقائق معضلتنا الراهنة، وندقق فرص الحلّ السلمي.

في تطويرنا لمفاوضات سلمية ينبغي ان نستخدم، بين وسائل أخرى، آلة الأمم المتحدة لمحاولة بناء جسر تمرّ منه الحكومة العراقية بعيداً عن موقعها المتخندق الحالي، وتحفظ ماء وجهها بحدود ما على الأقل. في الوقت ذاته ينبغي تصميم التسوية بحيث تخفض الى الحدود الدنيا أي انطباع بأن صدام حسين كسب ميزة ما في عدوانه.

ويصعب الجزم في احتمال قبول صدام حسين لمثل تلك المخارج. لقد نهبت

قواته الكويت، ليس بالمعنى المالي المتمثل في السطو على المصرف المركزي فقط، بل الاستيلاء على ممتلكات ثمينة بدءاً بأجهزة الكومبيوتر وانتهاء بالقطع الأثرية، الاسلامية النادرة. ويفكّر بعض السعوديين الآن انه - استناداً الى تلك التقارير - لا ينوي الاحتفاظ بالكويت الى الأبد.

ومعروف تماماً وجود نزاع تاريخي على الحدود وعلى هذه الرقعة الجغرافية أو تلك بين العراق والكويت، وأحد الحلول المناسبة سوف يكون طرح الأمر على المحكمة الدولية في لاهاي لاستعراض واعادة رسم الحدود بين البلدين. بديل آخر يمكن أن يتمثل في تكليف هيئة خاصة تحت اشراف مجلس الأمن - كما كان الحال في ٢٠ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٤٨ بصدد رسم خط وقف اطلاق النار بين الباكستان والهند، والذي تحوّل فيما بعد الى حدود دائمة. ويمكن أيضاً عدم انتظار قرار المحكمة الدولية، والتفاوض حول اتفاقية ثنائية تحدّد ملكية الجزر المتنازع عليها وتمنح العراق اطلالة محددة على البحر تتيح له شحن نفطه بحراً.

ادارة جورج بوش، في تصريحاتها العلنية، ذكرت انها تسعى وراء هدفين لاحتواء الاندفاع العراقي: الحفاظ على ميثاق الأمم المتحدة بصورة متكاملة، الذي يحظر استيلاء دولة على أراضي دولة أخرى، وتفادي الخطر الناجم عن امكانية بسط الهراوة العراقية على الانتاج العالمي للنفط واستخدامه بطريقة تهدّد اقتصادات الدول المستهلكة.

ولأن أول هذين الهدفين يعدّ مسألة مبدأ دولي، في حين يتصل الثاني بنفقات وأعباء تترتب على المواطنين الامريكيين وسواهم من أبناء الدول المستهلكة، فإن الإدارة سعت الى استخدام الهدف الأول لتسويغ الفعل الدولي بينما احتفظت بالثاني كوسيلة لتعبئة الرأي العام الامريكي باظهار درجة التهديد التي يمكن ان تطال الحياة اليومية للمواطنين الامريكيين.

ورغم ان الصحافة في بداية الأزمة فسّرت تصريحات بوش على أنها تنطوي ضمناً على الاطاحة بالرئيس صدام حسين كجزء من الأهداف الامريكية الجوهرية، فسرعان ما تبيّن بوضوح انه لا يمكن صياغة قرار من مجلس الأمن يتضمن هذا الهدف، ناهيك عن التصويت عليه واقراره. بذلك حدّد الرئيس بوش أهداف امريكا من الحرب في ضمان تطبيق قرارات مجلس الأمن الثمانية، التي جرى تبنّيها حتى الآن.

البنتاغون لم يوافق حتى على هذا التصريح المحدود، أو هكذا تعلّمنا كلمات الجنرال دوغان على الأقل. ويفترض المرء أنه وأمثاله من الجنرالات ما يزالون متمسكين بالتأويلات الصحفية لتصريحات جورج بوش الأصلية حول أهداف الحرب. ولقد قام الجنرال بإعلام الصحافة أن القوى الجوية الامريكية - عند اطلاق يدها - ستأخذ بالنصيحة الاسرائيلية القائلة بأن «أفضل السبل للتأثير على صدام حسين هي استهداف أسرته بالذات، وحراسه الشخصيين، وعشيقته أيضاً». ولأنه «رجل أقرب الى الممثل الواحد One-man Show، فلا بد أن يكون في صميم الأهداف الواجب قصفها».

أتمنى أن نديرظهرنا - مرة واحدة على الأقل - لنصيحة اسرائيل. أمريكا، بعكس اسرائيل، ليست دولة صغيرة غير آمنة يحيط بها الأعداء. لقد تعاقب رؤوساء امريكيون كثر على الإعلان بأن اغتيال رئيس دولة معادية ليس قانونياً بالنسبة لدولة عظمى تبدي حرصها على الأخلاق والشرعية. أمريكيون كثيرون يشاركونني الإحساس بالعار حين حاولت قواتنا الجوية، بلا طائل، اغتيال العقيد معمر القذافي عن طريق القصف.

لا يمكن للمرء أن يقرّ أخلاقية عمل عسكري خسيس عن طريق احاطته بتعابير ملطّفة لاسباغ البراءة والصواب على مضمونه القذر، كما يحدث حين يستخدم الناطق باسم البنتاغون تعبير «قطع العنق Decapitation» لوصف اسقاط القنابل بهدف اغتيال رئيس دولة.

وفي كل الأحوال، من يضمن لنا أن اغتيال أو ازاحة صدام حسين سوف تؤدي الى تحييد عراق عدواني؟ أليس من الممكن أن يعقبه في الحكم زعيم يتصّف بذات الخصال أو يزيد عليها؟

ولأن أطرافاً عديدة في الشرق الأوسط ستظل مستنفرة في حال انسحاب صدام حسين من الكويت مع بقائه في السلطة، يتوجب اتخاذ بعض الاجراءات الكفيلة بتهدئة تلك المخاوف. بعد انسحاب القوات العراقية من الكويت - وبعد ذلك فقط - يتوجب ترتيب قوة حفظ السلام من الأمم المتحدة، تتألف من عناصر عسكرية تابعة لدول محايدة لم تشترك بهذا الشكل أو ذاك في الصراع القائم. ويتوجب أن ترابط تلك القوة في الكويت. ولو أننا وضعنا - أو سوف نضع - تدخلنا العسكري في قنوات الأمم المتحدة وعبر قوة سلام حقيقية، لشعر الكثير من قادتنا العسكريين بالامتعاض ازاء هيكل كهذا. لكن الولايات المتحدة عندها (بعكس ما هو الحال الآن) لن تتحمل لوحدها المسؤولية المطلقة في نظر العالم

لما سيتحول الى حرب فاجعة كريهة وغير مقبولة.

ولقد قيل على الدوام أن أمريكا تستسهل دائماً توريط نفسها في حروب ما وراء البحار، لكنها تجد صعوبة في فك نفسها بعد ذلك. حين كنت مساعد وزير خارجية قبل ثلاثة عقود، حاولت عبثاً وقف التورط الامريكي في فييتنام، وحثثت الرئيس جونسون بوجوب تطوير عقيدة للتخلّص والخروج. وقلت بأن مثل تلك العقيدة ستزود الولايات المتحدة بمخرج مناسب من الموقف المتدهور، كما أنها ستمدّنا بدليل مفيد يحول دون انحدارنا في تورط آخر لا قاع له. ان ابقاء امكانية التخلّص واردة في أذهاننا لا تمنعنا من الحذر الدائم ازاء تفريخ مهرب ينقذ ماء الوجه. ولسوء الحظ لم نقم بذلك حينئذ، ورفضت ادارة جونسون أية تسوية لا تتضمن الاستسلام الكامل. كانت النتيجة أننا انزلقنا نحو موقف من التقاتل المديد والمأزق الأقصى، ثم الهزيمة.

النصيحة التي قدمتها في الستينات ما تزال سارية المفعول جزئياً، ولكني أقول أن التملّص المحض ليس هدفاً مناسباً في أزمة الخليج. طموحات صدام حسين ليست ظاهرة منعزلة على الاطلاق، فالشرق الأوسط تكبّله الخصومات والأحقاد السياسية والدينية. ان وقف عدوان صدام حسين لن يجلب الهدوء المؤكد على هذه المنطقة. واذا أردنا تفادي حدوث أزمات أخرى في الشرق الأوسط كفيلة بجرّنا الى التورط، فيتوجب علينا عدم قصر أهدافنا على وقف صدام حسين بل اغتنام الفرصة لتحسين - أو ازالة - المواقف العالقة التي تهدد بانفجار حروب أخرى في المستقبل. ان قضايا الشرق الأوسط المعقدة والعميقة هي على درجة من التشابك تجعل انسحاب الولايات المتحدة من الصراع الراهن أمر أقرب الى استثارة هزات جديدة أكثر عنفاً. انني لذلك أقترح أن نعمل في اطار الأمم المتحدة لتهدئة نزاعات وخصومات المنطقة الأكثر عمقاً واتساعاً، وأن نصحّح حالات الغبن والظلم التي طال أمدها.

ولكي نتفادى الركون الى مسألة الربط، يتوجب أن ننهي أزمة الخليج الراهنة بشكل منفصل وبمنأى عن أية مفاوضات أوسع نطاقاً. ولكن يتوجب علينا أيضاً الالتزام بتعهداتنا المبكرة حول خططنا المستقبلية لحلّ المشكلة الراهنة مع العراقيين. وأرى أننا نستطيع كسب بعض الأفضلية الدبلوماسية عن طريق تعهدنا القاطع (بعد حلّ أزمة الخليج) بأن الولايات المتحدة ستعيد النظر بشكل شامل في جميع مشكلات الشرق الأوسط، بما في ذلك المسألة الفلسطينية وعلى نحو لا يقبل اللبس. قد يكون ذلك مفيداً في إقناع صدّام حسين بتطبيق

قرارات مجلس الأمن دون السماح له بالزعم أن ممارساته العدوانية قد حرّضت على حلّ تلك المسائل.

توقيت تلك الرؤية الشاملة الجديدة لمشكلات الشرق الأوسط ينبغي أن يقترن بمسألة نهاية الحرب الباردة أكثر من اقترانه بنهاية أزمة الخليج الراهنة. ولقد علّمنا التاريخ مراراً وتكراراً أن نهاية حقبة هي بداية دبلوماسية شاملة لاعادة ترتيب البيت السياسي. تلك كانت مهمة ڤرساي في نهاية الحرب العالمية الأولى، رغم أن الساسة المشاركين آنذاك افتقروا الى الرؤية الجوهرية: أن يضعوا جانباً مشاعر الانتقام البدائية والخصومات التقليدية.

مثال آخر أفضل بكثير هو مؤتمر ڤيينا عام ١٨١٥، والذي انعقد لإعطاء أوروبا هيكلية جديدة في أعقاب الحقبة النابولونية. لقد ترسخ انتصاره بحضور ساسة مثل كاستليريا وتاليران ومترنيخ الذين رأوا ضرورة معالجة قضايا أخرى غير تلك التي انعقد المؤتمر من أجلها (حماية أوروبا من الطموح العسكري الفرنسي المتعاظم)، مثل الغاء تجارة الرقيق واعادة رسم الحدود المتنازع عليها.

واليوم، لا تبدو حقبة الحرب الباردة الطويلة الممضة وكأنها تنصرم بسرعة فحسب، ولكننا سرعان ما سنشهد نهاية قرن وألفية. لقد حان الوقت لأخذ مشكلات العالم في منظورها الاجمالي، ومعالجة الشروط المدقعة السائدة في الشرق الأوسط والتي يمكن أن تبقي تلك المنطقة في حالة غليان دائم طيلة عقود طويلة، وتضع العالم على شفير صراع متنام معقد لا يمكن السيطرة عليه.

الأمن والسلام

بذلك أقترح أن نقوم بترتيب مؤتمر جديد يهدف هذه المرة - ومباشرة - الى حل مشكلات الشرق الأوسط على نحو ملموس محدد. ينبغي أن يتولى مجلس الأمن أمر الدعوة الى هذا المؤتمر، ويكون له هدفان: ضمان الأمن وضمان السلام.

ولا مناص في أن المؤتمر سيقع تحت سيطرة الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن، ولكن يمكن للمرء أن يبرر حضور تلك الدول على قاعدة أن الدول الأساسية التي تزوّد المنطقة بالسلاح هي الدول الوحيدة القادرة على ضبط التدفق الخطير والتصعيدي للأسلحة، الى تلك المنطقة. وفي معالجته لمشكلات الأمن والسلام، يتوجب على المؤتمر أن يدرج حضور جميع ممثلي المصالح والقوى والدول المعنية بمشكلات الشرق الأوسط.

في معالجته لمشكلة «الأمن»، يتوجب على المؤتمر أن يلتزم بخفض التسليح

القائم في المنطقة الى حدود معقولة. ويجب أن يبحث في تصفية جميع الاسلحة غير التقليدية ووسائل انتاجها. ذلك سوف يعني نبذ العراق لخططه وامكانياته في انتاج الاسلحة النووية، وتفكيك المنشآت الاسرائيلية الراهنة لانتاج تلك الأسلحة والترسانة النووية التي تملكها فعلياً. يتوجب أن تشرف الأمم المتحدة على تطبيق الاتفاقية التي يجري التوصل اليها، وأن تتخذ الاجراءات الكفيلة بإتاحة المجال أمام وكالات الأمم المتحدة المتخصصة لتدقيق الانتهاكات والتجاوزات.

الحاجة الملحة لذلك الإجراء تبدو واضحة للعيان. لقد حرّضت السياسات الامريكية علىَ ولادة ظواهر تدفق السلاح على نحو بالغ الإفراط والخطورة، الى درجة أن قوة وحجم ترسانات السلاح في الشرق الأوسط تعادل تلك التي تملكها جميع الدول الأعضاء في حلف الناتو. زخم ذلك التصنيع أسهم فيه بشكل مضطرد موقف ادارة جونسون ووعودها المستمرة بأن تزوّد اسرائيل بأسلحة لا تجعلها متفوقة في النوع على جيرانها العرب فحسب، بل في الكم أيضاً. والادارات الامريكية المتعاقبة قامت بتزويد اسرائيل بأسلحة أكثر فتكاً عاماً بعد عام، دافعة العرب الى البحث عن مزيد من الأسلحة في سيرورة جهنمية من الفعل وردّ الفعل.

والشرق الأوسط يعاني اليوم من انعدام الأمن في اطار النزاعات الحدودية المستعصية: موريتانيا والمغرب، المغرب والجزائر، السعودية واليمن، عمان والامارات العربية المتحدة، وضمن الامارات ذاتها. يضاف الى ذلك المطلب المشروع للفلسطينيين لانسحاب القوات الاسرائيلية من الأراضي المحتلة، استناداً الى سلسلة قرارات صادرة عن الأمم المتحدة، وضمان حق الشعب الفلسطيني في اقامة دولته المستقلة، وهو مطلب أرى أنه محق بكل معنى الكلمة. ومن الضروري عقد مؤتمر عام يحلّ جميع هذه المشاكل ذات الجذور العميقة. وعليه أيضاً مناقشة جميع القضايا الملحة التي تخص المنطقة، ومحاولة العثور على حلول مناسبة لها.

وبسبب تعدّد وأهمية هذه المسائل، فإنها يمكن أن توفر الأساس لمؤتمر يعالج القضايا الأخرى أيضاً. قائمة بسيطة بجدول أعمال ذلك المؤتمر يجب أن تتضمن ما يلي:

■ وضع ضوابط صارمة وقيود صريحة على تصدير السلاح الى الشرق الأوسط من قبل الدول المنتجة، واستخلاص معطيات مناسبة وحصص تسلّح

مقبولة حسب تطور الظروف. ان ردود الفعل العربية على هذا الإجراء سيظل متعلقاً بآفاق حل الصراع العربي ـ الاسرائيلي وتراجع المخاوف من النزعات العسكرية التوسعية لدى اسرائيل.

■ خلق أواليـة للاشـراف على تفكيك منشآت إنتاج الأسلحة النووية والكيميائية والبيولوجية بما فيها تلك الموجودة فعلياً، بما يقود الى إنشاء منطقة خالية من السلاح النووي.

■ وضع ترتيبات دولية لإعادة الضفة الغربية وقطاع غزة إلى حكومة فلسطينية منتخبة، وينبغي أن ينبع ذلك الإجراء من حق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم. ويتوجب كذلك إعادة الجولان الى سوريا كمنطقة منزوعة السلاح.

■ وضع اجراءات تضمن أمن اسرائيل، مثل اتخاذ ضمانات مناسبة تكفل وحدة الأراضي المجاورة لإسرائيل، كما تكفل حدود اسرائيل ذاتها كما كانت قبل عام ١٩٦٧. تلك الحدود يمكن رسمها بواسطة مجلس الأمن الدولي أو الدول دائمة العضوية فيه، بما فيها الولايات المتحدة.

■ انشاء نظام خاص بمدينة القدس يجعل ادارتها مسؤولية هيئة مشتركة من الاسرائيليين وممثلي الحكومة الفلسطينية المنتخبة، وبما يجعلها عاصمة لاسرائيل وللدولة الفلسطينية الناشئة.

■ انسحاب القوات السورية من لبنان وتفكيك الوجود الاسرائيلي في جنوبه، واعتراف جميع دول المنطقة بسيادة لبنان.

■ النظر في جدول أعمال موسع يشمل مشكلات الأرض والمياه والبيئة الدولية.

■ حل مشكلات الشرق الأوسط الحدودية الأخرى.

■ تمويل نفقات هذه وسواها من التغيرات تقع على عاتق مصرف لتنمية الشرق الأوسط يجري استحداثه وتمويله من قبل الدول المنتجة للنفط أساساً. الهدف الأساسي للمصرف سيكون جمع شمل شعوب المنطقة بما يتيح امكانية التوظيف العقلاني للموارد والثروات. ذلك قد يعني التشديد بشكل خاص على الاستثمارات في ميادين النقل والاتصالات وسواها من بنود البنية التحتية التي تؤمن الرخاء والإندماج.

لقد نهضت الأطروحة المركزية لهذه المقالة على أن موقفنا من أزمة الخليج

يضع الامريكيين وحكومتهم أمام خيار محتوم. الالتزام بروح ميثاق الأمم المتحدة (الذي تعتمد عليه شرعية وجودنا) تفرض علينا قبل اللجوء الى العمل العسكري ان نبرهن بالتجربة التي لا تترك أدنى مجال للشك أن العقوبات الاقتصادية لن تحقق أهدافنا المعلنة.

قد يستغرق ذلك أمداً طويلاً، والانتظار المطلوب سوف يختبر نضج أمّتنا ومواطنينا. هل نحن مستعدون لذلك؟ حتى الآن لا يبدو السجلّ ايجابياً. لقد شنّت ادارة كارتر عمليتها العسكرية الفاشلة لإنقاذ الرهائن وانتهت نهاية مفجعة في الصحراء، وذلك قبل أمد وجيز من اقرار معظم العارفين بالأمور اننا نستطيع التفاوض حول عودة آمنة لجميع الرهائن بعد أن تنظم الحكومة الايرانية الجديدة نفسها، وتسيطر على الأجنحة المنشقة، وتبلغ الدرجة الكافية من الثقة السياسية بالنفس.

تلك كانت مغامرة محكوم عليها بالفشل الذريع منذ البداية، ولم تكن سيئة التنفيذ بقدر ما كانت كليلة في التصميم. لقد شاء حسن طالعنا أن تفشل، فلو وصل فريق الإنقاذ الى طهران لكانت الخسائر في الأرواح مفجعة، سواء في صفوف الرهائن أم في صفوف منقذيهم. وبطبيعة الحال لم يتمّ التوصل الى تحرير الرهائن نهائياً سوى عبر الانتظار وتطوير لغة حوار سياسي سليم.

شنّ العمليات الهجومية في الخليج سيكون على الدرجة ذاتها من فقدان الصواب. حتى إذا تمكنت حكومتنا من تحقيق أهدافها المعلنة، فإنها ستترك الشرق الأوسط في صورة كابوس سياسي. سوف تلتهب جميع المشاعر القديمة، وتتعاظم الأحقاد المتوارثة، وستشترك جميع شعوب المنطقة في كراهيتها العمياء للولايات المتحدة كبلد جعل الهجوم العسكري الموحد ممكناً.

ولاتباع مسار عقلاني ومثمر في النهاية، يتوجب على الشعب الامريكي تحضير نفسه لفترة انتظار طويلة. يتوجب مقاومة جميع الاغراءات الساعية الى تأويل حوادث التقاتل العارض والاهانة السياسية كذرائع تبرّر الخيار العسكري. بلوغ هذه الحالة الذهنية العقلانية يتطلب قيادة حكيمة من الرئيس وفريقه، بالاضافة الى اجراءات صارمة لتفادي مواقف الاحتقان وعرض العضلات مهما كان اغراؤها السياسي شديداً. إذا لزمنا هذا المسار بهدوء وأناة، فلسوف نفوز أو نكتسب تجربة في اللجوء الى مشروع لا نجرؤ على ابعاده جانباً، وسنكون على درجة جنونية من انعدام المسؤولية إذا دخلنا القرن الجديد وواحدة من أهم

مناطقه تشلّها الأحقاد والنزاعات، وتضعها بصورة دائمة على شفير حرب أكثر دماراً وفتكاً، وأقلّ إمكانية للضبط والسيطرة مع تقدم التكنولوجيا.

The New York Review
December 6, 1990

الاعلام و «الحرب العادلة»

■ ألكساندر كوكبرن

في مثال العراق الراهن، يرجع مفهوم القصف، كحلقة ارتباط جوهرية اجمالية تجمع بين الأخلاق الغربية ورقي التكنولوجيا الغربية، إلى عام ١٩١٩ حين طلبت القوى الجوية الملكية الاذن من ونستون تشرشل باستخدام الأسلحة الكيميائية «ضد العرب العصاة على سبيل التجربة». كان تشرشل وقتها وزيراً للحرب، ورفض الاجابة بالنفي القاطع. ولقد كتب يقول: «لست أفهم هذا الإفراط في الاحتشام ازاء استخدام الغاز. انني أدعم قوة استخدام الغاز السام ضد القبائل غير المتحضرة [وعدّ البلاشفة في صفوف تلك القبائل، وكان يقصد استخدام الغاز في حرب التدخل]... ليس من الضروري استخدام الغازات السامة الأكثر فتكاً، هنالك امكانية لاستخدام غازات تتسبب في أضرار واسعة وتنشر الرعب دون أن تخلّف آثاراً مديدة على معظم المتأثرين بسقوطها». واستخلص تشرشل قائلاً: «الأسلحة الكيميائية تمثّل تطبيق العلوم الغربية على الحرب الحديثة... اننا لا نستطيع تحت أي ظرف الضغط باتجاه منع استخدام أية أسلحة متوفرة وقادرة على انهاء الفوضى السائدة على الحدود».

الصحافة تميل إلى إبطال التاريخ، ولا يتجلى ذلك بوضوحه الأقصى كما يتجلّى في حالة الحرب، حيث تسعى الصحافة إلى تكريس حاضر تراجيكوميدي في «التغطية» التلفزيونية، وحيث يكون المراسلون (الممثلون في الواقع) على صلة بالحقيقة تشبه صلة جوقة إغريقية في جدل على طريقة أغاممنون: ماذا ستفعل كليتيمنسترا؟ أضجيجٌ ما يتناهى إلى مسامعي؟ أما الأخيرة فتكون قد أجهزت على الملك وفاضت روحه!

والنقاش المحموم الدائر حول تغطية دقائق الحرب - مهما بلغت درجة الرقابة في الرياض، ومهما بلغ الدجل في قاعة الأخبار بالبنتاغون - هو بحد ذاته شكل من أشكال الرقابة، فهو بدوره يتفادى التاريخ.

من مفهوم تشرشل لقنابل الغاز، التي لا تنزل سوى «الأضرار» بأهدافها إذا

أحسن استخدامها، ثمة قفزة قصيرة إلى احتفاء أيامنا هذه بصواريخ «توماهوكس» والقنابل المسيّرة بالليزر إلى حيث تسقط بسلام فوق العراق، وهذه فاتحة لصيحات ستطلق في الغد داعية إلى تفهم وإقرار اللحظة التي سيصبح عندها استخدام السلاح النووي ضرورياً لردع عدوانية العراق. منذ الآن تتحدث الولايات المتحدة عن استخدام غاز «غيرقاتل» لتفريق الحشود، كإجراء انساني.

«هذه، جزئياً، حرب وعظية» يعلن المحرر جورج ويل في لحظة بدء القاذفات الأمريكية بإرجاع الاقتصاد العراقي إلى القرن التاسع عشر. في رأي ويل تتمثل جريمة العراق («البلد الهش الفارغ المترامي») في «انتهاك قيم طالما شدّدت عليها الولايات المتحدة، رمز القيم السياسية الحديثة ورمز الحداثة الثقافية». أما «الأمل» فيكمن في أن هذه الحرب «ستدفع بعض أجزاء الجزيرة العربية إلى الانخراط في حداثة جديرة بذلك الرقي التكنولوجي والهدف الأخلاقي. الرقي والهدف الأخلاقي ينبعان كلاهما من الحرية.. ان سيف الولايات المتحدة البتار يضمن سيادة القلم الأمريكي».

وإذ تقوده ذات المزاعم المتصلة بدقة القصف الغربي، يكتب كليفورد لونغلي في «التايمز» اللندنية أن «التطورات التي طرأت على تكنولوجيا الحرب تبدّل أخلاقية الحرب. آخر الأسلحة البريطانية والأمريكية التي استخدمت في الخليج تبدو كمن يمتلك أولويات أخلاقية بقدر ما هي عسكرية. وتصبح الحرب تدريجياً أكثر وديّة من جانب من يشنّها». والصحافة البريطانية تعيد ترجيع الصدى، ما دام الكمّ الذي يكتب انما يتصل على نحو وثيق بما ينزلق بيسر على الجانب الآخر من الأطلسي من قبل وارثي عبء الانسان الأبيض. في «ديلي تلغراف» يستخلص جون كيغان، المؤرخ العسكري و«المحرر الدفاعي» أن هذه المرحلة هي «الجزء الأغرب من هذه الحرب الغريبة. لم يسبق لمجموعة سكانية أن عاشت تحت غطاء أقرب إلى الحصانة من هجوم العدو في حين أن كلّ ما يجعل الحياة اليومية دائرة يدمّر أمام سمع وبصر أولئك السكان».

من الطبيعي أن القذائف والصواريخ كانت تضرب المدنيين مثلما تضرب «الثقافة» التي يزعم بوش أنه يوفرها، غير أن الاعلام الغربي الذي نام على حرير «الدقة» و«الانضباط» توقف عن بذل أي اهتمام بما يمكن أن يعتبره القادة العسكريون الغربيون هدفاً عسكرياً، وما يمكن أن يكون كذلك بالفعل. الأشياء كها أهداف عسكرية في نهاية المطاف، ولهذا بدأ طور الحديث عن

« تدهور » و« شحّ » المياه (محطات الوقود والري وسواها)، وانهيار الزراعة والطرق ومواقف الحافلات وغيرها من «الأهداف الستراتيجية».

وبالرغم من حث تشرشل لسلاح الجو الملكي على استخدام غاز الخردل، فإن المشكلات التكنولوجية منعت التنفيذ الفعلي. لكن الجيش البريطاني شرع في عام ١٩٢٠ باستخدام قذائف الغاز في العراق «بتأثير أخلاقي ممتاز». القذائف ذات الشحنة العالية من المتفجرات («الأسلحة التقليدية») كانت تستخدم حين تمتنع القرى عن الضرائب. وبدأ سلاح الجو البريطاني في ذلك الحين باسقاط قنابل ذات توقيت انفجاري لاحق (كما هو الحال الآن في القذائف المستخدمة ضد المهابط العراقية). ولأن أطفال القرى أخذوا يلهون بالقنابل التي لم تنفجر على الفور، فقد احتجّ أحد الضباط بأن النتيجة ستكون «تمزيق مئات الأطفال إلى أشلاء». ما يطلق عليه اليوم في الاجتماعات الصحفية تسمية «الضرر المجاور» (أطفال موتي تمزّقوا إلى أشلاء) حدث من قبل حين أسقط سلاح الطيران الملكي القنابل لمنع أبناء القبائل من حراثة حقولهم تحت جنح الظلام (وهي «أهدافنا الستراتيجية» العزيزة ذاتها).

بين أبرز ضباط سلاح الجو الملكي الذي انخرطوا في هذا القصف رجل يدعى آرثر هاريس، سيقود فيما بعد هجوم القاذفات البريطانية ضد ألمانيا خلال الحرب العالمية، خصوصاً ضد مدينة درسدن. ويجدر التذكير بأن تشرشل كان متلهفاً لقصف المدن الألمانية بقنابل الغاز. في عدد الأسبوع الماضي من «صنداي تايمز» اللندنية، في ذروة كيل المديح لـ«الأسلحة الذكية» و«الحرب العادلة»، كتب رجل من نونتغهام يدعى وليامز معلّقاً على قصف درسدن. قال الرجل أنه كان أحد الطيارين الذين شاركوا في الهجوم: «لقد قيل لنا أن الغارة ستكون مفزعة، وأن ساحة السوق ستكون حافلة باللاجئين المتدفقين من الشرق، وأن هدفنا سيكون ساحة السوق ذاتها. لم يكن أمامنا خيار. لقد قصفنا وفق ما جاء في التعليمات وقتلنا نحو ١٠٠,٠٠٠ كما أقدّر (ولا أحد سيعرف الرقم الحقيقي)، وكان معظمهم من النساء والأطفال. لقد تملكني الرعب حين أدركت ما اقترفناه، وازددت رعباً حين جرى تصويرنا فيما بعد ضمن اجتماع اعلامي زائف عُكست فيه الحقائق. لن أستطيع البوح بالمزيد لكي لا أتعرض لعقوبة كشف أسرار رسمية. لقد قيل لنا أن الغارة سترمي خشية الله في قلوب الأعداء، وأنها ستقصّر أمد الحرب. بيد أنها لم تفعل ذلك اطلاقاً».

ونعود إلى عام ١٩٢٣ وإلى رجال سلاح الجو الملكي، حيث قدم الكومودور

ليونيل شارلتون استقالته من منصبه كضابط أساسي في العراق، وذلك بعد زيارته لمستشفى في «الديوانية» ومشاهدته لضحايا القصف. بعد اثنين وعشرين عاماً كان ردّ فعل الطيار ليامز على الأمر العسكري بقصف ساحة سوق بعبارة «لم يكن أمامنا خيار». اليوم ما من أحد، باستثناء من يتلقون هذه الشحنات المميتة، يكلف نفسه عناء استخراج علاقة الذَنْب بين الرجل الذي يضغط زر الإطلاق وصاعق الصاروخ والضحية.

حرب «لا مفرّ منها»:

الحرب «عادلة»، هكذا صرّح بوش أمام الكونغرس. وقد سبقه إلى هذا الانجاز الأخلاقي شيخ المعلّقين الليبراليين أنتوني لويس الذي طمأن قراءه بعد تسعة أيام من القصف أن هذه «حرب عادلة». الصحافة في حضورها الضحل، وسط تشدقات زائفة ومنظورات هزيلة، تسعى إلى اقناع المواطنين الصالحين بأن الحرب تُشن من قبل أناس ذوي خلق، ولأسباب مشرّفة. والقول بأن الحرب ضد العراق «عادلة» هو امتداد للزعم القائل بأنها «لا مفّر منها»، الذي يتفرّع بدوره عن ذريعة أن صدام حسين لم يبد أية مرونة في الاصغاء لنداءات الأمم المتحدة، فضلاً عن أن العقوبات الاقتصادية لا تظهر أية علامة على النجاح في اجباره لقبول تلك النداءات.

والإعلام في الولايات المتحدة كما في بريطانيا - بلا استثناء تقريباً - أسقط جميع التقارير والمناقشات النقدية لمواقف العراق التفاوضية، كما أعلنت على الملأ في ١٢ آب، وكما نُقلت إلى مستشار الأمن القومي برنت سكاوكروفت، والتي حملها إلى البيت الأبيض مبعوث حركة عدم الانحياز اليوغسلافي في كانون أول. فيما يتصل بالمقترح التفاوضي الذي أعلنه العراق في ١٢ آب وربط فيه بين احتلال الكويت واحتلالات ونزاعات أخرى في المنطقة، قالت صحيفة «الفاينانشيال تايمز» في افتتاحيتها أن الأمر لا يخلو من محتوى. عرض كانون أول نقله كنوت روس لوحده في «نيوزداي»، وكان هو نفسه الذي كشف في آب عرضاً تفاوضياً آخر نقل إلى البيت الأبيض. ورغم أن العروض الثلاثة تختلف في التفاصيل، فهي تتشابه في توجهها الاجمالي: الربط الاقليمي بصيغة مؤتمر حول الأمن والنزاعات الاقليمية في الشرق الأوسط؛ الانسحاب المتلازم للقوات العراقية من الكويت وتلك التي تقودها الولايات المتحدة من السعودية؛

نزع أسلحة التدمير الجماعي الكيميائية والبيولوجية والنووية من المنطقة بأسرها على أساس تفاوضي.

لم يتح لأي من هذه العروض أن يمارس أدنى تأثير على النقاش العام الدائر حول قضّ الحرب وقضيضها، رغم الاقرار الواسع بأنها ستكون حرباً دامية ومكلفة. والنصر السهل الذي أحرزته ادارة بوش، والملازم البريطاني التابع لها، في تهيئة الأجواء لـ« حرب عادلة » تأكد أكثر من خلال الاستقبال التحقيري للمبادرة الفرنسية في ١٤ و١٥ كانون الثاني. ليس مهمّاً هنا الدوافع المريبة التي حدت بالفرنسيين إلى طرح مشروعهم، أو أن العراق لم يتعامل معه جدّياً بسبب انتظاره لنتائج لقاء جنيف بين بيكر وعزيز. لقد نصّ المقترح الفرنسي ببساطة على انسحاب العراق من الكويت، مضيفاً لغة ملحق أضيف إلى قرار اتخذه مجلس الأمن في كانون أول. ذلك الملحق، الذي حظرت الولايات المتحدة استخدام لغته في القرار نفسه، أعلن الحاجة إلى مؤتمر اقليمي يعقد في الوقت المناسب. ذلك ما جعل المبادرة الفرنسية تقابل بالازدراء من قبل السياسيين والمعلقين على حد سواء. وبين الأكاذيب العديدة التي أطلقها جورج بوش في خطابه حول « حالة الاتحاد »، ثمة أكذوبة هي الأكثر فضائحية وفحشاً: تأكيده أنه « جرّب كل السبل الدبلوماسية لتفادي الحرب ». ولقد ذكّر الحاضرين بجهود الرئيس الجزائري بن جديد، رغم أن الولايات امتحدة كانت هي التي ضغطت على السعودية لرفض لقائه، مجهزة بذلك على المبادرة في مهدها.

ولقد سال حبر كثير في وصف « المجتمع الدولي » ووقوفه صفاً واحداً ضد الشرّ القادم من بلاد ما بين النهرين. لكن النزر اليسير فقط قيل عن تلك المجموعة المنعزلة من الدول التي تقرع طبول الحرب ليل نهار، تلك « الأقليّة الصغيرة جداً في العالم » كما اعترفت « الفاينانشيال تايمز » بصراحة في عددها الصادر بتاريخ ١٩ كانون الثاني. تقرير واحد مفيد لم ينشر حول تلك العزلة، في حين انكبت صحافة الغرب على استدراج ونشر سيناريوهات حربية يراد منها تهيئة الرأي العام لتقبّل المذابح الشاملة القادمة. العديد من تلك التقارير، التي ذهب بعضها إلى حدّ التنبؤ بأزمة لا تستغرق أكثر من ثلاثة أيام، نهض على المفاخرة والزهو بالمقاتل الغربي وتحقير المقاتل العراقي.

وبينما كان الحماس يغمر صانعي الرأي العام والضباط المتقاعدين أثناء شروحاتهم ونظرياتهم حول الحرب، كان الساسة يطالبون رجال الدين بمباركة « الحرب العادلة » واسباغ زخم روحي سامٍ على من يشنّها. لكن رعايا أبرز

الكنائس الأمريكية أدانوا خيار الحرب، مع بعض استثناءات متوقعة صدرت عن أمثال برنارد كاردينال لو الذي تنبع رؤيته من حماسه المفرط لتعميم ممارسات الملكة الاسبانية ايزابيلا، مؤسسة محاكم التفتيش وحرق المسلمين واليهود، ومعلّمة كريستوفر كولومبوس. في بريطانيا كان الأساقفة أكثر تأقلماً. أسقف كانتربري روبرت رانسي أوصى أبناءه بالحرب العادلة، مؤكداً أن «هنالك حقيقة جارحة في التاريخ الانساني هي أن استخدام القوة قد سبّبته الفضائل الانسانية مثلما سببه الضعف».

والتاريخ الوطني يحدّد شروط الموقع الأخلاقي. رئيس أساقفة سائر إرلندا، الدكتور كاهل دالي، صرّح أن مبدأ «الحرب العادلة» غير وارد، واننا «بدأنا بالحديث عن الضربات الجراحية متناسين الجثث والأشلاء والضحايا الساقطة على الأرض». والبابا من جهته عبّر عن معارضته للحرب.

الصحيفة الغربية الأساسية الوحيدة ـ على حدّ علمي ـ التي اتخذت موقفاً صريحاً واضحاً مناهضاً للحرب هي «صنداي تريبيون» الصادرة في دبلن، وصحيفة الأحد الجدّية الوحيدة في إرلندا. واذا بدت مصطلحاتها المرجعية واقتباساتها على درجة غير عادية من البساطة، فلأنها تبرر بالتالي درجة انحطاط النقاشات الدائرة في الافتتاحيات، سيّما اذا وضعنا في الاعتبار تفاصيل ودقائق الذبح الجماعي باسم «المصلحة القومية» في السياق الذي وضعه تشرشل من قبل. في عددها بتاريخ ٢٠ كانون الثاني بدأت «التريبيون» بالاستشهاد برسالة سيدة إرلندية تصف موت ابنتها في حادث على جسر خارج دبلن أثناء تأدية حركات رياضية، إلى أن تقول:

«في ذلك الصباح (حين ماتت جولي) لا بدّ أن مئات أو آلاف الأمهات العراقيات كنّ يبكين بناتهن اللواتي لم يقتلن نتيجة فعل مارسنه بارادتهن، بل بواسطة قنابل تسقطها القوات المتحالفة من السماء. هذه هي حقيقة الحرب في الخليج. انها تلحق أفدح الخسائر المادية والعاطفية المؤلمة بشعب بريء تماماً... لا فائدة من القول أن هؤلاء لم يكونوا ضحايا عن سابق تصميم، فالحقيقة تشير إلى أن القصف الذي ينفذ هناك ينطوي حكماً على عاقبة معروفة سلفاً هي الحاق الأذى الفادح بشعب بريء تماماً (العقيدة الكاثوليكية المتعلقة بالأثر المزدوج، حيث تكون ممارسة ما سليمة اذا كانت النية سليمة حتى اذا كان معروفاً مسبقاً أنها ستكون ضارة قطعاً، تلك العقيدة كانت جزءاً سيئاً من الفقه الأوغسطي، وأفسدت الجدال الأخلاقي). القول بأنه لم يكن هنالك مفرّ من الحرب هو لعب

بالألفاظ وبالحساسيات والعقول. كان يمكن تفادي الحرب قطعاً، لو شاء الحلفاء أن يتفادوها بكل بساطة. لقد حاولت القوات المتحالفة أن توهم العالم «ببذل كل ما هو مستطاع لتجنّب الخسائر في صفوف المدنيين». ذلك هراء مرة ثانية، وانتهاك للمفردات وللغة. من الواضح أنه ما من اجراء جوهري يبذل لتفادي الضحايا المدنيين، لأن «كل ما هو مستطاع» لا بدّ أن يتضمن الامتناع عن قصف بغداد على سبيل المثال».

«السلام يعمر قلبه»:

بعد أن أطلق أول صاروخ على العراق، وضع الرئيس الأمريكي نفسه في تناظر أخلاقي مع خصمه العراقي. لقد أعلن صدام حسين أن قرارات الأمم المتحدة، والالتزامات الدولية المعلنة على مدى سنوات عديدة بشأن أراض احتلتها أو ضمّتها اسرائيل، ذهبت أدراج الرياح، وأن القوة المسلحة هي وسيلته الوحيدة. جورج بوش من جهته أعلن الشيء ذاته بعد أن أعطى نفسه فسحة زمنية وجيزة قبل نفاذ صبره (يبدو واضحاً أنه استقر على خيار الحرب في مطلع أيلول على الأقل، وربما في الأسبوع الأول من آب)(*). ولانجاز حالة التكافؤ، كان لا بدّ لصدام حسين أن يمتلك أسلحة «ذكية» معنوية مثل تلك التي أسقطت على العراق، بدلاً من صواريخ «سكود» التي أنزلت بإسرائيل - في نهاية الأسبوع الأول - خسائر تقلّ كثيراً عن تلك التي ينزلها الجيش الاسرائيلي بالفلسطينيين خلال نهار نشط واحد في الضفة الغربية. قد يتعاطف المرء مع التقارير التي تتحدث عن رعب الاسرائيليين في ملازمتهم للغرف المختومة وأقنعة الغاز، في حين تغمر البهجة الفلسطينيين. غير أن القليل من الصحفيين، وما من اسرائيلي واحد بالطبع، التفت الى الفلسطينيين المحتجزين في بيوتهم يوماً اثر آخر بفعل منع التجول، والمعرّضين إلى التفريق بالغاز، والتعذيب في السجون، وهدم بيوتهم بدقة تفوق كثيراً دقة صواريخ «سكود». منذ أن بدأت الانتفاضة، يقدّر

* في كتابه «القادة» The commanders يتحدث بوب وودورد (المحرّر النافذ في صحيفة «واشنطن بوست» والذي كشف فضيحة ووترغيت) عن أسرار فريق جورج بوش خلال الأزمة، ويذكر أن الرئيس الأمريكي وقّع الأمر الاداري السري للغاية الذي يحدّد توقيت بدء الحرب (الساعة الثالثة من صباح ١٧ كانون الثاني) بتاريخ ٢٩ كانون الأول. ولقد بُلّغ الأمر إلى شوارزكوف على الفور، وقبل استنفاذ فرص السلام والعديد من المبادرات. (المحرر).

«المركز الاعلامي حول حقوق الانسان في فلسطين» وأحد أفضل مراكز حقوق الانسان، أن ٩٠٠ فلسطيني قتلوا وكان بينهم ٨٨ خنقاً بالغاز، كما دُمّر ١٧٢٦ منزل.

مثل تلك التناظرات (أو التعارضات) الأخلاقية لم تثر حفيظة المعلّقين الغربيين أو تعكّر صفو تفكيرهم. جيم هوغلاند، الذي سرعان ما برهن أنه أحد أسخف وأهزل المعلّقين في العالم الناطق بالانكليزية، أعلن ما يلي لقرّاء .. واشنطن بوست:

«الحرب تؤسس لمصداقية أمريكية في الشرق الأوسط عجزت الدبلوماسية لوحدها عن تحقيقها. أسبوع واحد من الحرب أسسّ لوضع صلب من الاستقامة الأمريكية وعلوّ الشأن غاب عن قرنين كاملين من «عملية السلام» .. ليس ثمة اشارة أكثر وضوحاً من هذا على أن عملية «عاصفة الصحراء» تسير في الاتجاه القويم».

في هذه الأثناء كانت وزارة الخارجية الأمريكية توالي اصدار النشرات التي تحذر الأمريكيين من ارتياد أية بوصة في العالم المسلم. وفي «ضربة معلّم» لم يسبق لها مثيل في تاريخ الجهد العسكري والدبلوماسي، كان الرئيس الأمريكي يوحّد شعوب الخليج والهلال الخصيب وشمال أفريقيا والفيليبين وشبه الجزيرة الهندية وأندونيسيا وماليزيا في اطلاق أقذع الألفاظ ضد ممارسات بلاده.

في بغداد نفسها، لم يطل الوقت حتى وحّد القصف السكان وراء رئيس كان العديد منهم يبغضه. كان شقيقي باتريك يقيم في فندق «الرشيد»، وسرعان ما لاحظ التبدّل بعد الأيام الأولى من بدء القصف. ولقد كتب في صحيفة «اندبندنت» يقول: «لعلّ العراق سيشهد في عام ١٩٩١ حملات قصف شبيهة بالتي شهدتها بريطانيا ١٩٤٠ ـ ٤١، وألمانيا ١٩٤٢ ـ ٤٥، وفييتنام ١٩٤٦ ـ ٧٥، ولبنان ١٩٨٢ ـ ٨٤. في كل هذه الحالات بدا القصف الجوي مغرياً كوسيلة لإنزال أفدح الخسائر بالعدو مع خفض خسائر الصديق إلى حدودها الدنيا. لا ريب في أن التعرّض للقصف مسألة رهيبة، لكنه تهديد على درجة من التعميم بحيث يخلق الأعداء أكثر مما يؤذي. في يوم الأربعاء كان العديد من العراقيين يقول بأن دخول الكويت مسألة تعني صدام وحده ولا تعنيهم. في نهاية الأسبوع بات من المستحيل على المرء أن يعثر على عراقي واحد لا يؤمن بأن العراق سوف، ويجب أن، يقاتل».

و«الحرب العادلة» تتلاقى مع كل وهم ذاتي يستولي على من يشنّها، مثلها

مثل وهم قادة الغرب المسيحيين بأن العدو هو صدام حسين وحده، وأن جميع قواته على وجه التقريب مقيدة إلى سلاحها بسلاسل مثلما كان الجنود الألمان في خنادقهم حسب الخرافة الدعائية الغربية خلال الحرب العالمية الأولى. في خطط القادة العسكريين الغربيين - كما في خطط إمّعاتهم من المعلّقين - ثمة فراغ يشغله البشر. لا يوجد عراقيون أو أكراد أو تركمان، ولهذا فما من داعٍ إلى العذاب الخلقي عند اسقاط قنبلة تدمير جماعي على ذلك الفراغ...

وحين انتقلت الخطابة اللفظية الغربية من هدف اخراج العراق من الكويت إلى هدف ابادة العراق كمجتمع حديث ومحاكمة واعدام زعيمه، لم يرتفع ضجيج كبير (باستثناء العالمين العربي والاسلامي بأسرهما، حيث بلغ السخط درجة منذرة بالخطر جعلت الولايات المتحدة - بالتواطؤ مع الاتحاد السوفياتي - تتراجع قليلاً وتلمّح إلى امكانية الربط). ومن موقع مكانته الفخمة كموظف سابق في وزارة الخارجية كتب توماس فريدمان في «نيويورك تايمز» متحدثاً بهدوء عن أن «المؤرخين سيتساءلون ذات يوم ما اذا كانت ادارة بوش محقة في جعل تحرير الكويت هدفاً أساسياً للحرب بدلاً من التركيز جوهرياً على إبطال القدرات الهجومية للعراق [ويقصد القول: اعادة العراق بوسيلة القصف إلى العصور الوسطى]، وهو في نهاية الأمر التهديد الحقيقي للاستقرار في الخليج، والتهديد الحقيقي لمصالح الولايات المتحدة استطراداً».

هكذا تكون الحرب العادلة! العالم المسيحي يعود إلى حيث بدأ عام ١٩١٩، مجرّباً «التأثير الأخلاقي» للأسلحة عالية الانفجار، وقذائف الغاز على البداة. التوازيات مدهشة في دقتها، حتى لتكاد تخيّم على المشهد الحالي، كما يوضح العمل التاريخي الشامل «القوة الجوية والسيطرة الاستعمارية» للباحث داڤيد أوميسي (مطبوعات جامعة مانشستر، ١٩٩٠). في مسعاه اليائس لاستعادة مستقبله السياسي الشخصي، كان تشرشل متلهفاً لضمان السيادة البريطانية على حقول النفط في بلاد ما بين النهرين. وسلاح الجو الملكي الناشيء كان متلهفاً بدوره لاثبات جدارته وضمان شريحة ضخمة من ميزانية الأسلحة المخصصة للجيش والبحرية. الحكومة البريطانية بدورها كانت تخشى دنو الركود الاقتصادي، فأرادت تحقيق التوسع الاستعماري بأرخص الأثمان سواء في المال أو الأرواح. يقول أوميسي: «ان خفض عدد الحامية، وترقية فيصل [الدمية التي نصبها البريطانيون في بغداد تحت اسم ملك العراق] ودفع التعويضات للحكام العرب وشراء الرضوخ الفرنسي كانت عوامل لستراتيجية واحدة من

الحكم غير المباشر تستهدف خفض أثمان السيطرة الامبريالية على العرا
بذلك بدأ أبناء القبائل والأكراد والعرب في استقبال القنابل... وبذلك أ
جرى الاحتفاظ بالعراق لصالح رجال النفط وجباة الضرائب الذين جدّدوا الث
العثمانية السابقة.

في إحدى رسائله قال جون دون ذات مرّة: «الكلمات هي مخلوقاتنا الخار
الأكثر حساسية وذكاء، باعتبارها تنشأ عن الأفكار والأنفاس». دعون
نختم بكلمات السير بيرغرين وورستهورن في عدد ٢٠ كانون الثاني
«صنداي تلغراف»:

«الأمر يبدو وكأن صدام حسين قد أعطى الغرب من جديد فرصة لاست
نفوذ لا ينازع بطريقة عصية على التشنيع الأخلاقي والمقاومة العسكرية. لي
قواتنا وحدها هي التي سادت على نحو بديع، بل أفكارنا أيضاً. لا شيء ي
إلى الأبد. آجلاً أم عاجلاً سيلقي العالم الثالث في وجوهنا تحديات جد
ولكن اذا انتهت حرب الخليج كما بدأت، فلن يكون هناك ريب في هويّة
المرحلة، وحتى جيل آخر على الأقل. لدينا شعاع الليزر، وليس عندهم م
وصاحب القول الفعل ليس الألمان أو اليابانيون أو الروس، بل الأمريكيون
سواهم. ها هي الأيام السعيدة تعود من جديد. مبارك أن يعيش المرء
الفجر، أما أن تكون رجعياً عتيقاً فأنت عندها في سابع سماء».

حين كان أخي يغادر بغداد في رحلة تدوم ١٢ ساعة إلى الحدود الأردنية
بمكتب بريد دمرته القنابل. لقد ضُرب تدميره كمثل على الدقة العا
للتكنولوجيا العسكرية الغربية. ناظراً إليه من وجهة نظر مواطن عراقي أو ع
أو أي مواطن من العالم الثالث، تذكّر أخي وهو يستعد للعودة من جديد
بغداد في ٢٩ كانون الثاني مركز بريد دبلن الذي دمّره البريطانيون بدقة
في عام ١٩١٦ وهم يقمعون انتفاضة عيد الفصح. عند البريطانيين كان
البناء مجرّد مركز بريد... وبهذا المفهوم بالذات أعطى الغرب صدام ح
حربه العادلة.

e Nation
bruary 18, 1991

حوافز الحرب الاقتصادية

■ توماس فيرغوسون

في شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، وبعد يوم من انتهاء الانتخابات، رفع جورج بوش مخاطر الوضع في الخليج حين زاد عدد القوات الأميركية بمعدلات عالية. بعد يومين ألغى تبديلات مقررّة في صفوف القوات المرابطة في السعودية. ثم تحول « درع الصحراء » إلى « عاصفة الصحراء ».

آلاف البقع الضوئية مقدّرلها أن تتفجر على نحو عاصف في سماء شرق السويس، مفجرة معها قطاراً لا يمكن تخيّله من الانتفاضات. بيد أن منطق « درع الصحراء »، ومقامرة الرئيس القائمة على مبدأ « الضعف أو لا شيء » خصوصاً، تبدو مسألة محيّرة. لماذا العجلة؟ مع تكاثر البراهين على أن العقوبات الاقتصادية تفعل فعلها، لماذا لم تهدىء الادارة الأمور قليلاً؟

لكي نفهم الأسباب التي جعلت عملية « درع الصحراء » تظهر بوجهها السافر، يتوجب البدء بما يلوح أنه بدهية بسيطة مفادها أن التورط الأميركي في المنطقة يتصّل بالنفط أولاً وأخيراً. انه قول قريب بما يكفي من الحقيقة، حتى ليصعب اعتباره مضلّلاً على نحو جدّي. ومن الطبيعي أن النفط في الشرق الأوسط هو العامل الذي يجعل المنطقة هامة وثمينة. ولكن الضرورة تقتضي أن نعرف الشكل المحدد لدخول هذه الثروة في اقتصاد العالم.أكثر من محلّل واحد، خصوصاً من كان بينهم في الجناح اليميني من الحزب الجمهوري، يدرك أن نفط الشرق الأوسط كمصدر للطاقة يهمّ أوروبا واليابان أكثر بكثير مما يهّم الولايات المتحدة، وأن التدخل الأميركي هو حماقة صريحة تبلغ حدّ دعم المنافسين.

تلك نظرة ساذجة. قبل كل شيء، لأن موارد المنطقة النفطية تهّم الحلفاء على وجه التحديد، قامت الولايات المتحدة بإظهار قدرة فريدة على تشكيل مشروع قوة داخل المنطقة يؤمن لها رافعة هائلة في مفاوضاتها مع الحلفاء حول الامتداد التجاري الأميركي إلى أوروبا الشرقية واليابان مثلاً. ليس أقلّ أهمية أن طاقة العالم الانتاجية تكمن في تلك المنطقة، وسيظلّ صحيحاً أن الدولة التي تنجح في

بسط سيطرتها عليها هي الدولة القادرة على امتلاك قوة مطلقة لفرض سعر النفط.

أكثر دلالة أيضاً أن مبيعات النفط إلى أوروبا واليابان تولّد فائض قيمة مالياً. فوائض القيمة المالية هذه ينبغي أن تعوّم بطريقة تحيلها إلى مدخرات ثم استثمارات. وفوائض البترودولار في الدول النفطية الشرق أوسطية لم تعد تمثّل نهر أمازون العالم الرأسمالي (ويعود التصميم هنا إلى فائض التجارة اليابانية مع الولايات المتحدة)، ولعلها لا ترقى أيضاً إلى مستوى نهر النيل (كما هو حال الأموال المتراكمة التي تكنزها ألمانيا). بيد أن الخليج يرقى بالتأكيد إلى مستوى نهر المسيسيبي، أبو المياه المالية الذي ما يزال يتدفق بجلال صوب نيويورك ولندن (حيث تملك كبريات المصارف الأميركية فروعاً هناك، يعاني معظمها من متاعب جدية).

ورغم تنويع المستثمرين العرب لأموالهم على نحو ذكي، فإن كتلة الفائض ما تزال تدور في حلقة المؤسسات الأميركية والبريطانية. فضلاً عن ذلك، تتابع الدول العربية تسعير نفطها بالدولار، وهي حقيقة بالغة الدلالة لدور الدولار العالمي لا تقل عن دلالة قانون الثقالة في النظام الشمسي.

ولا بد أن يكون واضحاً سبب احجام الولايات المتحدة عن قبول خيار نشر قوات متعددة الجنسيات في بدء دخول صدام حسين إلى الكويت. في عالم التسعينات الحقيقي يصبح بديهياً أن من يدافعون عن حصن النفط سيكون لهم سيادة الأمر الواقع على كنز عربي يفوق بما لا يقاس أجراً أحلام علاء الدين. الولايات المتحدة وبريطانيا، تدفعهما ضغوطات أوروبا متمردة ويابان عاصٍ، لم تكن لديهما أية نيّة في تدويل الفائض.

وإذ قررت الادارة الذهاب حتى نهاية الشوط، كان لا بدّ لها أن تذهب إليه بانتشار ضخم لا سابقة له، إذ أن ارسال قوات محدودة سيخلق توترات هائلة في البنى السياسية لدول الخليج دون أن يزوّد الولايات المتحدة أو تلك الحكومات بأية وسيلة لمواجهة مخاطر التصعيد.

ذلك يقودنا إلى اللغز الكبير: لماذا لم تقرر الادارة كسب الوقت واعطاء العقوبات الاقتصادية فرصة التأثير؟ الجواب مباشر بقدر ما هو صاعق: كسب الوقت يكلّف أموالاً حقيقية، وهذا ما لا تملكه الادارة...

في اللحظة الراهنة تحلّق نفقات «درع الصحراء» مثل عصافير صغيرة. ذلك يعود إلى أن تلك التقديرات باتت أسلحة في الجدل السياسي الدائر. معارضو

الحرب يقدمون تقديرات عالية، ومشايعو الادارة يردّون بأرقام متدنية. لكن النظام الحقيقي لنطاق تلك التكاليف يظلّ واضحاً على الأقل. في العودة إلى تاريخ ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) قدّر «مركز المعلومات الدفاعية» في واشنطن أن «درع الصحراء» كانت تكلف ٧٤ مليون دولار يومياً (حوالي ٢٧ مليار في السنة). بعد ذلك طرأت زيادة هامة على عدد القوات، واضطرت الادارة إلى دفع نفقات عالية لقاء الخدمات التي كانت تطلبها على عجل. فوق ذلك، لا تضع تلك الأرقام في الاعتبار المصاريف الخرافية، التي تبلغ مليارات الدولارات، والتي رصدت لبلدان العالم الثالث ذات الاقتصادات المتضررة من الأزمة.

في يوم من الأيام كان الاقتصاد الأميركي قادراً على تحمّل هذه النفقات بسهولة نسبية، لكن ادارة بوش تواجه اليوم عجوزات قياسية في الميزانية، في حين يتوالى ورود الفواتير المستحقة لقاء كارثة الادخار والقروض، واصلاح نظام الرعاية الصحية، والتنظيف النووي، وعدد لا يحصى من الاختلالات البيئوية. وخط المستحقات التي تتطلب انفاقاً جديداً يمتد ويتسع: مدن مفلسة، أوروبا الشرقية، أميركا الوسطى، البنية التحتية المهترئة، التعليم، وسوى ذلك. على رأس الهرم من ذلك كلّه، تدخل الولايات المتحدة في ركود اقتصادي وسط تقارير يومية حول مصاعب جديدة في النظام المالي. (لكن الأزمة تساعد بعض المصارف الكبرى. وبعض المؤسسات تبدو مدركة لحقيقة أن صديقاً يعمل في «الوكالة المالية السعودية SAMA» وكان قبل ذلك مساعد وزير الخزانة داڤيد ملفورد، يمكن أن يكون الصديق وقت الضيق. مثل هذا «الاعتماد المعكوس» يساعد جوهرياً في اطفاء شكوك رجال الأعمال السابقة حول سياسة الولايات المتحدة). كان ثقل هذه الاعتبارات يجثم على صدر ادارة بوش حتى أيام معدودات قبل اعلان شهر تشرين الثاني (نوفمبر) الصاعق. في كارثته السياسية الأكبر حتى الآن، خسر جورج بوش معركة الميزانية داخلياً. بمقدوره الآن - ومعه جميع مستشاريه - أن يكون متأكداً من أن أية طلبات لإنفاق جديد أو ضرائب جديدة (لا سمح الله) سوف تكون كفيلة بقسم حزبه والهبوط بمعدّل غالوب إلى أسفل سافلين.

حينذاك كانت الادارة تعرف أيضاً أن اسهامات الحلفاء لن تبلغ درجة دفع الفاتورة، وهي التي تحول أسباب سياسية عميقة دون معرفتها بمن يجني أية مكاسب تحت أية نفقة من وراء «درع الصحراء». بذلك تُركت السعودية

والكويت ودول الخليج الأخرى كمصدر وحيد للتمويل.

لا السعودية ولا الكويت على استعداد لتمويل اسهاماتها عن طريق تصفية موجوداتها المالية، ومن الناحية العملية يتوجب تمويل دعمهما لعملية «درع الصحراء» عن طريق الدخل الحالي. لكن ذلك يعتمد على سعر النفط، ولهذا احتاجت ادارة بوش لإبقاء سعر النفط مرتفعاً اذا كانت ترغب في تفادي الرجوع إلى الكونغرس طلباً للمزيد من المال. لقد فعلت ذلك عبر ذريعة بسيطة هي ردّ طلبات اللجوء إلى احتياطي النفط الستراتيجي وجعل الطلب القلق يرتفع إلى السعر العالمي في البداية.

لكن الخطوة لا تشكل حلاً بعيد المدى. ورغم أن أسعار النفط تفور كلما لاحت مخاطر حرب، فإن النفط وافر في السوق العالمية والاتجاه العام كان يميل نحو خفض الأسعارمنذ وقت بعيد.

النطاق الواسع لمعضلة الادارة في تشرين الثاني (نوفمبر)، يبدو واضحاً الآن. من وجهة نظرها، كان يحلو لناقدي سياساتها في الداخل وللحلفاء في أوروبا واليابان أن يوصوا ببقاء الجيش قابعاً في الصحراء لستة شهور أو أكثر. ولكن من الذي سيدفع النفقات المتزايدة يوماً بعد آخر؟

استبعدت الادارة أن يظلّ التحالف «متماسكاً» إلى ما شاء الله، ولهذا قررت اللجوء إلى الإفلاس لكي تتجنب الإفلاس فعلياً (أو الرجوع إلى الكونغرس بمعنى أدق). وفي تحقيق مبكر حول الميزانية القادمة لاحظت صحيفة «بوسطن غلوب» أن «اقتصاديي الادارة يعترفون بأن مشروعاتهم تفترض حدوث نهاية سريعة نظيفة لأزمة الخليج، ويقرون أنه اذا ما حدث العكس فإن مشكلات البلاد الاقتصادية سوف تتفاقم».

ماذا تقول حكمة أن كسب الوقت يكلف مالاً حقيقياً في مبادرات السلام القائمة الآن على قدم وساق حين تسير عقارب الساعة إلى النهاية المحتومة؟ لا شيء يبعث على التفاؤل، ومن المؤكد أن موعد ١٥ كانون الثاني (يناير) ليس برهة سحرية. لا توجد ضائقة مالية على درجة من الشدّة بحيث يمتنع معها أي تأجيل لبضعة أسابيع أو حتى شهور، عن طريق ادراج الإنفاق الجديد في العجز.

ولكن اذا شاءت الولايات المتحدة تفادي المواجهة العسكرية لبعض الوقت، فثمة من سيلتقط المبادرة بالنيابة عنها. هنا لاحت بارقة أمل. خلال زيارة دان كويل للشرق الأوسط سيطلب نائب الرئيس من السعوديين والكويتيين المزيد من الأموال، حسب صحيفة «نيويورك تايمز»، «بسبب احتمال بقاء القوات

الأميركية في الخليج زمناً أطول مما كان مقرراً من قبل».

أسعار النفط هبطت، والسعوديون والكويتيون وسواهم من الدول الخليجية المنتجة يريدون خروج القوات الأميركية بأسرع وقت ممكن بحيث يكون لديهم باعث محدود على تقديم التزامات مفتوحة حول نفقات اضافية. (وهذا الحكم يقوم على افتراض الادارة ذاته: «حرب قصيرة ظافرة»). ذلك هو أيضاً الاحتمال المتوقع بالنسبة لليابان والسوق الأوروبية المشتركة، إذ سيتركز سعيها على التشبث بالسلام أطول وقت ممكن وبقدر ما يتاح لها من مجال. أما اذا حصل الخيار الآخر فإنها ستسارع إلى الانضواء تحت المظلة الأميركية بحجة «الحفاظ على التحالف»، وستفرك أيديها مطوّلاً.

هل يستطيع العراقيون تفادي الكارثة بسحب قواتهم جزئياً أو كلياً من الكويت؟ هنا يتجلى تحليل «عاصفة الصحراء» بمصطلح النفقات لا كما تجلّى في سياقات أخرى. ترى الادارة الأميركية وجوب تدمير صدام حسين وآلته العسكرية والتكنولوجية، فالقوات الأميركية لم تتجشم كل هذا العناء لكي ينقض صدام حسين من جديد اثر رحيل القوات إلى بلادها.

يسهل علينا لسبب كهذا أن نفهم لماذا أطلقت الادارة تسمية «سيناريو الكابوس» على جهود اللحظات الأخيرة الهادفة إلى ايجاد حلّ سلمي. ان احباط هذه الامكانية، التي أعرب بوش عن رفضه الصريح لها، وتبعه في ذلك عدد من كبار أصحاب المصارف، تفسر على نحو مؤكد اصرار الادارة على تقديم موعد المفاوضات.

يضاف إلى ذلك أن التسوية السلمية ستعيد العراق والكويت إلى السوق النفطية، ربما لكي يتمكن العراق من تسديد ديونه المستحقة للسوق الأوروبية ولدائنين آخرين. لكن رئيس منظمة الأوبك لاحظ في نهاية العام الفائت أن هذه الخطوة ستشكل ضغطاً هائلاً على السعر باتجاه الانخفاض. وحتى اذا تمكّن السعوديون من التعويض جزئياً عن طريق خفض انتاجهم، فإن عوائدهم ستهبط مضيفة ضغطاً جديداً باتجاه انسحاب القوات الأميركية.

نبوءات قاتمة... وإذ تدق الساعة في الخليج، دعونا نأمل في أن أحد المرابطين في البيت الأبيض سيتذكر أن النفقات الهائلة لهذه المغامرة لن تظهر أبداً في بنود الميزانية.

The Nation,
January 28, 1991

لماذا الحرب؟ الخلفية الستراتيجية

■ جو ستورك
■ آن ليش

منذ الخامس من شهر آب ١٩٩٠ شهدنا أعظم وأسرع تعبئة عسكرية أمريكية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. في مطلع تشرين الأول (أكتوبر) وأكثر من ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل أمريكي في السعودية والخليج يتقاضون أجور انتشار قتالي. ولقد أعلن الرئيس بوش أن هذا الانتشار ضروري للدفاع عن السعودية، لكن حجم وتشكيل القوات الأمريكية يرقى إلى مستوى الفعل العسكري الهجومي ضد العراق.

لماذا تقف الولايات المتحدة على شفير حرب ستكون بمثابة فجيعة لشعوب المنطقة والولايات المتحدة على حد سواء؟ تؤكد ادارة بوش أن القضايا واضحة ومستقيمة: عدوان ودفاع عن النفس. غير أن حجم وتوقيت التدخل العسكري الأمريكي غطّى على أهمية مسألة العدوان العراقي والسيادة الكويتية - ضمن مسألة أخرى أوسع هي حق العرب في تقرير شؤونهم ضد جهود واشنطن لفرض هيمنتها على منطقة الخليج والعالم العربي.

أربع مسائل متقاطعة هي على المحك في نظر شعوب الشرق الأوسط:

(١) شرعية النظام السياسي والاقتصادي القائم في المنطقة، والتي تسعى الولايات المتحدة إلى الحفاظ عليه، والذي يبدو أن العراق يتحدّاه.

(٢) السيطرة على ثروات المنطقة، والنفط خصوصاً، والتحكم في توزيع مواردها.

(٣) حلّ المعضلات المتأصلة، سيما النزاع بين اسرائيل والفلسطينيين والدول العربية.

(٤) حالة التنافس بين الدول العربية للسيطرة على مقدرات المنطقة.

تزعم بغداد أن الكويت جزء من العراق. هل يمتلك هذا الزعم أساساً واقعياً؟

هل الكويت كيان مصطنع خلقته الامبريالية البريطانية؟ بعد الحرب العالمية الأولى، التي شهدت هزيمة الامبراطورية العثمانية، رسمت القوى الأوروبية معظم حدود الشرق الأوسط بما يلائم مصالحها السياسية والتجارية المتضاربة، مرتكزة في ذلك على التقسيمات الادارية العثمانية الفضفاضة التي كانت قائمة. ذلك يصحّ على العراق أيضاً، خصوصاً ضمّ بريطانيا لاقليم الموصل (الغني بالنفط وذي الأغلبية السكانية الكردية) إلى العراق عام ١٩٢٦. غير أن المدافعين عن مزاعم العراق حول الكويت لا يوافقون على أن تصبح الموصل جزءاً من تركيا أو سوريا، أو كردستان مستقلة. المنطقة التي تشكل الآن جنوب العراق والكويت كانت واقعة تحت السيادة الاسمية للامبراطورية العثمانية وعاصمتها القسطنطينية (اسطنبول الحالية). مدينة الكويت كانت جزءاً من محافظة البصرة، لكن السلطات العثمانية لم تكن تمارس سوى القليل من السلطة على تلك المحافظة. استغلّت بريطانيا هذا الضعف العثماني لتبسط نفوذها السياسي والتجاري على الخليج بأسره، بما فيه ايران.

كانت الكويت لا تختلف كثيراً عن الكيانات القبلية القاطنة على شواطىء الخليج، في عام ١٧٠٠ استقّرت مجموعة قبائل في مدينة الكويت خلال بحثها عن الماء والمراكز التجارية، قادمة من منطقة نجد التي هي اليوم الجزء الشمالي الأوسط من السعودية. في نهاية القرن برز آل الصباح كأسرة حاكمة، واستمرار حكمهم طيلة قرنين يميّز الكويت عن غيرها من الاستيطانات حيث كانت السلطة السياسية أقلّ صلابة.

خلال هذه الفترة بات التدخل الأوروبي سمة مركزية في الخليج، وكان ذلك نتيجة استعمار بريطانيا للهند أساساً. في عام ١٨٩٩ وافق مبارك الصباح، أبرز شيوخ الأسرة، على عدم التنازل عن أية أراضٍ، أو منحها أو بيعها إلى أي طرف آخر دون موافقة بريطانيا، مقابل ١٥,٠٠٠ روبية. كانت دوافع البريطانيين تنبع من ازدياد تنافسهم التجاري والسياسي مع ألمانيا وروسيا، وكان آل الصباح راغبين في استخدام السلطة البريطانية للمناورة مع العثمانيين من جهة، ومواجهة التوسع العدواني لآل سعود في الجزيرة العربية من جهة أخرى.

بقيت الكويت محمية بريطانية حتى بعد أن أصبحت بغداد والبصرة تابعتين للعراق بموجب انتداب عصبة الأمم، في مطلع العشرينات، تحت السيطرة البريطانية، وحتى بعد أن ثبّت ابن سعود أركان حكم أسرته في معظم أجزاء الجزيرة العربية. في عام ١٩٢٢ رسم القنصل البريطاني في الخليج السير بيرسي

كوكس الحدود بين الكويت والعربية السعودية والعراق من طرف واحد، واضعاً بعض الاراضي التي طالب بها آل سعود ضمن حدود العراق، ومضيفاً، إلى العربية السعودية مساحة كبيرة من الأراضي التي يعتبرها الكويتيون تابعة لهم. ولقد تقصدت حدود السير بيرسي كوكس أن تحرم العراق من أية اطلالة على الخليج.

استقل العراق رسمياً عام ١٩٣٢، غير أن النفوذ البريطاني ظلّ قائماً حتى الثورة الوطنية عام ١٩٥٨. في أواخر الثلاثينات شنت الأسرة الملكية الحاكمة في العراق سلسلة حملات غير موفقة لاستعادة الكويت. وحين استقلت الكويت رسمياً عام ١٩٦١ جدّد الزعيم العراقي عبد الكريم قاسم المطالب العراقية بطريقة عجيبة، وذلك بتعيين أمير الكويت حاكماً على محافظة البصرة. ردّت بريطانيا بارسال قوات كانت ترابط في كينيا، استبدلت بعد ذلك بقوات حفظ سلام تابعة للجامعة العربية. في عام ١٩٦٣ حضر العراق من جديد اجتماعات الجامعة العربية ومنظمة الدول المصدرة للنفط (أوبك) بعد أن قاطعها بسبب حضور الكويت كعضو مستقل، وفي تشرين الأول (أكتوبر) من ذلك العام اعترفت بغداد باستقلال الكويت.

لم يعاود العراق مطالبته باستعادة الكويت سوى في آب ١٩٩٠ حين غزاها. غير أن العراق لم يوافق على ترسيم حدود لا تمنحه وجوداً على جزيرتين خارج الكويت هما «بوبيان» و«وربا» تمنحانه اطلالة على مياه الخليج. في مطلع السبعينات أقدم العراق على توسيع انتاجه النفطي وطاقته التصديرية، وأراد بناء ميناء أم القصر كبديل عن منفذ شط العرب على الخليج، والذي يشترك فيه مع خصمه الرئيسي ايران. وأدّت مطالب العراقيين حول الجزيرتين إلى مناوشات حدودية في ربيع عام ١٩٧٣.

طالب العراق باستئجار الجزيرتين في مرحلة حربه مع ايران، لكنَ الكويت رفضت الطلب رغم أنها سمحت للعراق بانشاء مراكز مراقبة مدفعية خلال المعارك الحاسمة عامي ١٩٨٦ و١٩٨٨. قدمت الكويت للعراق مساعدات اقتصادية كبيرة خلال الحرب، كما قامت بوظيفة ميناء العراق الأساسي حين أغلقت البصرة بسبب ظروف القتال.

في أعقاب وقف اطلاق النار مع ايران في آب ١٩٨٨، ضاعف العراق جهوده لتطوير المنشآت في ميناء أم القصر. وخلال الفترة التي أفضت إلى غزو الكويت

ارتبط الحاح العراق على منفذ إلى الخليج بمعضلات اقتصادية أكثر تعقيداً أثارتها الكويت: اعادة تسديد ديون الحرب، ضخ النفط من حقل الرميلة الذي يمتد في عمق حدودهما المشتركة، وافراط الكويت في انتاج النفط مما قاد إلى هبوط السعر العالمي وانخفاض العائدات.

ادعاء العراق بحقه في أراضي الكويت لم يكن السبب في غزوه من قبل بغداد في آب ١٩٩٠. ما يضفي على الحجة العراقية طابعاً راهناً في العالم العربي لا يتصل بصواب هذه المطالب الحدودية بقدر ما يعود إلى الاحساس الطاغي بأن النظام السياسي والاقتصادي القائم في المنطقة ككل جرى انشاؤه والحفاظ عليه لخدمة أغراض القوى الغربية أساساً. وراء هذا التصور يكمن النفط. ان العديد من الترتيبات التي تتصف بها المنطقة - الحدود، الأسر الحاكمة، البنى الاقتصادية، وسواها - انما وجدت وتحافظ على وجودها بسبب ما يمثله النفط من حساسية للبلدان الغربية المصنّعة.

اكتشاف النفط في منطقة الخليج أمر سابق للحرب العالمية الثانية، غير أن المنطقة لم تنبثق كمنتج رئيسي سوى في الخمسينات. سبع شركات نفطية أمريكية وأوروبية عملاقة (تدعى «الأخوات السبع»)، هي التي تسيطر على صناعة النفط في الولايات المتحدة وبقية العالم، استأثرت بالسيطرة على نفط الشرق الأوسط عبر شبكة من التنازلات المعقدة. نفط الشرق الأوسط يجذب هذه الشركات بسبب نفقات انتاجه الزهيدة للغاية - بين ٥ إلى ١٥ سنت للبرميل. السعر العالمي للنفط (حوالي ٢,٢٥ دولار للبرميل في منتصف الخمسينات) حدّدته هذه الشركات على أساس نفقات الانتاج في الولايات المتحدة وسواها (حوالي ٢ دولار للبرميل آنذاك) وذلك بغرض تحقيق أرباح طائلة لا توفرها فرصة أخرى.

بروز الشرق الأوسط كمصدر أساسي للنفط تصادف مع نقلتين سياسيتين حاسمتين: نهوض الحركات القومية ونهاية السيادة الاستعمارية الأوروبية المباشرة، وأفول نجم القوتين البريطانية والفرنسية في المنطقة لصالح صعود الولايات المتحدة.

صناعة النفط دخلت في نطاق التحديات القومية للسيطرة الأجنبية. حين أمّم البرلمان الايراني مصالح شركة النفط البريطانية، أسهمت المقاطعة الغربية للنفط الايراني عام ١٩٥١ في تهيئة المناخ لانقلاب ١٩٥٣ الذي تمّ بتخطيط من المخابرات المركزية الأمريكية، وأعاد الشاه إلى العرش. استخدمت بريطانيا

والولايات المتحدة والشركات النفطية الانتاج العراقي والكويتي بديلاً عن الصادرات الايرانية. بعد حوالي عقد من الزمان، حين كان العراق يتصدر التحدي القومي للسيطرة الغربية، استخدمت الشركات نفط ايران والكويت لتغذية أسواقها، معاقبة العراق بالابقاء على انتاجه - وعائداته بالتالي - عند رقم منخفض. دور الكويت كان ذاته في الحالتين: خلال الفترة من ١٩٥٣ وحتى منتصف الستينات بقيت الكويت الدولة الأكثر انتاجاً للنفط في الشرق، وكان عدد سكانها يقارب نصف مليون.

توجهات الموقف الاقتصادي القومي - الذي باشرته ايران أولاً، ثم العراق وليبيا والجزائر وسواها من البلدان - أعادت تأطير الصناعة النفطية في العقدين الأخيرين. ورغم تلك التحوّلات فإن المطالب العراقية المثارة عام ١٩٩٠، حول زيادة الانتاج من قبل الكويت، تبدو معقولة للغاية في منطقة تختزن ذاكرة حادّة للدور الاستغلالي الذي لعبته الشركات والحكومات الغربية، وجرت العادة أن يتم بإذعان وتسليم من قبل النظام المحلّي المستفيد.

لقد أعاد النفط هيكلة السياسة والمجتمع في الدول المنتجة. قبل النفط اعتمد اقتصاد الكويت على التجارة والغوص بحثاً عن اللؤلؤ. نخبة تجارية صغيرة سيطرت على قوة العمل والموارد، وكانت متحدة هيكلياً ومستقلة عن الأسرة الحاكمة. الانقسام الاجتماعي الرئيسي كان بين الموسرين والأقل نفوذاً، بين أغلبية سنيّة وأقلية شيعية، بين سكان البلدات المتقدمين والأسَر العشائرية والقبلية.

عائدات النفط حرّرت الأسرة الحاكمة من تحالفها التقليدي مع النخبة التجارية. وكانت الأسر التجارية الثرية هي المستفيدة الأساسية من الخطط العديدة لإعادة توزيع العوائد، لكنها في سياق هذه العملية تخلّت عن دور سياسي رئيسي. تعاظمت سلطة الأسرة الحاكمة جوهرياً، بينما انحصر الانقسام الاجتماعي الرئيسي بين الحائزين على الجنسية الكويتية والجمهرة المتزايدة من المقيمين «الضيوف». جذبت الكويت عرباً آخرين - فلسطينيين خصوصاً، وآسيويين وهنوداً، لا ليكونوا عمّالاً يمارسون الجهد المادي فقط، بل ليقوموا بمهن فنيّة جوهرية مثل الأطباء والمدرسين والمحامين والمهندسين.

الكتلة التي لا تحمل الجنسية شكلّت حوالي نصف عدد السكان في زمن الاستقلال عام ١٩٦١. ولقد انحصرت الجنسية بأسر المقيمين في الكويت منذ عام ١٩٢٠، ولا يجوز منح الجنسية لأكثر من خمسين شخصاً في العام.

والمقيمون الذين لا يحملون الجنسية يمكن ـ وهذا ما يحدث غالباً ـ أن يرحّلوا حين يضعف الطلب الاقتصادي عليهم، أو حين تنذر الأجواء بحدوث أزمات سياسية. خلال الثمانينات قدّر عدد المقيمين بثلثي مجموع السكان، و٨٠٪ من قوة العمل.

في منتصف الستينات تقرر توسيع نطاق الخدمات الصحية والتربوية لتشمل المقيمين غير المواطنين، لكن الفجوة الاجتماعية والسياسية بين الكويتيين وسواهم ظلّت واسعة. المواطنون وحدهم كانوا يملكون الحق في نصيب من مختلف خطط توزيع العائدات. الشروط القلقة ظلت تحكم حياة المقيمين غير المواطنين، حتى من أصبح بينهم ثرياً أو قضى معظم حياته في الكويت. لقد حرموا من حق الملكية، ونسبة ٥١٪ من أية شركة ينبغي أن تكون للكويتيين، وأجور ودخول غير الكويتيين لا تكاد ترقى إلى كسور ضئيلة من أجور ودخول الكويتيين.

والمقيمون لا يملكون أي حق سياسي، حتى اذا كان الكويتيون أنفسهم لا يتمتعون سوى بالقليل منها. التصويت ينحصر في الذكور الذين تجاوزوا سن الـ٢١، وهؤلاء يشكلّون ما نسبته ٣,٥٪ من مجموع السكان. والبرلمان الأخير، المنتخب عام ١٩٨٥، حلّ بعد سنة. حقبة الثمانينات شهدت تراجعاً عن الاتجاه السابق نحو نظام سياسي منفتح، كأن تكون الوزارة والوظائف العالية لكويتيين من غير آل الصباح. في ربيع ١٩٩٠ نظّمت المعارضة الكويتية تظاهرات وطنية تطالب بالانتخابات واعادة البرلمان.

لعلّ العراق، بمساحته التي تعادل ولاية كاليفورنيا، هو المجتمع العربي الأكثر ابتلاء بويلات جملة التحولات التي صنعها النفط. ثورته السياسية عام ١٩٥٨ كانت استباقاً لثورة ستتكرر في ايران بعد عشرين عاماً.

في النصف الأول من هذا القرن كان العراق مجتمعاً رعوياً على نطاق واسع. ربع السكان ينتمون إلى الأكراد؛ ثلثا العرب مسلمون شيعة، والثلث الباقي سني. الأرض والثروات كانت في حالة تركّز شديد، واستفادت القلّة الثرية من مشاريع الانماء والانفاق الحكومي المموّل من عائدات النفط. انفجار المجتمع العراقي جرى التعبير عنه بصورة أكثر جلاء في التحرك الواسع للفلاحين الفقراء من الريف إلى البلدات المحرومة الواقعة على هامش المدن، وان أفاد النواة الأولى للقوى القومية والشيوعية المتنافسة على اسقاط العرش المصنوع من قبل بريطانيا.

العقد الذي أعقب ثورة ١٩٥٨ اتسم بدرجة عالية من عدم الاستقرار. تصارعت تجمعات مختلفة على السلطة، وحدث تبدل ملحوظ في الدخل من كبار ملاّك الأرض والتجار وحتى طبقة متوسطي الدخل والموظفين وصغار الفلاحين بدرجة أقل. حين استولى البعث على السلطة في تموز (يوليو) ١٩٦٨ (وسبقت ذلك مرحلة قصيرة دامية حكم فيها البعث من شباط (فبراير) وحتى تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٣)، سارع الى تبّني شريحة متجانسة نسبياً من الطبقة المتوسطة الدنيا كانت هي المستفيد الأكبر من ثورة ١٩٥٨، وتألفت من أبناء صغار التجار والموظفين وخريجي معاهد المعلمين والمدارس العسكرية.

وكما كان الحال في الكويت، جرى استخدام عائدات النفط لتمويل نموّ الدولة. وكانت الهيئات القمعية والتقسيمية للدولة أكثر تطوراً وانتشاراً، بسبب عدد سكان العراق الأكبر وانقساماته العديدة الاجتماعية والإثنية والطائفية. وزارة الداخلية على سبيل المثال، بوظائفها الأمنية والاستخبارية، استخدمت أكثر من ١٣٧,٠٠٠ موظف، وهو رقم يعادل عدد مستخدمي المؤسسات الصناعية الخاصة والعامة.

وصدام حسين، المتمرس بالسياسة الانقلابية، كان الوحيد الباقي من الفريق الذي استولى على الحكم في عام ١٩٦٨. شغل منصب نائب رئيس الجمهورية حتى عام ١٩٧٩ ثم احتل المنصب الأعلى في الدولة حين استقال أحمد حسن البكر في ذلك العام. جميع القوى السياسية خارج البعث (الحزب الشيوعي، الحزب الديمقراطي الكردي، حزب الدعوة الشيعي) سحقت جميعها، وتمّت تصفية الخصوم المنافسين داخل البعث. ان قدراً كبيراً من الانسجام في نظام صدام يعود إلى حقيقة أن أبرز أفراده يتحدرون من منطقة تكريت، مسقط رأس صدام الواقعة شمالي غرب بغداد، وكثير منهم يمت له بصلة قرابة.

عدوان صدام الخارجي السابق كان غزو ايران في أيلول ١٩٨٠. تلك كانت خطوة محسوبة أكثر من دخول الكويت عام ١٩٩٠، ولقد هدفت إلى اسقاط الجمهورية الاسلامية الوليدة في طهران، وتأسيس موقع للعراق يكون فيه القوة الأعظم في الخليج. ذلك الغزو تمتع بدعم ضمني من الولايات المتحدة.

غير أن جيش صدام تقهقر سريعاً، وفي آذار (مارس) ١٩٨٢ كان في الخط الدفاعي. خطر انتصار إيراني أنتج تحالفاً اقليمياً ودولياً غير عادي، جمعه هدف منع انهيار العراق. الكويت والسعودية قدّمتا تمويلات هائلة، وفرنسا والاتحاد السوفياتي كانا أكبر المورّدين للسلاح، ومصر والأردن قدّما السلاح

والمستشارين العسكريين. الولايات المتحدة أعطت قروضاً، وبعض الطائرات «غير العسكرية» فضلاً عن الدعم السياسي الواسع. والطلب الكويتي للحماية الأمريكية ضد هجمات الايرانيين على ناقلات النفط أعطى الحجة لتدخل بحري أمريكي في الخليج خلال سنتي ١٩٨٧ - ٨٨. وقادت واشنطن الجهود في الأمم المتحدة لاصدار قرار من مجلس الأمن يقضي بوقف للنار يناسب حاجات العراق.

ثماني سنوات من الحرب مع ايران أعطت نظام صدام حسين مؤسسة عسكرية ضخمة وديوناً ثقيلة وطموحاً متجدداً لقيادة العالم العربي. وحين وافق العراق على وقف اطلاق النار في آب ١٩٨٨ أعلن صدام أنه الزعيم العربي الوحيد الذي ربح حرباً ضد قوة غير عربية منذ عهود اسلامية بعيدة.

وصدام يرى في الخليج مجال التأثير «الطبيعي» للعراق. غير أن العراق، منذ وقف اطلاق النار، أظهر نيّة واضحة للعب دور في العالم العربي على نطاق أوسع. ساعدت بغداد موريتانيا النائية في نزاعها مع السنغال، وأسهمت في توطيد اتحاد اليمنين الشمالي والجنوبي. وكانت مواقف صدام التضامنية الخارجية لا تتأثر بمقتضيات الانسجام الايديولوجي: لقد زوّدت المجموعة العسكرية الاسلامية السودانية بالسلاح، تماماً كما فعلت مع تمرد الجنرال ميشيل عون المسيحي الماروني في لبنان.

بين أهم تحالفات العراق المتبلورة في هذه الفترة كان التحالف مع منظمة التحرير والأردن. كانت منظمة التحرير الفلسطينية تشعر بعدم ارتياح مادي وسياسي وأمني في تونس منذ الغارة الاسرائيلية في تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٨٥ واغتيال أبو جهاد في نيسان ١٩٨٨، ولقد قامت بنقل أقسام جوهرية من ادارتها وعملياتها العسكرية إلى بغداد. ذلك أيضاً خفّض من اعتماد المنظمة على مصر ودقّ مسماراً في نعش احتمالات أي تقارب بين سوريا والمنظمة.

القادة العراقيون طرحوا منظوراً جذب الفلسطينيين الأكثر ميلاً إلى المواجهة. قال العراق أنه بقدر ما يظل العرب ضعفاء اقتصادياً وعسكرياً، بقدر ما سيعجزون عن طرد اسرائيل من الأراضي المحتلة واقامة الدولة الفلسطينية. وطرح العراق أن المقاربة العربية للسلام يجب أن تقترن بحشد عربي عسكري ومادي. يجب توظيف عائدات النفط في العالم العربي بدل استثمارها في الخارج، والحكومات العربية الغنيّة يجب أن تساعد الفقيرة، ويجب احداث

صندوق عربي خاص لدعم الانتفاضة الفلسطينية.

ذلك كان الدافع لخطبة صدام في نيسان (أبريل) ١٩٩٠. لقد أعلن في تلك الخطبة أن العراق سيرد باستخدام الأسلحة الكيميائية ضد أي هجوم نووي اسرائيلي، وأنه «اذا تعرّض أي عربي لاعتداء وطلب مساعدتنا من بعيد، فلن نتردد في تقديم المساعدة». وفي سياق الضجة العالمية التي أحدثها خطاب صدام، ضاع عنصران اضافيان هامان من خطبته: تذكيره بأن اسرائيل، وليس العراق، هي البادئة بادخال الأسلحة النووية والكيميائية إلى المنطقة، واقتراحه اقامة منطقة خالية من الأسلحة النووية والكيميائية والبيولوجية في الشرق الأوسط بأسره.

الفلسطينيون والأردنيون رحبوا بخطبة صدام. لقد أبصر الفلسطينيون كيف أسقطت مبادرتهم السلمية حين سدّ اسحاق شامير الطريق حتى على اللقاءات الاسرائيلية ـ الفلسطينية التمهيدية. الحوار الأمريكي ـ الفلسطيني كان يفتقر إلى الدخول في الجوهر. ولقد لاح أن صدام يقدّم السند الجوهري للمفاوضات.

بالنسبة للأردنيين كان شعار شارون «الأردن هي فلسطين» ينطوي على طرد آلاف الفلسطينيين من الضفة الغربية إلى الأردن، وعلى تغيير نظام الملك حسيين بالقوة. تدفق المهاجرين اليهود على اسرائيل جعل هذا التهديد أكثر احتمالاً. ولقد خشي الأردنيون أيضاً من حالة الضعف التي تتصف بها حدودهم مع اسرائيل، كما أن معظم ثروات الأردن الاقتصادية تقع في قطاع عرضه ١٠ أميال على تلك الحدود: الزراعة المروية في وادي الأردن، معادن البحر الميت، وميناء العقبة. كان العراق جذاباً كمؤخرة استراتيجية قادرة على الرد اذا هاجمت اسرائيل.

النبرة الحادّة في خطاب صدام بتاريخ ١ نيسان (أبريل)، واقترانها بالحديث عن مؤامرات أجنبية ضد العراق، جاءت في أعقاب اعدام العراق للصحفي البريطاني الايراني الأصل فرهاد بازوفت بتهمة التجسس. بعد ذلك بوقت قصير اعترضت السلطات البريطانية ما زعمت بأنه أجهزة نووية في طريقها إلى بغداد. تحدث صدام عن تطويقه من قبل أعداء غربيين يعملون لمنع العراق من تحقيق توازن استراتيجي مع اسرائيل. والحديث عن المؤامرات ساعد في اثارة الدعم الشعبي العربي.

ظهر صدام في أوج شعبيته خلال مؤتمر القمة العربي الطارىء في بغداد أواخر أيار ١٩٩٠، حيث دعا إلى جبهة متحدة ضد العدوان، وتقاسم الثروات، والحاجة

إلى رفد الأقوال بالأفعال. أما أقواله هو فشددّت على التنسيق العربي الرفيع والعون السريع للانتفاضة وللأردن.

وبدلاً عن جبهة متحدة بقيادة العراق ظهرت اشارات على أن الحكومات العربية سوف تتحدى طموح صدام للقيادة. حتى في منطقة الخليج، شعر العراق أن نفوذه آخذ بالانحسار. امارات «مجلس التعاون الخليجي» الصغيرة ماضية قدماً في تطبيع علاقاتها مع ايران، وبسرعة قياسية. الكويت، على سبيل المثال، استأنفت رحلاتها الجوية المباشرة إلى ايران ووقعت اتفاقاً حول النقل والاستثمار المشترك. شكى العراق من أن الكويت تحاول التملّص من مشروعات عراقية ـ كويتية مشتركة، وترفض السماح لمرور الطيران العراقي في أجوائها حارمة البصرة من التحول إلى مطار دولي. خشي العراق أن تكون دول الخليج في طريقها إلى انعاش ايران كثقل مواز للعراق بحيث تبقى بعيدة عن مجال التأثير العراقي. وقيام الكويت والامارات العربية بزيادة انتاجهما النفطي قدّم دليلاً اضافياً على ذلك الابتعاد المقصود.

كان صدام قلقاً بشكل خاص حول انتهاء عزلة سوريا عن العالم العربي. بعد انتهاء حرب الخليج سعت السعودية ومصر إلى اعادة سوريا إلى الصف العربي. بغداد ودمشق تتزعمان جناحين متنافسين من حزب البعث، لكن خلافات موضوعية أخرى ترسخت بينهما. لقد وقفت سوريا إلى جانب ايران خلال حربها مع العراق، وبغداد كانت عازمة على عرقلة أي حل للحرب الأهلية اللبنانية من نوع اتفاق الطائف الذي رعته السعودية وكرّس سوريا كقوة متحكمة بذلك البلد، وثمة موقف مختلف لكل من الدولتين بصدد دور منظمة التحرير الفلسطينية في مفاوضات السلام. وللمرة الأولى منذ سنوات، ألمحت سوريا إلى استعدادها لاجراء مفاوضات جادة حول مرتفعات الجولان، مثل تلك المفاوضات ستزيد من عزلة منظمة التحرير وتضعف امكانية قيام جبهة عربية بقيادة العراق. ولقد صدمت بغداد بالمصالحة السورية ـ المصرية في كانون الأول ١٩٨٩، فثمة في الأفق محور جديد يكاد يولد، ويولد معه ثقل مواز للعراق.

كانت مصر محط اهتمام صدام الأساسي. لكن مبارك كان بدوره في خطوط الدفاع، فجهوده لرعاية تسوية اسرائيلية ـ فلسطينية باءت بالفشل، ولا بدّ أن انتقادات صدام لمحاولة التفاوض مع اسرائيل في غياب مصداقية ستراتيجية قد صعقت المسؤولين المصريين. في قمة بغداد انضم مبارك إلى صدام في التشديد

على أهمية التضامن العربي بهدف تحقيق سلام شامل. لكنه لام الرئيس العراقي بشكل ضمني، قائلاً ان على الزعماء العرب معرفة كيفية مخاطبة العالم الخارجي: «الرسالة العربية يجب أن تكون انسانية، منطقية، واقعية، وخالية من التهويل والتهديد. ان مصير الشعوب لا تحدده قيادة من طرف واحد أو وهم ذاتي».

كذلك وضع مبارك نفسه على مسافة من العراق بطرق محسوسة. حين عادت مصر إلى جامعة الدول العربية في أيار (مايو) ١٩٨٩، نال مبارك الدعم الكافي لاعادة مقرّ الجامعة إلى القاهرة. استأنف العلاقات الدبلوماسية مع سوريا وليبيا، واقترح انشاء منطقة أمنية في البحر الأحمر. وخلال وقت قصير تمكنت مصر من استعادة ثقلها الاقليمي، مضعضعة بذلك رؤية صدام لقيادة بلا منازع.

وحين استفحلت الأزمة العراقية ـ الكويتية في تموز (يوليو)، أصبحت خطوط العداء أكثر وضوحاً. ولقد أخذ الحلف المصري ـ السوري ـ السعودي يتبلور شيئاً فشيئاً لمعادلة وزن العراق، وتابعت الدول الخليجية مساعيها لاحياء المعادل العراقي ـ الايراني المتوازن. في المقابل تقارب الأردن ومنظمة التحرير مع العراق، ورحب اليمن الجديد الموحد بتطلعات بغداد العربية القومية ونقدها لأنظمة الخليج الثرية.

بدأ صدام يشعر أنه محاط ليس بالقوى الدولية فحسب، بل بالقوى الاقليمية أيضاً. في كانون الثاني ١٩٩٠ قامت تركيا باغلاق ثم تقنين مياه الفرات المارّة عبر سد أتاتورك الجديد إلى كل من سوريا والعراق. في تموز قال صدام علناً أن ثلث سكان العراق يتأثر مباشرة بنقص المياه. وضع صدام الممارسات التركية في سياق ما يفترضه من مؤامرة دولية على العراق، ما دامت تركيا عضواً في حلف الناتو وتقيم علاقات دبلوماسية مع اسرائيل. انها بذلك تنفذ مخططاً لوقف التنمية الاقتصادية العراقية ومنع نهوضه وتحوله إلى قوة اقليمية رائدة.

وبسبب أن كلاً من ايران ومصر وتركيا تفوق عدد سكان العراق بثلاثة أضعاف، وهي أقوى صناعياً، بدت قوة صدام الستراتيجية وكأنها تفلت من يديه في حين بقيت طموحاته على حالها. وكان الوضع الاقتصادي الداخلي للعراق قلقاً ويحمل اشكالات واضحة بصدد قدرة صدام على قرن القول بالفعل. في أواخر ١٩٨٩ أعلنت الحكومة خططها التصنيعية وجدول سداد الديون على أساس سعر ١٨ دولار لبرميل النفط، والذي حددته منظمة الأوبك ذلك العام. غير أن سعر

النفط هبط على نحو متسارع في مطلع ١٩٩٠ . وخلال اجتماع استثنائي لوزراء نفط الاوبك، عقد في جنيف في أيار (مايو)، طالب الوزير العراقي أعضاء المنظمة بالالتزام بحصص الانتاج المقررة.

وسرعان ما حذّر وزير الخارجية العراقي طارق عزيز الدول المنتجة الأخرى من «عواقب» غير متوقعة ناتجة عن اغراق الأسواق بالنفط. وفي جلسة مغلقة من جلسات قمة بغداد في أيار (مايو)، أعلن صدام حسين أن الجهود التي تتمّ عن سابق قصد لخفض سعر النفط انما تشكّل اعلان حرب بوسائل اقتصادية، وقال: «لقد وصلنا الى مرحلة لم نعد نتحمل فيها الضغط».

لكن سوق النفط بقيت مضطربة. نائب الرئيس العراقي زار السعودية والكويت والامارات العربية في أواخر حزيران (يونيو). لكن الامارات أجّلت تقيّدها بحصص الأوبك حتى تموز (يوليو)، وامتنعت الكويت حتى وصلتها رسالة شديدة اللهجة من طارق عزيز في ١٥ تموز تتهم الكويت بممارسة «التخريب المقصود والمنظم ضد العراق». وبالإقدام على «عدوان اقتصادي لا يقل فاعلية عن العدوان العسكري». ان نقص كل دولار واحد من سعر برميل النفط يكلّف العراق خسارة سنوية تقدر بمليار دولار، ولقد خلقت ممارسات الكويت أزمة اقتصادية حادة في العراق. كذلك شكى عزيز من رفض الكويت الغاء الدين المترتب على العراق والذي اقترضه العراق خلال حربه مع ايران. لقد نقضت الكويت بذلك مبدأ التضامن العربي القائل بأن من حق جميع الدول «أن تستفيد من الثروات العربية».

ورغم جهود اللحظات الأخيرة للتعامل مع المطالب العراقية، واصل صدام ادانة «بعض حكام الدول الخليجية» الذين «غرسوا خنجرهم المسموم في ظهرنا» في خطبة ١٧ تموز ربط من جديد بين ممارسات الكويت والامارات وبين المؤامرة الدولية. واستخلص أن الضرر المقصود الذي يلحق باقتصاد العراق انما يتم تنفيذاً لارادة واشنطن وبتشجيع منها.

ثمة تعارض واضح بين ادعاء صدام بالقوة واحساسه بالتطويق؛ بين ايمانه بدور العراق المركزي في أمن وهوية العالم العربي وخوفه من احتمالات تدميره على يد الخصوم الاقليميين؛ بين طموحاته إلى قوة اقتصادية وواقع موارده المحدودة. تلك التعارضات غذّت تركيز صدام على الكويت: أغنى المشيخات النفطية، أكثرها تبذيراً للثروة، أبرزها رفضاً لهيمنته، وأشدّها غزلاً مع القوى

الخارجية. لقد لاح أن صدام استسهل امكانية ابتلاع الكويت بسرعة وتشكيل أمر واقع أمام العالم. النفط الكويتي سيدعم موارده ويحسّن موقعه المالي العالمي. والأرض الكويتية ستؤمن له اطلالة أوسع على الخليج وستمد رقعة انتشاره عسكرياً. ولسوف تقوى سلطته الاقليمية ويزداد وزنه الدولي.

لكن صدام أساء الحساب كثيراً.

ان القوة العسكرية العراقية التي غزت الكويت في آب (أغسطس) ١٩٩٠ بنيت من قبل تحالف قوى اقليمية ودولية تتوحد الآن ضد العراق. لا يبدو محتملاً أن العراق كان ينوي اثارة تحدٍ جوهري للنظام القائم في المنطقة، وهو بالتالي لم يتوقع التحالف الذي سيكونُ مناهضاً له. لم تعطه الولايات المتحدة سبباً واحداً يجعله يفكر أنها ستقف ضد خطوة كهذه. ان ما توجب على التحالف مجابهته أمر يتجاوز في تأثيراته قوة صدام العسكرية، ونعني به مقدار الدعم الشعبي الذي أثاره عدوانه في العالم العربي.

ذلك الدعم لا يسجل لصدام حسين أو نظامه بقدر ما يصب في الحماس لأي تحدٍّ جدي للنظام السياسي الذي ترى الغالبية الساحقة من الجماهير أنه غير شرعي. وحقيقة أن تحدّي النظام العربي القائم جاء من طاغية له جماهيريته وليس من قوى اليسار تجعل المعادلة السياسية أكثر صعوبة، سيّما على القوى التقدمية في الغرب. لقد بعثر العراق ثرواته وضحى بحياة مئات الآلاف من مواطنيه في مسار الحرب والقمع. والعراق تحت حكم صدام تسبب في أذى كبير للقضية الفلسطينية.

غير أن الموقف المتناقض من صدام حسين يحتل لدى الكثير من العرب المرتبة الثانية بعد عدائهم المستميت لنسق في الحكم والسياسة يتيح لحفنة من الأسر الحاكمة احتكار ثروات المنطقة في حين يعاني ملايين العرب من فقر مدقع. إلى جانب هذه المسألة المحورية يبرز تعثر حلّ النزاع الفلسطيني - الاسرائيلي والنفاق الفاضح الذي مارسته الولايات المتحدة في معارضتها الانتقائية للعدوان. لقد اكتسب تحدي صدام قوّته السياسية من خيبة الأمل الفلسطينية والعربية الأعم ضد تلاحم جمع الولايات المتحدة والغرب ومعظم الأنظمة العربية، وهدف إلى الحفاظ على أوضاع قائمة سياسية واقتصادية لم تعد محتملة في أعين الملايين.

Middle East Report
November-December 1990

جدول أعمال ما بعد الحرب

■ هنري كيسنجر

حين سمعت للمرة الأولى أن الحرب قد نشبت، فكّرت في الرئيس بوش. في الأفلام يهرع الناس من مكان إلى آخر عند وقوع الأزمة، يلتقطون سماعة الهاتف هنا ويلقون الأوامر الصارخة هناك. أما في الأزمة الفعلية فإن العزلة هي مصير الأناس الذين يحتلون هرم السلطة. مسؤولون عديدون، يلجأون إلى الجحور لكتابة مذكرات تستهدف تخليص أنفسهم من المسؤولية عن أفعالهم ذاتها. وثمة عادة شخصان أو ثلاثة يظهرون استعداداً لاتخاذ القرارات الصعبة. والرئيس بوش استحق امتنان الأمّة لصلابته في الحفاظ على تماسك التحالف خلال أشهر الحشد، وفاز بدعم الكونغرس وقاد البلاد إلى نقطة التقى عندها الدعم الداخلي بدعم الحلفاء. بيد أن أفضل العمليات تخطيطاً لا بد وأن تنطوي على ساعات تجعل الرئيس يفكر: لماذا صرفت كل هذا الجهد والوقت لكي أنتخب؟

ولقد فكّرت أيضاً في التحديات التي سيواجهها الرئيس حين تضع الحرب أوزارها. ان هدف الحرب، في نهاية الأمر، هو ضمان سلام دائم. ومن أجل تحقيق هذا الهدف يتوجب على الولايات المتحدة التحرك لفرض عدد من الاجراءات فور انتهاء الحرب:

● سياسة ضبط التسلح في الخليج لوقف استفحال سباق التسلح الذي أسهم في هذه الأزمة.

● التوصل إلى نوع من الاتفاق حول التنمية الاقتصادية والاجتماعية تحت اشراف مجلس التعاون الخليجي الذي يضم دول الخليج. يمكن لعرب آخرين حلفاء الولايات المتحدة أن ينضموا إلى هذا الجهد الهادف إلى ردّ الحجة القائلة بأن هذه أزمة بين الأغنياء والفقراء.

● الدخول في عملية لبحث النزاع العراقي - الكويتي الأصلي. ان المفاوضات المباشرة بين البلدين لن تكون متوازنة بسبب غياب التكافؤ في الحجم، والذي تجلّى في غزو العراق ونهبه لجاره. بيد أن بعض المسائل تنطوي على حساسية

قانونية خاصة، مثل حقوق التنقيب أو مواقع الحدود. يمكن عرض هذه المسائل على محكمة العدل الدولية، أما بقية المسائل فيمكن معالجتها في اطار مجلس التعاون الخليجي.

● وضع برنامج دولي لفرض اجراءات وعقوبات صارمة ضد الارهاب. ينبغي أن لا يقف العالم مكتوف الأيدي بفعل آلاف الرهائن. ينبغي مواجهة الدول الراعية للارهاب بعقوبات تأديبية قاسية بما فيها العمل العسكري اذا فشلت الاجراءات الأخرى.

على المدى البعيد سيتمثل أكبر تحدياتنا في الحفاظ على توازن القوة الجديد الذي سيتمخض عن هذه الأزمة. ذلك لن يكون سهلاً بالنظر إلى التفكيرالأميركي التقليدي حول السياسة الخارجية. انه اليوم يترجم في فكرة «نظام عالمي جديد» ينبثق عن سلسلة من الاجراءات والترتيبات القانونية يضمنها الأمن الجماعي. مشكلة هذه المقاربة تكمن في افتراضها أن كل دولة تنظر إلى التحدي المطروح أمام النظام العالمي بطريقة موحدة، وهي مستعدة للمجازفة بالقدرذاته في سبيل الحفاظ عليه. والحق أن النظام العالمي الجديد سيشهد مراكز قوة عديدة، سواء بين المناطق أو ضمنها. مراكز القوة تلك تعكس تواريخ وتصورات متباينة. وفي عالم كهذا، لا يمكن اقامة السلام سوى بواحدة من طريقتين؛ بالإخضاع أو بالتوازن. والولايات المتحدة غير راغبة في الإخضاع ولا هي قادرة عليه الآن. لا بد لنا بالتالي من الاعتماد على التوازن، كونياً واقليمياً. ينبغي أن نمنع حدوث تلك المواقف التي تسمح للبلدان الراديكالية بالانسياق وراء فراغ ما يحدث بين حين وآخر، فنضطر إلى اعادة تكرار الأزمات واحدة إثر أخرى، بصرف النظر عن تبدّل اللاعبين.

ذلك هو السبب في أن ما يُسمّى بالخيارات الدبلوماسية قد تزيد الأمور سوءاً على سوء في التحليل الأخير. ان أياً منها كان سيترك العراق في موقع متفوق عسكرياً، وما كانت لتتطرق إلى غياب أمن الخليج باعتباره جذر المشكلة. وفي الأساس سبب جرّ ٤١٥,٠٠٠ أميركي إلى المنطقة، الانتشار الذي يؤكد الهوّة بين قدرات العراق العسكرية وقدرات جيرانه المعتدلين. أي حل دبلوماسي لا يقود إلى خفض دراماتيكي في قوة العراق العسكريةكان سيشكل نصراً لصدام حسين. وعندها لن يكون بحاجة إلى الانخراط في عدوان مادي فعلي، إذ أن تفوّق العراق قد أفصح عن نفسه بكل جلاء، مهدداً بنسف الحكومات التي دعمت الولايات المتحدة. كان عندها سيكون قادراً على

استثمار موقعه ضمن منظمة الأوبك لتحقيق الزيادات التي يريدها على أسعارالنفط، فضلاً عن حصة عالية في الانتاج. كان ذلك سيزوّد العراق بموارد اضافية هائلة ويزيد بناءه العسكري أكثر مما هو عليه، بما في ذلك البرامج النووية والصاروخية. وكانت الولايات المتحدة ستُترك أمام خيار إبقاء قوات أرضية ضخمة في الخليج، أو أن تخلّ بتوازن المنطقة عن طريق الانسحاب. النتيجة العملية للأعمال العسكرية الجارية الآن ستكون تحقيق التوازن في القدرة العسكرية بين العراق وجيرانه في الخليج.

بيد أن الحفاظ على التوازن في المنطقة يقتضي منّا ـ للمفارقة ـ أن نسبح بين الحلّ الذي يترك العراق مفرط القوة، والنتيجة التي تترك العراق مفرط الضعف. ولا ننسى أن احدى أسباب الأزمة الراهنة هو اسراع الدول الغربية لنجدة العراق في حربه ضدايران، ناسية أن الإفراط في اضعاف ايران سيجعل العراق هو المعتدي التالي. ولسوف يكون من سخرية الأقدار أن تنتج هذه الرؤية النفقية عراقاً على درجة من الضعف تجعل جيرانه يسرعون لملء الفراغ.

من الناحية المثالية يتوجب أن يكون أحد الأهداف العسكرية نزع أسنان العراق الهجومية دون تدمير قدرته على مقاومة تعرّضه للغزو من قبل جيرانه التواقين إلى ذلك. لا بد لنا أن نحرص على عدم ادخال صواريخ سكود من جديد. ولا بد أن نمنع العراق من استيراد معدات التكنولوجيا الراقية بما في ذلك الطائرات ذات الأداء العالي والأمدية البعيدة، ومن اعادة امتلاك وسائل انتاج الأسلحة البيولوجية والنووية. غير أن قدرة العراق على الدفاع عن نفسه بالأسلحة التقليدية ضد الهجمات الأرضية من جيرانه لن تشكّل على المدى البعيد تهديداً للاستقرار بل ستسهم في بنائه.

ان توازن القوة الجديد في المنطقة لا يمكن أن يرتكز على بقاء القوات الأرضية الأميركية في المنطقة إلى الأبد .ضعف الحلول الدبلوماسية هو الذي كان سيبقي فاعلية العراق العسكرية سليمة. ووجود قوات غربية أرضية كبيرة في المنطقة سيجعلها بالتأكيد هدفاً للغليان الراديكالي والقومي. ان الهوّة الثقافية بين أعلى القوات الأميركية تهذيباً وانضباطاً وبين السكان المحليين هوّة غير قابلة للردم. سرعان ما سينظر إلى القوات الأميركية على أنها قوات غريبة دخيلة، ولسوف نكرر تجربتنا في لبنان بما في ذلك التخريب الارهابي. يتوجب سحب القوات الأرضية الأميركية بعد النصر مباشرة، أما القوات التي ستقيم فيجب أن تتمركز في أماكن نائية، في البحر أوفي قواعد جوية بعيدة. وأي اشراف على انسحاب

القوات العراقية من الكويت ينبغي أن ينفذ من قبل القوات العربية المشاركة في التحالف.

صعوبة مركزة قوات أرضية غربية أساسية في المنطقة لأمد طويل كانت أحد الأسباب التي تؤكد أن العقوبات الاقتصادية ما كان لها أن تحقق أهدافنا المرجوة. كان من المستحيل ابقاء ٤٠٠,٠٠٠ جندي في المنطقة طيلة ١٨ شهراً اعتبرها المتفائلون فترة زمنية لكي تنجح العقوبات. لكننا لو باشرنا بسحب أية قوة أميركية خلال تلك الفترة - أو غيّرنا مواقعها - لكان ذلك أطلق موجة من الذعر في صفوف الحلفاء العرب.

لكن التوازن العسكري لا يمكن أن يكون الهدف الوحيد للسياسة الأميركية في الخليج. من الجوهري أن يتعلّم الأميركيون كيف يقلّلون اعتمادهم على النفط، وأن يشرعوا في برنامج طاقة فعّال. ليس بوسعنا أن نظلّ نعاني من أزمات الطاقة بين عقد وآخر. يجب أن نشدّد على التخزين ونطوّر مصادر بديلة للطاقة ونتفادى حالات الثمانينات حين قادت وفرة النفط إلى نبذ الأبحاث حول مصادر بديلة للطاقة.

ينبغي أن نتذكر أيضاً امكانية تجدّد المخططات السوڤيتية للمنطقة. في الوقت الراهن تمنع المشكلات الداخلية الاتحاد السوڤيتي من القيام بأية مجازفات خارجية ذات دلالة كبيرة. لكن مائتي عام من نزعة التوسع الروسية في الخليج تشير إلى احتمال احياء الميل القديم. قد يتأصّل هذا الدافع مع ازدياد انشغال موسكو بمواطنيها المسلمين الذين يفوقون الـ٥٠ مليون نسمة. بعد استعادة درجة ما من التوازن الداخلي، قد يصبح الكرملين أكثر نشاطاً في الشرق الأوسط - خصوصاً في ايران وباكستان وتركيا التي تجاور الاتحاد السوڤيتي. اذا بقيت الجمهوريات الإسلامية في الاطار السوڤيتي فإن موسكو ستصبح أكثر حذراً من الراديكالية الإسلامية لئلا تلهب النار في مواطنيها المسلمين أنفسهم. أما اذا انشقت الجمهوريات الإسلامية واستقلّت، فقد تتقرّب موسكو من الجمهوريات الوليدة باحتواء الراديكالية الإسلامية، خصوصاً اذا ازداد العالم الإسلامي تطرّفاً.

أخيراً، والأهم ربما، لا بدّ لتوازن القوة الجديد من احياء آفاق التقدم في الصراع العربي - الاسرائيلي. ومؤتمر سلام يسيطر عليه صدام حسين، أو يؤثر عليه بقوة، ما كان له أن يكون سوى طريق مسدود لأنه كان سيلقن درساً أساسياً: الراديكالية والارهاب والقوة هي الطريق إلى التقدم الدبلوماسي في

الشرق الأوسط. لهذا كان الرئيس بوش محقاً في مقاومة أي ربط بين المشكلتين الكويتية والفلسطينية.

ولكن هزيمة صدام ستكسب الزعماء العرب المعتدلين ثقة جديدة، وستتوطد المصداقية الأميركية وتكسب اسرائيل مجالاً لالتقاط الأنفاس. هذه المعادلة الجديدة ينبغي ترجمتها إلى جهد دبلوماسي رئيسي خلال أشهر قليلة من تحقيق الانتصار. بعد هزيمة صدام يجب النظر إلى هذه الخطوة كفرصة نابعة من نجاح القوى المعتدلة، بعيداً عن الارتقاء بها إلى مستوى الربط أو اخضاعها للابتزاز.

ولسوف يعتمد التقدم على ادراك سليم للمسائل المعلقة. المشكلة العربية ـ الاسرائيلية توصف عادة بأنها قضية تفاوضية: كيف يعقد مؤتمر دولي يعيد اسرائيل إلى حدود ١٩٦٧، ويحدد وضع مدينة القدس، ويحث العرب على «قبول» اسرائيل وتقديم ضمانات دولية للترتيبات الناجمة. لديّ شكوك كبيرة حول جميع هذه الاقتراحات.

انني أولاً أنظر بتشكك إلى صيغة المؤتمر الدولي، فالولايات المتحدة ستكون معزولة كلياً في ذلك المنتدى. ان سلوك فرنسا قبل حرب الخليج مباشرة ليس سوى تذكرة صغيرة بما سوف يحدث. لن تكون أميركا وسيطاً، بل محط مناورات تجعل منها محامياً لاسرائيل في الوقت الذي ستنظر فيه اسرائيل إلى أي موقف مستقل نتخذه على أنه خيانة لمصالحها. ما من أمّة عاقلة ستقبل بإلقاء نفسها طواعية في هذه الحمأة. وما دام كل شيء يعتمد على ما نمارسه من تأثير على اسرائيل في كل حال، فإنني أفضّل عملية دبلوماسية يتألف المشاركون الفاعلون فيها من الولايات المتحدة والدول العربية المعتدلة واسرائيل.

ثانياً، ان عودة اسرائيل إلى حدود ما قبل ١٩٦٧ وخلق دولة فلسطينية ليست مسائل تفاوضية بقدر ما هي قضايا حياة أو موت. ان المسافة بين نهر الأردن والبحر تقلّ عن ٥٠ ميلاً، والممر بين تل أبيب وحيفا بمصطلح حدود ١٩٦٧ لا يزيد عرضه عن عشرة أميال. ولسوف يكون من الصعب حشر دولتين في هذه المساحة المحدودة حتى في أفضل الظروف. لكن منظمة التحرير الفلسطينية في حالةصراع مميت مع اسرائيل استغرق وجود الفريقين بأسره، فكيف يمكن لمثل ذلك الترتيب أن يتطابق مع الأمن؟

يضاف إلى ذلك أن العودة إلى حدود ما قبل ١٩٦٧ سوف تبقي، مع ذلك، الغديد من العرب تحت السيادة الاسرائيلية يعادل عددهم من يقيم الآن في الضفة الغربية باستثناء غزّة. كيف يسوّغ المرء بقاء مجموعة من العرب تحت

الحكم الاسرائيلي في حين تمنح مجموعة أخرى حق تقرير المصير؟ ان استعادة حدود ١٩٦٧ مع تشكيل دولة فلسطينية يمكن بسهولة أن تتحول إلى خطوة أولى نحو تقليص لاحق لحدود اسرائيل، اذا لم نقل تدميرها كلياً.

ثالثاً، موافقة اسرائيل ليست تحدياً قانونياً فقط، بل مسألة نفسية بالدرجة الأولى. ويصعب عليّ أن أصدّق أن أية صيغة قانونية تتيح بذاتها ضمان أمن اسرائيل. الكويت عاشت حالة سلام قانوني مع العراق، لكنها لم تستطع منعه من العدوان عليها، وصدّام هاجم اسرائيل في سياق حرب ظلّت الأخيرة بمنأى عنها كلياً لأن حساباتها أشارت إلى حجم مضاعف من التأييد العربي كان العراق سيكسبه بالضرورة إذا ردّت اسرائيل بعمل انتقامي، بصرف النظر عن المبررات. لقد شعر الزعماء الأميركيون بخطورة ولادة هذا الموقف فنصحوا ضد الرد الاسرائيلي. ولكن حين يصبح ردّ الفعل على هجوم لم يسبقه استفزاز مسألة دولية، فإن اسرائيل تظلّ منبوذة وتقع رهينة من جرّاء ممارسات الآخرين.

فوق ذلك،كيف يعرّف المرء «الضمانات الموثوقة»؟ حتى في حالة الكويت حيث توفّر دعم دولي اجماعي لصالح الضحية (الأمر الذي لا يمكن أن يحدث مع اسرائيل) ألم يتطلب ذلك ستة شهور من تنظيم المقاومة في حين ظلّت الكويت عرضة للنهب والتدمير وطرد مواطنيها؟

لهذه الأسباب مجتمعة ستقود عملية السلام ـ كما يجري تصوّرها راهناً ـ إلى طريق مسدود. انها تجبر كل فريق على القبول بنقاط يعتبرها غير مقبولة وصعبة: هي دولة فلسطينية بالنسبة للاسرائيليين، وهو دولة اسرائيلية. لم أسمع بصراع بين الدول العربية ذاتها ـ دع جانباً صراعها مع اسرائيل ـ جرى حلّه بالمنهج الذي يجري اقتراحه الآن لحل المسألة الفلسطينية: أعني بذلك جولة مفاوضات شاملة ينتج عنها وثيقة قانونية يكتب لها أن تعيش إلى الأبد.

عملية احياء السلام يجب أن تبدأ من اعادة تحديد الأهداف. والتسوية النهائية تبدو اليوم سراباً قانونياً، وسرعان ما ستدق حالة الأمر الواقع نواقيس موت المعتدلين على الجانبين، وسيعتبر الكثير من الاسرائيليين أن عملية السلام الأحادية الجانب هذه تعني الفوز بالقبول دون تقديم تضحيات. انهم غير مستعدين لإعادة أية أراض محتلة، أو أنهم سيقومون بذلك شريطة اقامة سيادة اسرائيلية بحكم الأمر الواقع. عرب عديدون، في أوساط منظمة التحرير الفلسطينية خصوصاً، يرون في الشرق الأوسط تكراراً لتجربة فييتنام حيث

استخدمت المحادثات لتليين موقف الخصم وتصعيد الضغوط حتى درجة الانهيار الأقصى.

الحل البديل يمكن أن يسعى إلى ادخال الحكومات العربية المعتدلة، الخارجة لتوها من معركة الانتصار على العراق، كمنطقة عازلة بين اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية. قد يفلح ذلك في خفض مساحات الأراضي التي تُطالَب اسرائيل بردها في مقابل شيء يقل عن صيغة سلام شكلي. ان مقاربة ممكنة، وسيطها الولايات المتحدة، يمكن أن تأخذ المنحى التالي:

● يعقد مؤتمر تحت اشراف الأمين العام للأمم المتحدة، يتألف من الولايات المتحدة واسرائيل والدول العربية المتحالفة مع الولايات المتحدة في أزمة الخليج.

● توافق الدول العربية المعتدلة على القيام بدور مجلس أمناء للأراضي التي تعاد إلى السيادة العربية، وذلك لفترة محددة من الزمن لنقل أنها بين خمس إلى عشر سنوات.

● تلتزم الدول العربية المعتدلة بضمان نزع سلاح تلك المناطق تحت اشراف الأمم المتحدة.

● تعيد اسرائيل غزّة بأكملها ومعظم المناطق ذات الكثافة السكانية العالية في الضفة الغربية، محتفظة بتلك المناطق ذات الأهمية الجوهرية لأمنها. وسيكون لها الحق في تدقيق نزع السلاح من أية منطقة تعيدها.

● يجري اتخاذ اجراءات ادارية محددة وفق اتفاقية ناظمة، لكنها لاتقود، في الفترة المؤقتة، إلى تشكيل دولة مستقلة. وكإجراء عملي تقوم القوى المؤتمنة بتأسيس ادارة من أفراد تقبلهم منظمة التحرير الفلسطينية.

اذا تبيّن أن هذا الجزء بالذات من السيناريو ليس عملياً، فيجب البحث عن مقاربة أخرى مؤقتة لتفادي الطريق المسدود. ان النتائج التي تلي انتصار الحلفاء على العراق سوف تؤمن فرصة ذهبية قد لا تتكرر أبداً. الدول العربية المعتدلة تنظر بجفاء إلى منظمة التحرير الفلسطينية التي دعمت العراق عملياً. انها تشعر بالسخط أيضاً لأن منظمة التحرير لم تتراجع بوضوح تام عن الإرهاب، حتى ما كان منه موجهاً إلى العرب المعتدلين أنفسهم. في النتيجة لم تعد هذه الدول مستعدة لمنح منظمة التحرير الفلسطينية حق استخدام الفيتو ضد توجهاتها.

أما اسرائيل فيتوجب عليها تفادي كابوسين محتملين. اذا أصّرت على الاحتفاظ بكل بوصة مربعة من الأراضي المحتلة، فمن المحتمل أن تواجه نفس

مصير افريقيا الجنوبية وتجد نفسها منبوذة مبعدة، ولعلها ستخضع لعقوبات اقتصادية تفرضها الأمم المتحدة. من جهة ثانية اذا اتبعت اسرائيل المنطق السليم وأعادت جميع الأراضي المحتلة فانها ستجازف بالتحول إلى لبنان جديد، محشورة تدريجياً في نقطة الاختراق. في سبيل مصلحتها يتوجب أن تعثر اسرائيل على حلّ وسط. وليس ثمة لحظة أفضل من الآن، حين انهزم ألدّ أعدائها وأكثرهم خطراً.

لست أحسد المفاوض الأميركي الذي ستعهد إليه مهمة انتزاع تسوية مؤقتة من داخل جموحات الشرق الأوسط المتلاطمة المتشابكة. بيد أن خفض قدرات العراق العسكرية يجب أن يجعل الزعماء العرب المعتدلين واسرائيل أكثر قدرة على الالتفات إلى عملية السلام في اطار من التخويل والثقة. الرئيس مبارك والملك فهد أو حتى الملك حسين - مهما كانت المناورات التي فرضت بحكم موقعه الضعيف - زعماء على درجة من الذكاء والحنكة. حتى الرئيس الأسد - الذي لا يمكن اعتباره معتدلاً - وقّع اتفاقاً مؤقتاً حول الجولان ظلّ راسخاً وساري المفعول منذ ١٧ عاماً. يمكن لجميع هؤلاء القادة أن يقطعوا شوطاً على طريق التوصل إلى حل وسيط كمخرج وحيد لكسر طريق مسدود قد يكون أشد خطورة. ثمة بالتأكيد قادة اسرائيليون يدركون أن المقاربة المتدرجة يمكن أن تزودهم بأفضل أفق لمخرج مقبول، خصوصاً حين يكون المعتدلون العرب في وضعية المنتصر، والراديكاليون العرب في حالة تراجع.

الأميركيون ينبغي أن يقوموا بدور الوسيط في هذا الجهد، بعد أن كسبوا ثقة الفريقين. وربما توجب أن يكون أول تحدياتنا فلسفياً. أفضل طرق الحصول على مفاوضات ناجحة هو تقديم مفهوم جديد، لإقناع الطرفين بأن المنحى الجديد المقترح يخدم مصالحهما المشتركة. اذا تعذر تحقيق ذلك، فإن أي تحايل دبلوماسي لن يخدم كبديل.

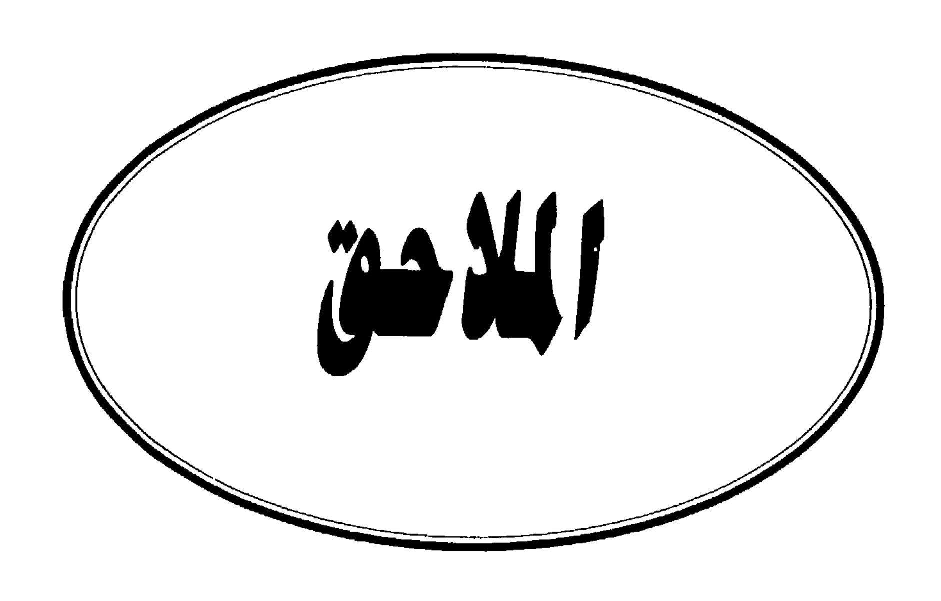
لقد أنتج الشرق الأوسط من الأزمات ما يفوق أية منطقة أخرى خلال بضعة آلاف من السنين. لقد استثار جموحات عاطفية كبرى باعتباره مهداً لثلاثة أديان كبرى، ولهذا فمن غير الممكن لجولة مفاوضات واحدة أن تحلّ الهدوء والسلام في هذه المنطقة المضطربة. ومفاوضات عربية - اسرائيلية لن تضع حدّاً للغليان، لأن العديد من مشكلات الشرق الأوسط مستقلة تماماً عن ذلك الصراع. الأصولية في ايران لا تقارن البتة مع المشكلة الفلسطينية رغم استغلال

طهران لها. وصدام حسين كان سيحاول السيطرة على جيرانه حتى لولم توجد المشكلة الفلسطينية أصلاً.

الصراع العربي - الاسرائيلي لم يقم بأكثر من خلق الصعوبات أمام أصوات الاعتدال في العالم العربي، وحال بينها وبين التعاون مع مسانديها في الغرب.

الانتصار في الخليج سوف يخلق فرصة تاريخية لتبديل تلك المعادلة بالذات، ويتوجب اغتنام تلك الفرصة.

Newsweek
January 28, 1991.


الملاحق

ملحق (أ)

رسالة إلى القادة العرب

■ فيديل كاسترو

(أرسلت هذه الرسالة الى القادة العرب، وسلمت نسخ منها الى قادة الاتحاد السوفياتي والصين والهند ويوغسلافيا وجامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية).

سيادة .....

أكتب إليك اليوم للاعراب عن قلقي العميق إزاء الأحداث التي تهدد العالم العربي والإنسانية في هذه اللحظات.

انني على إيمان راسخ بأن القادة العرب يستطيعون، حتى في هذا الوقت العصيب، أن يضعوا حداً للأزمة التي نشبت بين العراق والكويت، وأن يحولوا بينها وبين تهديد استقلال العديد من الدول العربية، والتحول الى كارثة شاملة للانسانية ومذبحة لجزء كبير من شعوب المنطقة. ذلك، في رأينا، جوهر التهديد الذي تسبّبه الاستعدادات الواسعة والسريعة للولايات المتحدة وحلفائها لشنّ تدخل عسكري مباشر. ليس أقلّ خطورة ذلك الدليل على قطع خطوات واسعة على طريق بناء قوة متعددة الجنسيات تدخل في غرض العمل العسكري ذاته، ويشير تركيبها الى علاقات قوة جديدة ذات نطاق عالمي تستهدف مصالح الشعوب العربية.

وكوبا، بصفتها عضواً غير دائم في مجلس الأمن الدولي، لم تتردد في التصويت على القرار رقم ٦٦٠ الصادر عن المجلس بتاريخ ٢ آب / أغسطس. ليس بغير ألم ومرارة أننا اتخذنا تلك الخطوة الضرورية والعادلة تمشياً مع خطنا المبدئي حول عدم جواز اللجوء إلى القوة والتفوق العسكري لحلّ الخلافات بين البلدان، سيّما حين يتصل الأمر بمواجهة بين شقيقين من أبناء العالم الثالث. اننا نرتبط بأواصر الصداقة والاحترام مع شعبي العراق والكويت، معزّزة بتضامن كوبا مع الأمة العربية والشعب الفلسطيني في وجه العدوان الاسرائيلي والتوسع

الاستعماري. يضاف الى ذلك تاريخ معروف من التعاون في ميادين عديدة بيننا وبين العديد من الدول العربية.

هذه المبادىء عزيزة على كوبا، فهي مهدّدة بدورها بعدوان دائم. في الوقت ذاته نؤمن أنه إذا كان بمقدورنا القيام بشيء ما، فهو الامتناع عن صب الزيت على نار الحرب. هذه هي القناعة التي حكمت امتناعنا عن التصويت على مشروع قرار جديد لمجلس الأمن ترعاه وتعمل له بحماس الولايات المتحدة وشركاؤها [القرار ٦٦١]. انهم يريدون، ضمن سلسلة اجراءات أخرى، فرض الحصار الاقتصادي التام على العراق، وهي خطوة تقلّل كثيراً من امكانية التوصل الى حلّ سلمي. الولايات المتحدة وحلفاؤها المقربون يتبادلون التهنئة على هذا القرار الجديد، الذي يخلق الظروف المثالية لتصعيد النزاع واللجوء الى استخدام الآلة العسكرية الأكثر فتكاً على وجه البسيطة. وهدفهم لا يخفى على أحد: بسط سيطرتهم على المنطقة من جديد.

معاقبة العراق على فعل مؤسف وغير مقبول ليس سوى ذريعة عند الولايات المتحدة. انهم يبحثون عن مخرج لنفض الغبار عن المادة ٤٢ من ميثاق الأمم المتحدة لاسباغ الشرعية على تدخلهم العسكري باسم المجتمع الدولي(*). هذه هي الكارثة التي نواجهها الآن. وهي تكون بالغة الوطأة والشدّة على قادة الدول العربية قبل سواهم. انه مجلس الأمن ذاته الذي أثبت عجزه، بفضل ڤيتو الولايات المتحدة، عن فرض العقوبات الاقتصادية على اسرائيل أو حتى ادانتها، إذا استثنينا موقف اليمن وكوبا. اسرائيل تحتل فلسطين وبعض الأجزاء من دول عربية أخرى منذ اربعين عاماً، فماذا فعل مجلس الأمن؟ وبفضل امتياز غير عادل وغير ديمقراطي تتمتع به الدول صاحبة الحق في النقض (الفيتو)، واستخدامه بشكل وقح من قبل الولايات المتحدة، لم يتمكن مجلس الأمن من ادانة اسرائيل على المذبحة المتواصلة التي تنفذها ضد الانتفاضة، أو ممارسات الجيش الصهيوني التي تسببت في مقتل عناصر الأمم المتحدة ذاتها في جنوب لبنان.

ولسوف يكون من السذاجة والخطورة البالغة أن نعطي الحد الأدنى من المصداقية لبواعث الولايات المتحدة ومزاعمها في لعب الدور الحاسم في النزاع. انها ذات باع طويل في استغلال المواقف، وفي استخدام الضغوط المتنوعة، وفي

(*) المادة ٤٢ من ميثاق الأمم المتحدة تخوّل مجلس الأمن باستخدام القوة المسلحة «لاقامة أو استعادة السلام والأمن الدوليين» شريطة ثبوت فشل الوسائل والإجراءات الأخرى. (المحرر).

قدرتها على الانتشار العسكري السريع، واعتمادها مبدأ الانتهازية السياسية. ولهذا ليس غريباً أن تنضم وسائل الاعلام الامريكية إلى الأجهزة الدبلوماسية والأمنية، وأن ينضم الحلفاء الغربيون الى البنتاغون لاستغلال الفرصة والوثوب على المجتمع الدولي. انهم يشككون ويعيقون أي بديل يسعى إلى ايجاد حل سياسي قائم على التفاوض، لأنه لا يخدم أغراضهم الجيو - سياسية. وهم لا يفوّتون أية فرصة لاقتناص المزيد من المكاسب في الموقف الراهن.

ما الذي سيردع الولايات المتحدة عن ارتكاب ما تشاء في هذه المنطقة الحيوية؟ لم يطرف لهم جفن في مناسبات سابقة، وصفعوا المجتمع الدولي عن طريق تحويل مسار دولة صغيرة مثل غرينادا(*) ودولة أخرى كانوا يحتلونها عملياً هي باناما، وصنعوا منها حقل رمي جربوا فيه مختلف أسلحتهم الفتاكة.

كيف يغيب عن الذهن خطر قيام الولايات المتحدة بتنفيذ مغامرة جديدة من هذا النوع، وهي التي شنّت غارة جوية ضد منزل الرئيس الليبي معمر القذافي بعد أن نصّبت نفسها شرطياً دولياً ينّفذ القانون الدولي؟ هل يمكن استخلاص نتيجة أخرى من انزال قوات المارينز الأمريكية على شواطىء ليبيريا منذ بضعة ساعات؟

انني أكتب اليكم اليوم باسم المسؤولية التي نتحملها جميعاً كأعضاء في حركة عدم الانحياز والعالم الثالث. لقد واجهنا، هنا في كوبا، أخطاراً جسيمة كان بينها خطر الإفناء النووي في تشرين الأول / اكتوبر ١٩٦٢(**). ونحن مؤهلون تماماً لتوقع الظروف المتفجرة وتقدير عواقبها. ولسنا نشير هنا الى الخوف والقلق. هذه حالة ينتقل فيها التهديد الى جميع شعوب العالم الثالث دون استثناء، ويطال أكثر جوانب اقتصاداتنا حساسية، بقدر ما يمس بأمننا وباستقلالنا.

(*) في ١٦ تشرين الأول / اكتوبر ١٩٨٣ قامت الولايات المتحدة بغزو واحتلال غرينادا، والغاء المكاسب التي حققها ذلك البلد نتيجة ثورة ١٩٧٩. قبل اسبوعين من الغزو الامريكي سقطت الحكومة الشعبية الثورية في غرينادا، بقيادة موريس بيشوب، نتيجة انقلاب عسكري نفذه نائب رئيس الوزراء برنارد كورد. (المحرر).

(**) في تشرين الأول / اكتوبر ١٩٦٢ ضربت الولايات المتحدة حصاراً حول كوبا وهددتها بالإفناء النووي إذا لم تسحب الصواريخ السوفياتية المنصوبة بناء على طلب كوبا ولأغراض دفاعية ضد احتمالات عدوان امريكي. ولقد وافقت الحكومة السوفياتية آنذاك على سحب تلك الصواريخ دون تشاور مع الحكومة الكوبية. (المحرر).

ان قوى الارتداد والعدوان لن ترتدع بعواقب التدخل العسكري إذا ظلّ العرب والمسلمون منقسمين على أنفسهم ويستنزفون بعضهم البعض يومياً، تماماً كما تأمل الولايات المتحدة. الجراح الناتجة ستكون عميقة، ولن تندمل قبل عقود وعقود. هذه الحرب ستخلّف دماراً واسع النطاق في البنية التحتية والاقتصادية للدول العربية. ولسوف تتحول الى ساحات قتال لحرب لن تخاض في أوروبا أو الولايات المتحدة، بل في الخليج العربي على وجه التحديد.

ذلك بدوره سيخلق كارثة اقتصادية للعالم الثالث بأسره، الذي يجب أن تؤخذ مصالحه بعين الاعتبار كما يقتضي الانصاف. ولسوف يصعب تخيّل مقدار الصعوبات والمشاق التي سيخلقها هذا الوضع لاقتصادات نامية مرهقة ومثقلة بالديون أصلاً.

ومن المستحيل أيضاً غضّ النظر عن المفارقة المأساوية المتمثلة في احتمال بلوغ الأغراض التي من أجلها جندت الولايات المتحدة وحلفاؤها هذه الحملة الصليبية الجديدة. سيكون من المفارقة أن يدعّم الوجود الصهيوني وهيمنة على مقدرات المنطقة بتمويل أبناء المنطقة أنفسهم. ان خططهم تنادي بحرب ذات مواصفات تكنولوجية عالية، بعد أن اختبروا معداتهم وتأكدوا من تفوق أسلحتهم. والخسائر ستتحملها الشعوب والجيوش العربية المنخرطة في هذه العملية.

دعوني أعرب لكم عن يقيني بحكمة وشجاعة الزعماء العرب، وقوة وحيوية الأمة العربية. لا أحد ولا شيء يستطيع استبدال تلك القوة المعنوية في البحث عن حلّ تفاوضي للنزاع بين بلدين عربيين. ذلك الحل سينطوي، بطبيعة الحال، على انسحاب القوات العراقية من الكويت، واستعادة ذلك البلد لسيادته دون حرب وخراب ودمار لا حدود له. انني، بالطريقة ذاتها، على يقين من أن دول عدم الانحياز ومنظمة الأمم المتحدة - على علاّتها - قادرة على دعم ومساندة الأمة العربية لكي تبقى وتصمد ضد التدخل والعنوان.

ان جدية ومخاطر الموقف الراهن تتطلب تدخلاً سريعاً وحاسماً من القادة العرب. وتجربة التاريخ تشهد على ركون قوى جبارة مثل الولايات المتحدة الى

فـرض حقـائق الأمـر الواقع على الـشعـوب، وخلق العـمليـات والسـيـرورات التي يصعب تغييرها فيما بعد .

٧ آب / أغسطس ١٩٩٠
أخوكم
فيديل كاسترو

ملحق (٢)

من أجل حلّ سياسي

■ **فيديل كاسترو**

«مقاطع من خطبة ألقيت في هافانا بتاريخ ٢٨ أيلول / سبتمبر ١٩٩٠، بمناسبة الذكرى العشرين لقيام لجان الدفاع عن الثورة في كوبا».

لقد انصب اهتمامنا في الأيام الأخيرة على مصير عشرات وعشرات من دول العالم الثالث. لا بد أنكم تابعتم سلوك مندوبنا في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة خلال الأزمة التي اندلعت في الخليج العربي. اننا نمتلك القدرة على التصرف بطريقة حيادية منزهة عن الأغراض، بطريقة مشرّفة تماماً، وبروح عالية من الإنصاف. ولقد بذلنا جهوداً غير عادية لتحقيق السلام، وسعينا الى إيجاد حلّ للمشكلة، حلّ عادل لا ينطوي على الحرب.

لم نتردد في رفض وادانة احتلال وضمّ الكويت. وفعلنا ذلك على أساس المبدأ، وعلى قاعدة معايير القانون الدولي الذي نؤمن بضرورة تدعيمه في عالمنا هذا. لم نتردد، بالتالي، في دعم القرارات التي تدين ممارسات هي في تقديرنا خرق للقانون الدولي.

لكننا في الآن ذاته عارضنا بقوة كل اجراء رأينا فيه اجحافاً وظلماً. احدى أكثر هذه الاجراءات اجحافاً يتمثل في اجبار شعب بأكمله على الاستسلام بوسيلة التجويع. ذلك ما يرقى اليه الحصار الاقتصادي في رأينا.

لقد جهدنا في البداية لاستثناء الأغذية والمعدات الصحية والأدوية من ذلك الحصار. واذا سمح المرء لنفسه بادانة ممارسة أخذ الرهائن وتحويل الابرياء الى رهائن (وهي ممارسة نعارضها وسنظل نعارضها)، أفلا يكون أكثر قسوة أن تجوع حتى الموت ملايين النساء والشيوخ والأطفال للتوصل الى غرض محدد؟ ان الحصار الاقتصادي لا يؤثر، في الأساس، على القوات العسكرية. انه يتسبب في معاناة السكان المدنيين، وبينهم الملايين من النساء والشيوخ والأطفال.

تلك ممارسة بغيضة. بيد أنها الممارسة التي سعت اليها الولايات المتحدة

ونفذتها، على العكس من جهود كوبا الرامية الى تحديد مضمون الحصار، واستثناء الأغذية والأدوية من بنوده.

ولقد اتخذت الولايات المتحدة اجراءات تنفيذية تجعل ارسال الأغذية والأدوية أمراً مستحيلاً من الناحية العملية. ويمكن للمرء هنا أن يرى بوضوح كيف يتحدثون عن حقوق الانسان من جهة، وكيف يطبقون أساليب بغيضة وكريهة وقاسية بشكل يصعب تصديقه.

لقد عارضنا ذلك على نحو قطعي وجازم، مثلما رفضنا التصويت على الحصار الاقتصادي، لأننا كنا نعرف الخطوة التالية. ولم يكد الحبر يجف على قرار فرض الحصار من قبل مجلس الأمن، حتى سارعت الولايات المتحدة من جانب واحد الى تشكيل قوة حصار بحري تتولاه بنفسها، دون تخويل من الأمم المتحدة.

لكن أمراً مخجلاً ومهيناً طرأ بعد ذلك: أصدر مجلس الأمن الدولي قراراً يبارك الحصار الذي تنفذه الولايات المتحدة. ولقد عارضنا ذلك القرار أيضاً. انني اعتقد ان ذلك اليوم كان يوماً مخجلاً ومذلاً في تاريخ مجلس الأمن الدولي، ولسوف يدخل التاريخ على أنه يوم مباركة هذه الهيئة الدولية لعمل عسكري تقوم به الولايات المتحدة. ولقد اتضح منذئذ ان الولايات المتحدة هي التي تخرج المسرحيات في مجلس الأمن الدولي.

واليوم يقرون حصاراً جوياً. كوبا كانت الدولة الوحيدة التي صوتت ضده. لقد كان لنا شرف ومجد أن تكون الدولة الوحيدة التي قالت: لا! سوف يسجل التاريخ شرف وكرامة وشجاعة كوبا في تلك اللحظة ذات الأهمية الكبرى لحياة الانسانية. لقد كان من الضروري اتخاذ موقف صارم وحازم، ولهذا لم نمتنع عن التصويت، بل قلنا: لا! ولسوف نصوت ضد كل ما يتعارض مع قناعاتنا، حتى لو بقينا وحدنا في الساحة.

لقد ناضلنا من أجل السلام داخل مجلس الأمن الدولي، في حين أن مجمل القرارات المتخذة كانت تفضي الى الحرب. ليس داخل أروقة المجلس فقط، بل في كل مكان. بذلنا جهوداً هادئة صامتة بحثنا فيها عن حل سياسي غير عسكري للصراع. استفدنا من علاقاتنا مع دول عديدة للوصول الى ذلك الهدف.

والحلّ السياسي في رأينا ينطوي بالضرورة على انهاء احتلال الكويت واعادة السيادة الى ذلك البلد، ليس لدينا أي شك حول ذلك، فخطّنا مبدئي وحازم وواضح.

اننا نؤمن بضرورة التوصل الى ضمانات لجميع بلدان المنطقة، ونؤمن بأن الأمم المتحدة تستطيع تقديم صياغات وضمانات لجميع بلدان المنطقة اذا امتلكت القدرة على تقديم حلّ سياسي. ذلك يتضمن انسحاب القوات العراقية الى حدودها وأراضيها، مثلما يتضمن انسحاب قوات حلف الناتو من الخليج العربي.

الفشل في التوصل الى حلّ سياسي سيكون هزيمة نكراء للانسانية، ولقد ركّزنا جهودنا لتحقيق حلّ سياسي. لقد عملنا في هذا السبيل، ولسوف نظلّ نعمل رغم ادراكنا ان الزمن يضيق أكثر فأكثر.

اننا لا نقوم بذلك لأنه ينبع من المبادىء السياسية لشعبنا وثورتنا فحسب، أو لأننا نفي بالتزاماتنا الدولية. اننا نبذل الجهود المضنية لأننا نتألم أشدّ الألم حين نرى الانسانية توشك على كارثة دولية وتعجز عن وقفها قبل وقوعها. لا أحد يستطيع الجزم حول امكانية استخدام الاسلحة الكيميائية والنووية، أو عدم استخدامها.

بيد أن تلك الحرب لن تكلّف البشرية ألوف الضحايا في ميدان المعارك فقط. تلك الحرب ستكون كارثة للاقتصاد العالمي، خصوصاً لاقتصادات البلدان النامية، وبلدان العالم الثالث غير المصدّرة للنفط والتي تشكّل الغالبية الساحقة. ومثلما ستغرق بعض البلدان في المال، ستغرق بلدان أخرى في البؤس والتضحية والمعاناة من كل نوع. مقابل كل فرد سيسقط في ميدان القتال في الخليج العربي، سيسقط ألف فرد جوعاً في مختلف بلدان العالم الثالث. ذلك هو المصير الذي لا يمكن تجنبه.

ان اندلاع الصراع في الخليج العربي (الحل العسكري) ينطوي على مخاطر التحوّل الى حرب تستخدم فيها الأسلحة الكيميائية، وربما الأسلحة النووية التكتيكية. بالاضافة الى ذلك سيلحق خراب كبير ليس بالأرواح البشرية فحسب، بل في مصادر الطاقة التي تصبح يوماً بعد يوم بمثابة كعب آخيل في الاقتصاد العالمي واقتصادات العالم الثالث.

حين يباع برميل النفط بـ ٦٠ أو ٧٠ دولاراً، ثم يضاف ذلك إلى الدين الذي تتحمله تلك الدول (تريليون دولار)، فبمقدور المرء أن يتخيّل شكل الكارثة. ذلك بالذات كان عاملاً اضافياً لمضاعفة جهودنا من أجل السلام، داخل مجلس الأمن الدولي وفي كل مكان.

ويمكن القول أن الولايات المتحدة والقوى الغربية كانت تركّز جهودها على

الحرب، على حرب ستتمخض عن عواقب بالغة السلبية على اقتصاد الولايات المتحدة ذاتها. ان العديد من القرارات التي تبنّاها مجلس الأمن الدولي جعلت الحل السياسي أكثر تعقيداً، بدلاً من تسهيل الطريق اليه.

في هذه المرحلة تخوض بلادنا نضالاً عظيماً داخل الأمم المتحدة. ونحن لا نقوم بذلك دفاعاً عن مصالحنا، رغم انها لا تغيب عن هذه الأزمة. بل دفاعاً عن مصالح العالم بأسره، وخصوصاً مصالح وشعوب العالم الثالث. ولسوف نواصل خوض هذه المعركة المشرّفة، حتى حين يبدو أننا وحيدون فيها. لن نتخلى عن مبادئنا، ولن نتهاون، ولن نتراجع.

"U.S. Hands Off The Mideast"
- Path Finder, November 1990

ملحق (٣)

«نقاط حسّاسة»

أصدرت القيادة المركزية للقوات الامريكية كراس معلومات تحت اسم «ثقافة وعادات» وزّع على جميع أفراد القوات المسلحة الامريكية العاملين في الخليج. ولقد نصح جميع العسكريين بحمل هذا الكراس معهم أينما كانوا. هنا احدى فصول الكراس:

نقاط حساسة:

هذه القائمة من النقاط الحساسة ذات طبيعة عامة، وهي تنطبق على «منطقة المسؤولية Area of Responsibility» بأسرها [منطقة الخليج]. يتوجب تحاشي المسائل التالية، أو التعامل معها بحذر بالغ:

- المقالات والتحقيقات التي تظهر التعاون الامريكي - الاسرائيلي، وروابط الصداقة بين البلدين.
- المواد التي تعتبر مخلّة بالأخلاق أو سياسات وممارسات الدولة؛ صور رجال ونساء في حالة عناق أو جماع أو رقص، وصور رجال أو نساء عراة.
- الاعلانات المثيرة للغرائز عن العطور أو سراويل الجينز أو الثياب الداخلية النسائية أو المقامرة أو معاقرة الخمرة وما إلى ذلك.
- اعلانات لحم الخنزير أو المحار.
- مظاهرات الطلاب العرب في الولايات المتحدة.
- الافلام أو الأشرطة التي يشترك فيها ممثلون أو ممثلات منحازون الى الصهيونية (مثل باربارا سترايسند وليز تايلور).
- مناقشة تورط الولايات المتحدة في دعم اسرائيل، ووجود اسرائيل الحالي في لبنان، والتعاون الامريكي الستراتيجي مع اسرائيل.
- الايحاء بأن الولايات المتحدة قد تلجأ الى الخيار العسكري في الخليج دون أن «تدعى» الى ذلك.
- الاشارة الى «اللوبي الصهيوني» وخدمات المخابرات التي تمنحها الولايات المتحدة لاسرائيل.

ـ مناقشة التعاون الستراتيجي بين الولايات المتحدة وأية دولة في « منطقة المسؤولية » .

ـ مناقشة الأفعال التي لا يحبها العرب، مثل مجلة « بلاي بوي » ونشاطاتها وسوء تقديمها لشخصية العربي، أو تقديم تلك الشخصية في الصحافة الامريكية عموماً .

ـ الدعاية والتبشير بأديان أخرى غير اسلامية .

ـ الايحاء بأن أي بلد عربي تابع كلياً للقوى الأجنبية سواء من حيث الحياة الاقتصادية أم الجهد العسكري .

ـ نقد عادات وأعراف الدين الاسلامي، وحقوق المرأة، وشكل اللباس الاجباري، والمعايير الخلقية، والتغطية الصحفية، والرقابة .

ـ تصوير المطارات أو الموانىء أو المواقع العسكرية، أو النساء والمواقع الدينية، أو أي شيء يمكن أن يترك أثراً سلبياً لدى الدولة المضيفة .

ـ الإشارة الى اللوائح السوداء التي يضعها العرب للشركات المتعاملة مع اسرائيل، أو المقاطعة العربية للشركات ذات التمثيل البارز للصهيونية في مناصبها الادارية .

ـ مناقشة وجود ودور طائرات الأواكس في « منطقة المسؤولية » .

ـ مناقشة تحفظات الدولة المضيفة على النوايا السلمية لدول عربية أخرى .

ملحق (٤)

«زلّة لسان»

بتاريخ ١٦ ايلول / سبتمبر ١٩٩٠ نشرت صحيفة «واشنطن بوست» التقرير التالي على صفحتها الأولى:

الولايات المتحدة تعتمد على الضربات الجوية إذا اندلعت الحرب

توصلت رئاسة الأركان المشتركة الى أن القوى الجوية العسكرية الامريكية - بما في ذلك حملات القصف الشامل على مدينة بغداد ذاتها واستهداف الرئيس العراقي صدام حسين - ستكون الخيار الأكثر فاعلية لاخراج العراقيين من الكويت إذا اندلعت الحرب. هذا ما ذكره رئيس أركان القوى الجوية الجنرال مايكل دوغان، الذي قال ان الجنرال شوارزكوف يشاطره هذ الرأي، بهدف تفادي حرب بريّة دموية يمكن أن تؤدي إلي دمار الكويت.

قبل اسبوعين قام فريق تخطيط الأهداف الأمريكي بتجميع لائحة تقليدية بعض الشيء للأهداف العراقية ذات الأولوية: الدفاعات الجوية العراقية، المهابط والطائرات، مواقع الصواريخ متوسطة المدى بما في ذلك صواريخ أرض - أرض من طراز سكود، مراكز الاتصال والقيادة، مصانع الذخيرة والمواقع النووية، التشكيلات العسكرية العراقية...

«هذه قائمة أهداف لطيفة ظريفة، وأنا على استعداد لقبولها. لكنها ليست كافية»، هكذا قال الجنرال دوغان، طالباً من واضعي القائمة أن يحاوروا الأكاديميين والصحفيين وشبه العسكريين والفاريّن العراقيين لتحديد «ما هو فريد في الثقافة العراقية، ويحظى بقيمة عالية. ما الذي يمكن أن يتسبب في احداث صدمة نفسية للسكان والنظام في العراق»؟ وذكر دوغان ان الهدف هو العثور على «مراكز ثقل، حيث تتمكن القوى الجوية من صنع الفارق في وقت مبكّر». وقال دوغان: «المصادر الاسرائيلية نصحتنا بأن أفضل وسيلة للتأثير على صدّام هي استهداف افراد أسرته وحرسه الشخصي وحتى عشيقته. ولأن صدّام ممثل العرض الوحيد في العراق، فلا بد أن يكون محور هدفنا حين يندلع العنف. انها

ستراتيجية عسكرية تعرف باسم قطع الرأس».

وختم دوغان حديثه بالقول انه أكدّ لفوج من طياري F - 15 بأن الامريكيين «سيدعمون العملية زمناً أطول مما تظنون. الشعب الامريكي سيدعم العملية حتى يبدأ وصول أكياس الجثث الى الوطن».

* * *

في كتابه «الآمرون» The Commanders يروي بوب وودورد أن كولن باول، رئيس هيئة الأركان المشتركة، وديك شيني، وزير الدفاع الامريكي، فوجئا بنشر تعليقات دوغان في الصحيفة المذكورة. ولقد طلب شيني إذن جورج بوش باعفاء الجنرال دوغان من منصبه، وأن الأخير وافق على ذلك رغم انه فهم التصريحات للوهلة الأولى على انها «مناورة نفسية» من البنتاغون لارهاب صدام حسين. ويروي وودورد أن شيني استدعى دوغان الى مكتبه، وعرض عليه تسع نقاط خطيرة واردة في تعليقاته، قبل أن يبلغه أمر الاعفاء:

- لقد كشف عن محاكمة عقلية شنيعة.
- ناقش خططاً عملياتية ولائحة بالأهداف ذات الأولوية.
- نصّب نفسه ناطقاً باسم رئاسة الأركان المشتركة وآمر عمليات.
- أعطى مثالاً سيئاً للآخرين، خصوصاً في سلاح الجو.
- تعامل مع منظور الخسائر بطريقة فروسية.
- قال بأننا سنخرق الأمر الاداري الذي يحظر الاشتراك في الاغتيال.
- أعطى ايحاء بمعلومات مكتومة حول حجم ومواضع قواتنا.
- أنكر دور الصنوف الأخرى.
- أثار مسائل ذات حساسية دبلوماسية مثل الحصول على معلومات اسرائيلية حول الأهداف.

ولقد تبيّن بعد ذلك - وخلال الأطوار الثلاثة من الحرب الجوية - أن الجنرال دوغان كان على حق. طائرة الآباشي الامريكية، التي نفذت العملية الأولى من عمليات حرب الخليج، قامت بقصف محطة كهرباء!

ملحق (٥)

مفردات حول عالمَيْن

(جميع المفردات الواردة في هذا الجدول المقارن أخذت من الصحافة البريطانية ـ بصورة حرفية ـ في الاسبوع الأول من الحرب).

العالم الأول	العالم الثاني
نحن نملك :	**هم يملكون :**
ـ جيشاً وبحرية وقوات جوية	ـ آلة عسكرية شريرة
ـ مبادىء توجيهية في التقارير الصحفية	ـ رقابة
ـ اجتماعات لوضع الصحافة في الصورة	ـ دعاوة مبتذلة
نحن :	**هم :**
ـ نخرج اليهم	ـ يدمّرون
ـ نضغط عليهم	ـ يدمّرون
ـ نحيّدهم	ـ يقتلون
ـ نصفيهم أو نعزلهم	ـ يقتلون
ـ نقطع خطوط امداداتهم	ـ يقتلون
ـ نتحصّن في الخنادق	ـ يختبئون في الجحور
نحن نشن :	**هم يشنون :**
ـ ضربات أولى	ـ هجمات صاروخية مختلسة
ـ بشكل وقائي متوقع	ـ يهجمون دون أن نستفزهم
رجالنا :	**رجالهم :**
ـ فتيان	ـ قوات
ـ شبّان	ـ قطعان
فتياننا :	**هم :**
ـ محترفون	ـ غسلت أدمغتهم
ـ قلوب الأسد	ـ نمور من ورق
حذرون	ـ جبناء

- واثقون من أنفسهم
- أبطال
- أمثلة في الجرأة
- فرسان السماء الشباب
- مخلصون
- جرذان الصحراء
- عقلاء
- شجعان

فتياننا يحركهم:

- الإحساس العالي بالواجب

فتياننا:

- يحلقون في قلب الجحيم

عدم الرد الاسرائيلي:

- عمل يدلّ على وعي سياسي رفيع

صواريخنا تسبب:

- ضرراً مجاوراً

نحن:

- نسدّد على أهدافنا بدقة

جورج بوش:

- في سلام مع نفسه
- متعقل
- رجل دولة رصين
- واثق

- يائسون
- محاصرون خائفون
- أمثلة في التعطش للدم
- أوغاد بغداد
- ممتثلون بشكل أعمى للأوامر
- كلاب مسعورة
- لا رحمة في قلوبهم
- مهووسون متطرفون

فتيانهم يحركهم:

- الفزع من صدام حسين

فتيانهم:

- يرتعدون هلعاً في الملاجئ

عدم الرد العراقي:

- عمل يدل على الجبن والخسة

صواريخهم تسبب:

- خسائر في صفوف المدنيين

هم:

- يطلقون برعب على أي شيء يتحرك في السماء

صدام حسين:

- مجنون ملتاث
- مستفز
- طاغية شرير
- وحش مضطرب

ملحق (٦)

الإسهام المادي في حرب الخليج

(الدول الـ١٨ الأولى، مرتبة حسب الناتج القومي الاجمالي للفرد)

الدولة	الحصة من الناتج القومي الاجمالي، لعام ١٩٨٩٪	الاسهام	الواردات النفطية كنسبة مئوية من استهلاك الطاقة
سويسرا	١,٤	*	٤٠
اليابان	٢٠,٦	٦٣٤ مليون	٥٤
فنلندا	٠,٨	*	٤٦
النروج	٠,٧	سفينة خفر سواحل	-
السويد	١,٣	*	٢٦
الولايات المتحدة	٣٧	٥٠٠ مليون (مليار يوميا)	١٨
المانيا	٩	٢٧٢	٣٧
الدانمرك	٠,٧	*	١٩
كندا	٣,٥	سفن وطائرات وعناصر دعم	-
فرنسا	٧,١	سفن وطائرات وقوات	٤٠
الامارات العربية المتحدة	٠,٢	٥٥٠ مليون	-
	٠,٩	*	٣٣
بلجيكا	١,١	سفن وطائرات نقل	٤٠
الكويت	٠,٢	٢,٥ مليار	.
هولندا	١,٧	فرقاطتان *	٣٠
ايطاليا	٦,٢	فرقاطات وطائرات مقاتلة	٥٧

بريطانيا	٥,٩	٥٥ مليون يومياً	
استراليا	١,٧	سفن	٧
السعودية	٠,٦	٧٦٠ مليون + ٤٠ مليون يومياً	-
كوريا الجنوبية	١,٥	٥٠ مليون	٥٠

* دول تقدم مساعدات اقتصادية وانسانية.

مساهمون آخرون : آيسلنده، لوكسمبورغ، ماليزيا، تايوان.

ملحق (٧)

القوات «الحليفة» *

الدولة	عدد القوات	النسبة إلى اجمالي قوات التحالف٪
١ - الولايات المتحدة الاميركية	٤٢٥,٠٠٠	٦١,٦٠
٢ - تركيا	١٠٠,٠٠٠	١٤,٥٠
٣ - السعودية	٦٧,٥٠٠	٩,٧٨
٤ - بريطانيا	٣٥,٠٠٠	٥,٠٧
٥ - مصر	٣٠,٠٠٠	٤,٣٥
٦ - سوريا	٢٠,٠٠٠	٢,٩٠
٧ - فرنسا	١٧,٠٠٠	٢,٤٦
٨ - الكويت	١١,٥٠٠	١,٦٧
٩ - باقي دول مجلس التعاون الخليجي	١٠,٠٠٠	١و٤٥
١٠ - الباكستان	١٠,٠٠٠	١,٤٥
١١ - بنغلادش	٥,٠٠٠	٠,٧٢
١٢ - كندا	١,٨٠٠	٠,٢٦
١٣ - ايطاليا	١,٥٠٠	٠,٢٢
١٤ - المغرب	١,٥٠٠	٠,٢٢
١٥ - هولندا	٩٥٠	٠,١٤
١٦ - استراليا	٨٤٠	٠,١٢
١٧ - بلجيكا	٦٢٠	٠,٠٩
١٨ - النيجر	٥٠٠	٠,٠٧
١٩ - السنغال	٥٠٠	٠,٠٧
٢٠ - اسبانيا	٥٠٠	٠,٠٧
٢١ - السويد	٥٠٠	٠,٠٧
٢٢ - بولونيا	٤٠٠	٠,٠٦
٢٣ - الدانمرك	٣٠٠	٠,٠٤
٢٤ - الارجنتين	٢٠٠	٠,٠٣

٢٥ ـ تشيكوسلوفاكيا	٢٠٠	٠,٠٣
٢٦ ـ اليونان	٢٠٠	٠,٠٣
٢٧ ـ سيراليون	٢٠٠	٠,٠٣
٢٨ ـ نيوزيلندا	١٣٢	٠,٠٢

* بتاريخ ١٧/١/١٩٩١

ملحق (٨)

أسعار «الحرب التكنولوجية الراقية»

السلاح	الوصف	السعر بملايين الدولارات
F-114	مقاتلة متمركزة على حاملة طائرات	٣٨
آباشي AH-64A	طائرة هليكوبتر مقاتلة	١٠
F-15E	طائرة مقاتلة بعيدة المدى	٣١
A-10	مقاتلة مضادة للدروع	٩
F-16	مقاتلة قاذفة	١٢
M-1	دبابة	٢
F-117A (ستيلث)	مقاتلة لا ترى بالرادار	٤٦
توماهوك	صاروخ عابر للبحر	١
M2 Bradley	عربة مقاتلة	٢

تسلسل الأحداث من ١٧ تموز
حتى ١٧ كانون الثاني

١٧ ـ ١٨ تموز/ يوليو ٩٠: * الرئيس العراقي صدام حسين يتهم الكويت والامارات العربية المتحدة باغراق الأسواق بالنفط وخفض الأسعار بما يكلّف العراق ١٤ مليار دولار كخسارة في عائدات النفط. ويتهم الكويت بسرقة ما يعادل ٢,٤ مليار دولار من النفط العراقي من آبار الرميلة على طول الحدود المتنازع عليها بين البلدين. الكويت يرفض الاتهامات العراقية، كما رفض قبل ذلك مزاعم العراق حول حقوق في جزيرتي «وربه» و«بوبيان». السيطرة على هاتين الجزيرتين تمنح العراق مطّلاً على البحر حُرم منه منذ أن قامت بريطانيا برسم حدود عشوائية بين البلدين.

٢٥ تموز/ يوليو ٩٠: * سفيرة الولايات المتحدة في العراق أبريل غلاسبي تلتقي مع الرئيس العراقي وتقول: «ليس لدينا رأي حول النزاعات العربية ـ العربية، مثل خلافكم الحدودي مع الكويت... اذا لم تتمكن من إيجاد حلّ فسيكون من الطبيعي أن لا يقبل العراق الموت».

١ آب/ اغسطس ٩٠: * بعد جلسة واحدة يوقف العراق محادثاته مع الكويت في جدّة، حول تسبب استخراج النفط والنزاع الحدودي.

٢ آب/ اغسطس ٩٠: * القوات العراقية تدخل الكويت وتحتل العاصمة. الشيخ جابر الأحمد الصباح يفرّ إلى السعودية ويؤسس حكومة في المنفى. تعلن حكومة الكويت الحرّة المؤقتة سيطرتها الكاملة على البلاد.

* الرئيس الأميركي جورج بوش يوقع أوامر ادارية بحظر التجارة الأميركية مع العراق باستثناء المواد الضرورية مثل الأدوية، ويجمّد ٣٠ مليار دولار من الودائع العراقية والكويتية. يصوّت مجلس الممثلين الأميركي على فرض العقوبات الاقتصادية على العراق بأغلبية ٤١٦ ـ مقابل لا شيء.

* خلال اجتماعهما في الولايات المتحدة، يدعو جورج بوش ورئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر إلى فرض العقوبات الاقتصادية على العراق.

* بريطانيا وفرنسا تجمدان الودائع الكويتية. تدين الدول الاثنا عشر لمجلس التعاون الأوروبي الغزو العراقي. الاتحاد السوفييتي يعلّق تصدير الأسلحة إلى العراق.

* المسؤولون الأميركيون يرسلون سبع سفن حربية تقودها حاملة الطائرات USS Independence إلى منطقة الخليج عبر المحيط الهندي، ويحوّلون مسار حاملة الطائرات USS Eisenhower إلى شرق البحر الأبيض المتوسط. مجلس الأمن الدولي يصدر القرار

رقم ٦٦٠ الذي يدين الغزو العراقي للكويت ويطالب العراق بالانسحاب الفوري، بأغلبية ١٤ - ٠ - ١ (امتناع اليمن).

* وزير الدفاع الاسرائيلي موشيه آرنز يطالب بفرض العقوبات الاقتصادية على العراق.

* بريطانيا تعلن ارسال فرقاطتين إلى الخليج للانضمام إلى المدمرة HMS York وثلاث سفن حربية أخرى موجودة هناك.

* يعلن جورج بوش: «نحن لا نناقش التدخل، ولا نفكر في إرسال قوات». في تصريح آخر بعد ساعات، يقول: «نحن لم نعتمد أي خيار، ولم نستبعد أي خيار».

٣ آب/ اغسطس ٩٠: * اجتماع مجلس الجامعة العربية في القاهرة. ١٤ بلداً تصوت على قرار يطالب بانسحاب القوات العراقية الفوري.

* وزير الخارجية الأميركي جيمس بيكر والسوفييتي شيفارنادزه يصدران اعلاناً مشتركاً في موسكو يدعو إلى وقف عالمي لشحنات الأسلحة إلى العراق.

* اليابان وألمانيا وبلجيكا وايطاليا وهولندا تجمد الودائع العراقية والكويتية.

٤ آب/ اغسطس ٩٠: * المجموعة الأوروبية تقرّر فرض العقوبات الاقتصادية على العراق، بما في ذلك تصديره للنفط.

* التلفزيون العراقي يعلن تشكيل الحكومة الكويتية من تسعة ضباط كويتيين.

٥ آب/ اغسطس ٩٠: * بوش يرسل وزير الدفاع ريشارد شيني إلى السعودية لمقابلة الملك فهد، الذي يوافق على السماح بنشر القوات الأميركية على الأرض السعودية.

* اليابان تفرض العقوبات الاقتصادية على العراق وتحظر استيراد نفطه.

* الصين توقف شحنات الأسلحة إلى العراق.

* جورج بوش يقول: «هذا العدوان لن يستمر... هذا العدوان لن يستمر. راقبوا وافهموا».

* ٢٢٥ من المارينز الأميركيين يهبطون في ليبيريا بحجة حماية المواطنين الأميركيين وسط حرب أهلية تجتاح ذلك البلد.

٦ آب/ اغسطس ٩٠: * حاملة الطائرات الأميركية USS Saratoga، ترافقها مجموعتها القتالية المؤلفة من ٢١٠٠ مارينز، والسفينة الحربية USS Wisconsin التي تحمل صواريخ موجهة من البحر وغواصات هجومية، تغادر ميناء نورفولك في فرجينيا، متوجهة إلى البحر الأبيض المتوسط للانضمام الى «أيزنهاور». السفن تحمل طائرات F.14، F.18 وصواريخ «توماهوك».

* الولايات المتحدة وبريطانيا تصرّحان بأنهما مستعدتان لتطبيق حصار بحري على العراق لفرض الحظر الاقتصادي.
* بريطانيا وفرنسا ترسلان المزيد من القوات البحرية إلى المنطقة.
* مجلس الأمن يصوّت على القرار ٦٦١ القاضي بفرض الحظر الاقتصادي على العراق بأغلبية ١٣ ـ ٠ ـ ٢ (امتناع كوبا واليمن). العراق هو الدولة الثالثة التي تخضع لاجراء كهذا بعد روديسيا وافريقيا الجنوبية، لكنه القرار الأكثر تشدداً في تاريخ المنظمة الدولية.

٧ آب/ اغسطس ٩٠: * عملية «درع الصحراء» تبدأ بنشر آلاف الجنود الأميركيين، والأفواج المدرعة والطائرات القتالية في السعودية. الفوج ٨٢ المجوقل يبدأ في التوافد مدشناً ما سيتحول إلى أكبر عملية انتشار عسكري في تاريخ الولايات المتحدة منذ حرب ڤييتنام، وأكبر عملية نقل جوي منذ الحرب العالمية الثانية. مصر توافق على مرور مجموعة «أيزنهاور» في قناة السويس في طريقها إلى بحر العرب.
* الرئيس التركي أوزال يقول بأن تركيا ستفرض العقوبات الاقتصادية على العراق وتمنع السفن من تحميل النفط العراقي، مغلقاً بذلك أنبوبي النفط العراقيين المارّين داخل الأراضي التركية.

٨ آب/ اغسطس ٩٠: * يعلن العراق ضمّ الكويت.
* يقدّر مسؤولون أميركيون أن حجم القوات الأرضية الأميركية سيبلغ ٥٠,٠٠٠ خلال شهر.
* جورج بوش يوجه كلمة متلفزة إلى الأميركيين يقول فيها: «مهمة قواتنا دفاعية محضة، لن تبدأ القتال، لكنها اذا اضطرت إلى ذلك ستدافع عن نفسها وعن أصدقائنا في الخليج».

٩ آب/ اغسطس ٩٠: * مجلس الأمن يصوّت على القرار ٦٦٢ القاضي برفض ضم الكويت، بالاجماع. تركيا تعد حلف الناتو بامكانات أكبر لاستخدام القواعد العسكرية على أرضها.
* المسؤولون الأميركيون يطالبون الحلفاء بإرسال قوات تنضم إلى القوات الأميركية الموجودة في السعودية.

١٠ آب/ اغسطس ٩٠: * البنتاغون يستأجر طائرات تجارية لنقل القوات (من الخطوط الأوروبية الشرقية أيضاً) وطائرات شحن لنقل المعّدات العسكرية. خطط الانتشار العسكري الأميركي للقوات الجوية تتضمن: ٣ أفواج من مقاتلات F.16، حوالي ١٠٠ طائرة مضادة للدبابات من نوع A-10، ٢٤ مقاتلة من طراز F-117 (ستيلث)، ١٢ مقاتلة بحرية من نوع AC-130، ١٨ قاذفة من نوع F-111، ٢٤ قاذفة ستراتيجية من نوع B-52 وعدداً كبيراً من طائرات النقل

.C-130

* يضاعف مسؤولو البنتاغون عدد القوات الأميركية، ليبلغ ١٠٠,٠٠٠.

١١ آب/ اغسطس ٩٠: * قوات مصرية ومغربية تبدأ انزالها في السعودية.

* سورية تعلن انها سترسل ٤٠٠٠ مقاتل للالتحاق بالقوات التي تقودها أميركا.

١٢ آب/ اغسطس ٩٠: * يعلن المسؤولون الأميركيون أن قوات البحرية الأميركية تلقّت الأوامر باستخدام القوة في فرض الحظر الاقتصادي على العراق، بما في ذلك اعتراض البواخر التي تحمل الأغذية. في ذروة نشاط الانتشار بلغ معدّل الانزال الأميركي طائرة كل عشر دقائق.

* فرنسا ترسل حاملة الطائرات «كليمنصو» إلى الخليج، مع ٦٠ مقاتل من الوحدات الخاصة و١٤٠ من المشاة.

* مئات الآلاف من المتظاهرين في الأردن والضفة الغربية وقطاع غزّة وليبيا وموريتانيا والسودان واليمن وعشرات العواصم الإسلامية، يعلنون احتجاجهم على الحملة الصليبية الجديدة التي تقودها أميركا. بعض التقارير الصحفية تشير إلى حدوث تظاهرات احتجاج في سوريا، وفي مناطقها الشرقية على وجه الخصوص.

* وزير الدفاع الأميركي شيني يعلن أنه «ما من سقف لانتشار القوات الأميركية».

١٣ آب/ اغسطس ٩٠: * بريطانيا تعلن أن قواتها البحرية باتت مستعدة لفرض الحصار الاقتصادي بالقوة. العراق يعلن أن الرعايا الغربيين لن يغادروا العراق والكويت.

١٥ آب/ اغسطس ٩٠: * حاملة الطائرات الأميركية USS John F. Kennedy مع مجموعتها القتالية تغادر إلى البحر الأبيض المتوسط.

* العراق يعرض على إيران تسوية دائمة بتنازلات واسعة، يتوصل الطرفان إلى اتفاق بسرعة قياسية.

١٦ آب/ اغسطس ٩٠: * الأمين العام للأمم المتحدة خافيير بيريز ديكويلار يقول ان قيام الأميركيين منفردين بفرض الحصار الاقتصادي بالقوة يعدّ خرقاً لميثاق الأمم المتحدة.

* حوالي ٥٠,٠٠٠ شخصاً يتظاهرون أمام السفارة الأميركية في صنعاء مطالبين بالانسحاب الفوري للقوات الأميركية.

* جورج بوش - وفقاً لرواية الصحفي الأميركي بوب وودورد - يوقّع «تعميماً» سرّياً للغاية يخوّل المخابرات المركزية الأميركية .C.I.A باتخاذ الاجراءات التي تراها مناسبة لاسقاط صدام حسين، وتجنيد من تراه مناسباً في هذا الصدد.

١٧ آب/ اغسطس ٩٠: * البنتاغون يعلن اللجوء إلى برنامج احتياطي لم يجر استخدامه منذ

عـام ١٩٥٢ ، يعـرف باسم «الأسطول الجوي المدني الاحتـيـاطي» يقضي باستخدام طائرات النقل المدنية لأغراض عسكرية.
* وزير الدفاع الأميركي يغادر إلى المملكة العربية السعودية في جولة ستقوده إلى عدة بلدان بهدف الحصول على اذن باستخدام القوات الأميركية لأرض ومطارات تلك البلدان.

١٨ آب/ اغسطس ٩٠: * السفن الأميركية تطلق طلقات تحذيرية على ناقلات نفط عراقية.
* مجلس الأمن الدولي يتخذ القرار رقم ٦٦٤ بالاجماع، الذي يطالب العراق بالسماح للرعايا الأجانب في العراق والكويت بالعودة إلى بلادهم.

٢١ آب/ اغسطس ٩٠: * بلجيكا وايطاليا وهولندا واسبانيا تعلن أنها سترسل سفناً حربية إلى منطقة الخليج. ألمانيا الغربية ترسل كاسحات ألغام إلى شرق المتوسط للتعويض عن القطع التي غادرت إلى الخليج.

٢٢ آب/ اغسطس ٩٠: * ادارة بوش تبدأ في استدعاء الاحتياط للخدمة في اختصاصات غير قتالية في منطقة الخليج. هذه هي المرة الاولى منذ هجوم Tet في ڤييتنام عام ١٩٦٨، التي تلجأ فيها أميركا إلى هذا الاجراء.

٢٤ آب/ اغسطس ٩٠: * القوات العراقية تحاصر السفارات الأجنبية في مدينة الكويت وتقطع عنها الماء والكهرباء بعد رفضها الانتقال إلى بغداد.

٢٥ آب/ اغسطس ٩٠: * مجلس الأمن الدولي يصوّت على القرار ٦٦٥ بأغلبية ١٣ - ٠ - ٢ (امتناع كوبا واليمن عن التصويت) القاضي بتخويل الدول الأعضاء «استخدام تلك الاجراءات التي تفرضها الضرورة» ضد العراق لفرض الحظر الاقتصادي. انها المرة الأولى التي يمنح فيها مجلس الأمن سلطة استخدام القوة لفرض الحظر الاقتصادي.

٢٦ آب/ اغسطس ٩٠: * عدد القوات الأميركية يبلغ الآن ٤٥,٠٠٠.
* تذكر تقارير صحفية أن قوات سورية واسعة تتجه إلى المدن الحدودية مع العراق تحسباً لاضطرابات شعبية.
* وزير الخارجية السوڤييتي شيفارنادزه يقول ان الاتحاد السوڤييتي لا يعترض على استخدام القوة العسكرية لحصار العراق.

٢٩ آب/ اغسطس ٩٠: * ١٣ عسكرياً أميركياً يقتلون حين تتحطم طائرة في ألمانيا الغربية أثناء توجهها إلى الخليج.

٣٠ آب/ اغسطس - ١ أيلول/ سبتمبر ٩٠: * وزراء خارجية ١٣ دولة عربية يجتمعون في القاهرة. الجزائر والعراق والأردن وموريتانيا ومنظمة التحرير الفلسطينية والسودان وتونس واليمن تقاطع الاجتماع.
* طائرات الخطوط الجوية العراقية تنقل بعض الرعايا الأجانب إلى بلادهم (معظمهم من النساء والأطفال).
* الهند تطلب موافقة الأمم المتحدة على إرسال حمولة سفينة من المواد الغذائية إلى الكويت لعشرات الآلاف من رعاياها الذين

يعانون من نقص مريع في الأغذية. المصاعب المأساوية ذاتها تطال عشرات الآلاف من رعايا سريلانكا، الفيليبين، ڤييتنام وسواها.

٤ أيلول/ سبتمبر ٩٠: * الرئيس السنغالي عبدو ضيوف يعلن أنه سيرسل ٥٠٠ مقاتل للانضمام إلى القوات المتحالفة ضد العراق.

٥ أيلول/ سبتمبر ٩٠: * بريطانيا وفرنسا توقفان مبيعات الأسلحة إلى الأردن.

٦ أيلول/ سبتمبر ٩٠: * اللاجئون الذين عبروا إلى الأردن من العراق والكويت يبلغ عددهم ٦٠٠,٠٠٠، معظمهم من الهند والباكستان وبنغلاديش وتايلاند والفيليبين.

٧ أيلول/ سبتمبر ٩٠: * بريطانيا تسقط الڤيتو الذي رفعته طويلاً داخل المجموعة الاوروبية ضد تقديم المساعدات إلى سوريا.

* النيجر تعلن قرارها بإرسال قوات إلى السعودية.

٩ أيلول/ سبتمبر ٩٠: * بوش وغورباتشوف يلتقيان في هلسنكي، فنلندا.

١٠ أيلول/ سبتمبر ٩٠: * العراق وايران يستأنفان العلاقات الدبلوماسية. تذكر التقارير الصحفية أن تجارة الأغذية والنفط والبضائع الأخرى تتواصل بين البلدين.

١٢ أيلول/ سبتمبر ٩٠: * الزعيم الايراني آية الله علي خامنئي يدين الحشد الأميركي في الخليج.

١٣ أيلول/ سبتمبر ٩٠: * القوات البحرية الأميركية تبدأ في تفتيش السفن بمعدل ٣ ـ ٤ سفن يومياً، في البحر الأحمر بشكل رئيسي.

* مجلس الأمن يتخذ القرار ٦٦٦ بأغلبية ١٣ ـ ٢ (كوبا واليمن ضد المشروع) القاضي بتقنين شحنات الأغذية إلى العراق. المشروع الكوبي المضاد يخسر بأغلبية ٥ ـ ٣ وامتناع ٧ دول عن التصويت.

١٤ أيلول/ سبتمبر ٩٠: * السفن الحربية الأميركية والاسترالية تطلق طلقات تحذيرية على ناقلة عراقية وتصعد على ظهر ناقلة أخرى بالقوّة.

* بريطانيا تعلن أنها سترسل الفوج المدرع السابع مع ٨٠٠٠ عنصر و١٢٠ دبابة من طراز Challenger. كندا تعلن أنها ستنشر مجموعة مقاتلات من طراز CF-18. ايطاليا ترسل فرقاطة جديدة وثماني طائرات تورنادو.

* البنتاغون يقرّ مبيعات سلاح للسعودية بمبلغ ٢٠ مليار.

١٥ أيلول/ سبتمبر ٩٠: * عشرات الآلاف من العمال اليمنيين يبدأون بمغادرة السعودية بعد رفض السلطات تجديد رخص عملهم في المملكة. ويذكر أن حوالي ٢ مليون يمني يقيمون في السعودية.

* السعودية توقف شحنات النفط إلى الأردن، وميناء العقبة الأردني الحيوي يكاد يتوقف عن العمل بسبب الحظر.

١٦ أيلول/ سبتمبر ٩٠: * مجلس الأمن يتخذ القرار ٦٦٧ بالاجماع، والذي يحتج على

الانتهاكات العراقية لحصانة السفارات والبعثات الدبلوماسية في الكويت.
* مستشار ألمانيا الغربية هلموت كول يدعو إلى تعديل دستور ١٩٤٩، الذي يحظر على ألمانيا ارسال قوات خارج نطاق الحلف الأطلسي، ويقترح ارسال قوات ألمانية إلى الخليج في أسرع وقت ممكن.
* فرنسا ترسل ٤٠٠٠ عسكري اضافي مع دبابات وطائرات هليكوبتر ومقاتلات. القوة الفرنسية تبلغ بذلك ١٣,٠٠٠ مقاتل و١٤ سفينة حربية.

١٧ أيلول/ سبتمبر ٩٠: * حكومات المجموعة الأوروبية تطرد دبلوماسيين ورعايا عراقيين.
* اعلان مغادرة ٥٠٠ مقاتل سنغالي إلى منطقة الخليج.

٢١ أيلول/ سبتمبر ٩٠: * تركيا تبدأ حشداً عسكرياً على حدودها مع العراق، يبلغ ٥٩,٠٠٠ جندياً مع الدبابات والطائرات.
* حوالي ١٠٠٠ متظاهر في كادونا، نيجيريا، يتظاهرون أمام القنصلية الأميركية احتجاجاً على الحشد الأميركي.

٢٤ أيلول/ سبتمبر ٩٠: * الرئيس الفرنسي يلقي كلمة في الجمعية العمومية للأمم المتحدة يدعو فيها العراق إلى «اظهار نيته للانسحاب من الكويت واطلاق سراح الرهائن» قائلاً ان ذلك سيفتح الباب أمام حلّ تفاوضي و«كل شيء ممكن».
* مجلس الأمن يصوت على القرار ٦٦٩ بالاجماع، والذي يقرّ الحاجات المتزايدة للدول المتضررة من العقوبات الاقتصادية المفروضة على العراق بموجب القرار ٦٦١.

٢٥ أيلول/ سبتمبر ٩٠: * القوة الأميركية تبلغ ١٥٠,٠٠٠، والمزيد على الطريق.
* في خطابه أمام الجمعية العمومية يحذّر شيفارنادزه العراق أن «الأمم المتحدة تملك قوة قمع العدوان» ويقترح ضرورة أن يتوصل المجلس إلى تشكيل «قوة ردّ سريع» تتألف من وحدات «تسهم فيها عدّة دول، بما في ذلك الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن».
* مجلس الأمن يصوّت على القرار ٦٧٠ بأغلبية ١٤ ـ ١ القاضي بفرض الحصار الجوّي على العراق. كوبا تدين القرار وتعتبره تصعيداً للحرب من جانب الولايات المتحدة وحليفاتها، وتصوّت ضده.

٢٦ أيلول/ سبتمبر ٩٠: * عدد القوات الاحتياطية الأميركية (غير القتالية) المدعوة للالتحاق بمنطقة الخليج يبلغ ٢١,٠٠٠.

٢٧ أيلول/ سبتمبر ٩٠: * رئيس الوزراء الياباني توشيكي كايفو يقترح إرسال قوات يابانية خفيفة التسليح للقيام بمهمات غير قتالية داعمة للقوات المتحالفة.

في حال اقرار الاقتراح ستكون هذه المرة الأولى التي تستخدم فيها القوات اليابانية خارج اليابان منذ الحرب العالمية الثانية. الاقتراح يثير عاصفة من الجدل والاحتجاج في اليابان.

* حكومة كوريا الجنوبية تتعهد بتقديم ١٥٠ مليون دولار لدعم القوات الأميركية في الخليج.

* بريطانيا تستأنف العلاقات الدبلوماسية مع ايران، المقطوعة منذ عام ١٩٨٩ حين أصدر آية الله الخميني حكماً بالاعدام على الروائي سلمان رشدي.

* أسعار النفط تقفز إلى ٣٩ دولار للبرميل.

* رئيس الهوندوراس رافائيل كاليجاس يعلن استعداد بلاده لارسال قوات إلى الخليج.

٣٠ أيلول/ سبتمبر ٩٠: * الاتحاد السوفييتي يقيم علاقات دبلوماسية مع كوريا الجنوبية وعلاقات قنصلية مع اسرائيل للمرة الأولى. تاتشر تجتمع مع بوش وتقترح اتخاذ قرار في مجلس الأمن، يجبر العراق على دفع تعويضات عن آثار الحرب.

١ تشرين الاول/ اكتوبر ٩٠: * جورج بوش يلقي خطاباً في الجمعية العمومية يقول فيه: «في أيدينا تقع مسألة ترك آلات الحرب السوداء وراء ظهورنا وتدشين حركة تاريخية نحو نظام عالمي جديد وحقبة طويلة من السلام».

٢ تشرين الاول/ اكتوبر ٩٠: * حاملة الطائرات الأميركية Independence ومجموعتها القتالية تصل إلى الخليج - للمرة الثانية في تاريخ تحركات حاملات الطائرات الأميركية. تصل كذلك أربع قطع كاسحة للألغام، وتتمركز في الخليج وبحر العرب والبحر الأحمر. يبلغ مجموع الأسطول الأميركي في المنطقة ٥٤ قطعة.

* السفينة الحربية الفرنسية Douadart de Lagrée تطلق طلقات تحذيرية على ناقلة كورية. انها المرّة الخامسة التي تستخدم فيها القوّة منذ فرض الحصار على العراق.

٣ تشرين الأول/ اكتوبر ٩٠: * غورباتشوف يرسل مبعوثه الشخصي يفغيني بريماكوف إلى الأردن والعراق. تنسب صحيفة «ليتراتورنايا غازيتا» إلى بريماكوف قوله: «أعتقد أنه يتوجب علينا الانطلاق من حقيقة أن أزمة الخليج هي مختبر ومعيار لجهودنا في خلق نظام عالمي جديد بعد الحرب الباردة. الكثير يعتمد على التضامن السوفييتي - الأميركي، على النشاط المنسّق والجهد السياسي المشترك، وعلى الدعم المتبادل».

* الرئيس الفرنسي ميتران يبدأ زيارة لمنطقة الخليج.

* عدد القوات الأميركية يتجاوز الآن ١٧٠,٠٠٠.

٤ تشرين الأول/ اكتوبر ٩٠: * رئيس وزراء اليابان كايغو يزور الأردن ويعد بتقديم ٢٥٠ مليون دولار كقروض من أجل مواجهة آثار الحصار على الاقتصاد الاردني.

٨ تشرين الأول/ اكتوبر ٩٠: * الشرطة الاسرائيلية تطلق النار على فلسطينيين عزّل بالقرب من المسجد الأقصى، فتقتل ٢١ وتجرح ١٠٠.

٩ تشرين الأول/ أكتوبر ٩٠: * مجلس الأمن يبدأ نقاشاً حول مجزرة الأقصى. الولايات المتحدة تخشى انفراط عقد تحالفها في الخليج فترعى مشروع قرار يكتفي بادانة اسرائيل.

١١ تشرين الأول/ أكتوبر ٩٠: * المزيد من القوات الأميركية تغادر ألمانيا باتجاه الخليج.

١٢ تشرين الأول/ أكتوبر ٩٠: * مجلس الأمن يصوت بالاجماع على القرار ٦٧٢ الذي رعته الولايات المتحدة، والذي يدين «ممارسات العنف» الاسرائيلية ويطالب الأمين العام بإرسال بعثة لتقصّي الحقائق في اسرائيل وتقديم تقرير في نهاية تشرين الأول.

* البنك الدولي يعلن أن طلب ايران الحصول على قرض بقيمة ٣٠٠ مليون دولار قد يحظى بالموافقة، للمرة الأولى منذ ١١ عاماً.

١٣ تشرين الأول/ أكتوبر ٩٠: * سوريا تحكم سيطرتها العسكرية الفعلية على معظم المناطق اللبنانية بعد قصف مقرّ الجنرال ميشيل عون والدخول إلى بيروت الشرقية. وزارة الخارجية الأميركية تقول: «نأمل أن يطوي ذلك صفحة حزينة من تاريخ لبنان، وأن يتمكن الشعب اللبناني الآن من التقدم نحو لبنان الموحد والسيّد والمستقل».

١٤ تشرين الأول/ أكتوبر ٩٠: * الحكومة الاسرائيلية تؤكد أنها لن تتعاون مع بعثة تقصي الحقائق المرسلة من قبل الأمين العام للأمم المتحدة.

١٦ تشرين الأول/ أكتوبر ٩٠: * البرلمان الياباني يبدأ مناقشاته حول إرسال قوات يابانية إلى الخليج، وسط موجة احتجاجات عارمة.

١٧ تشرين الأول/ أكتوبر ٩٠: * بنك التنمية الآسيوي يعلن أن الأجور التي كان يحوّلها العمال الآسيويون في الخليج ستنخفض بمعدل ٧٥٠ مليون دولار خلال النصف الثاني من عام ١٩٩٠ بسبب أزمة الخليج. ويذكر أن هؤلاء يحوّلون ما مجموعه ١٠ ـ ١٢ مليار دولار سنوياً.

١٩ تشرين الأول/ أكتوبر ٩٠: * المسؤولون الأميركيون يعلنون ارسال ٤٠٠ ـ ٥٠٠ دبابة من طراز M.1. A.1. التي لم يسبق استخدامها. عدد الدبابات الأميركية يبلغ الآن ١٠٠٠ دبابة.

٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر ٩٠: * الآلاف يحتجون على الحرب في أكثر من ١٥ مدينة أميركية حاملين شعارات تقول: «أعيدوا القوات إلى الوطن فورا!»، «لا حرب من أجل أرباح شركات النفط!»، يتحدث في مظاهرتي نيويورك وسان فرانسيسكو بعض الاحتياطيين الذين رفضوا الذهاب إلى الخليج.

* عشرات الآلاف يتظاهرون أيضاً في بلدان أوروبية أخرى.
* لا يتلقى الأردن سوى ٤ مليون دولار من أصل مئات الملايين التي وعد بها.

٢٥ تشرين الأول/ أكتوبر ٩٠: * وزير الدفاع الأميركي شيني يعلن عزم الولايات المتحدة على ارسال ١٠٠,٠٠٠ جندي أميركي للانضمام إلى القوة التي تقدّر الآن بـ ٢١٠,٠٠٠، اضافة إلى ما يقارب ٢٠٠,٠٠٠ جندي من قوات التحالف الأخرى موجودة الآن في منطقة الخليج.
* مجلس الأمن يصدر قراراً جديداً يطالب فيه الحكومة الاسرائيلية بالتعاون مع فريق الأمم المتحدة لتقصّي حقائق مجزرة الأقصى.
* الرئيس اليمني علي عبدالله صالح يعلن أن أكثر من ٥٠٠,٠٠٠ يمني عادوا إلى اليمن منذ منتصف أيلول. عمليات الطرد ستكلف اليمن ٣٥٠ مليون دولار شهرياً.
* وزير الخارجية الكندي جوزيف كلارك يلقي كلمة في البرلمان الكندي يقول فيها ان حكومته مستعدة للانضمام إلى أي هجوم عسكري ضد العر ق دون انتظار موافقة الأمم المتحدة. ويقول: «الحرب ممكنة. وسيكون هناك آلاف الضحايا. ينبغي أن لا نستبعد عدم عودة شبّان كنديين إلى هنا للاحتفال بالنصر، وبقاءهم هناك للدفن في الصحراء». القوة الكندية تبلغ الآن ١٧٠٠ جندي.
* بريطانيا توافق على وضع قوتها (١٥,٠٠٠) تحت أمرة القيادة الأميركية. وتقول التقارير أن فرنسا وافقت على الشيء ذاته.

٢٨ تشرين الاول/ أكتوبر ٩٠: * قرار مضاعفة فترة الخدمة الاحتياطية من ١٨٠ يوماً إلى ٣٦٠ يوماً يضاف بتكتّم إلى فوائد الإنفاق العسكري الأميركي. الكونغرس يعلّق اجتماعاته، الميزانية الفدرالية تتحمل مبلغ ٧٠٠ مليون دولار من السلاح الأميركي لاسرائيل فوق المعدّل السنوي البالغ ٥ مليار.

٢٩ تشرين الاول/ أكتوبر ٩٠: * مجلس الأمن يصوّت على القرار ٦٧٤ بأغلبية ١٣ - ٠ - ٢ (امتناع اليمن وكوبا) والقاضي بقيام العراق بدفع تعويضات عن غزوها واحتلالها للكويت لجميع الأطراف المتضررة.

١ تشرين الثاني/ نوفمبر ٩٠: * الجنرال نورمان شوازركوف، قائد القوات الأميركية في الخليج، يقول: «اذا توجب علينا القتال فسأستخدم كلّ ما أملكه لإيقاع أكبر الخسائر في صفوف العدو». ويعد شوارزكوف «باستخدام نيران وتكنولوجيا هائلة التفوق والفعالية لاحداث أكبر تدمير ممكن في القوات العراقية، بأسرع وقت ممكن».

٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ٩٠: * الجندية الاحتياطية ستيفاني أتكينسون توضع قيد الاعتقال في سجن فورت كنوكس، كنتاكي، لرفضها الذهاب إلى السعودية. تقول أتكينسون: «لا أظن أن الولايات المتحدة ستنخرط في هذه

الحرب لأسباب نزيهة. اننا نحارب من أجل المال والنفط».

٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ٩٠: * معدلات استخراج النفط السعودي تبلغ ٨,٢ مليون برميل يومياً، قياساً على ٥,٤ في ٢ آب. هذه الزيادة تعيد المستوى العالمي إلى ما كان عليه قبل فرض حظر تصدير النفط العراقي والكويتي. السعودية بذلك حصلت على ما يعادل ٢٠٠ مليون دولار يومياً نتيجة الزيادة في سعر النفط.

* مسؤولون سوريون يعربون عن دعمهم لهجوم عسكري على العراق.

٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ٩٠: * البنتاغون يقرر استدعاء آلاف الاحتياطيين لأغراض قتالية على أساس الخدمة المضاعفة (٣٦٠ يوماً).

* الفصائل الأولى من الفرقة المدرعة التاسعة السورية تبدأ في الوصول إلى السعودية، مع ٢٧٠ دبابة. تنتشر القوات السورية في الخطوط الأمامية.

٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ٩٠: * يجتمع جيمس بيكر مع الملك فهد ويحصل على موافقة الأخير على اعطاء الولايات المتحدة هيكلية قيادية في شنّ هجوم عسكري على العراق حين ترى ذلك مناسباً.

٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ٩٠: * يجتمع جيمس بيكر مع وزير خارجية الصين كيان كيشان في القاهرة، ويحاول الحصول على تعهد الصين بعدم عرقلة قرار يتخذ في مجلس الأمن بتخويل الحلفاء استخدام القوة العسكرية.

٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ٩٠: * مارغريت تاتشر تقول في مجلس العموم البريطاني: «إما أن يخرج [صدام حسين] من الكويت بسرعة، أو سنخرجه منها بالقوة وسيتحمل عواقب الهزيمة بكل ما تعنيه».

* الرئيس المصري مبارك يقول ان الحرب محتمة اذا لم ينسحب العراق من الكويت، ويعلن دعمه لقرار من مجلس الأمن يخوّل بشنّ هجوم عسكري ضد العراق، كما يعلن أن فرقة مدرعة أخرى من ٤٠٠ دبابة و٧٠٠٠ رجل ستغادر إلى السعودية للانضمام إلى القوات المصرية الموجودة هناك.

* نائب رئيس المجلس الوطني الأفريقي نلسون مانديلا يزور باريس ويتهم الغرب بالنفاق في خطواته العدوانية ضد العراق، مشيراً إلى غزو الولايات المتحدة لكل من باناما وغرينادا، واحتلال اسرائيل لفلسطين.

* رئيس الوزراء الياباني يضطر لسحب اقتراحه حول إرسال قوات يابانية إلى السعودية.

٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ٩٠: * بيكر يجتمع مع غورباتشوف وشيفارنادزه في موسكو. للمرة الأولى تعرب القيادة السوفييتية عن دعمها لامكانية شن هجوم عسكري، في حين يقول شيفارنادزه: «قد يطرأ موقف يجعل

استخدام القوّة محتماً».
* أحزاب المعارضة اليابانية توافق مع الحكومة على إرسال وحدات مدنية من عسكريين متقاعدين للانضمام إلى القوات المتحالفة.
* يعلن بوش أن الولايات المتحدة بحاجة إلى تصعيد جديد من أجل «خيار عسكري فعّال». ويقرّر مضاعفة القوات المقاتلة بإرسال ٢٠٠,٠٠٠ جندي أميركي جديد إلى الخليج. أكثر من ٤٣٠,٠٠٠ سيتواجدون في مطلع ١٩٩١ (القوات الأميركية في ڤييتنام بلغت ٥٤٣,٠٠٠).
* المدمرّة الأميركية Missouri تنضم إلى الأسطول الأميركي.
* العراق يسمح بسفر ١٢٠ مواطن غربي بينهم ١٠٠ ألماني بعد قيام ڤيلي براندت بزيارة بغداد. قبل ذلك أفرج العراق عن ٣٣ بريطانياً اثر زيارة ادوارد هيث.

١٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ٩٠: * الكونغرس الأميركي يحث جورج بوش على أخذ موافقة الكونغرس المسبقة قبل الشروع في أي عمل عسكري.

١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ٩٠: * وكالة الأنباء العراقية تعلن أن الرئيس العراقي أبلغ وزير الخارجية الصيني استعداده للقيام بتضحيات من أجل السلام. الصين تعلن أنها لن تعرقل قراراً من مجلس الأمن يخوّل استخدام القوة.

١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ٩٠: * الرئيس العراقي يعلن استعداده للتفاوض. جورج بوش يرفض «أية مساومة على مبدأ الانسحاب» ويعلن ارسال ٧٢,٥٠٠ احتياطي جديد.

١٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ٩٠: * العراق يعلن أنه سيسمح بسفر جميع الرعايا (٢٠٠٠ من مختلف الجنسيات) بدءاً من هذا التاريخ وحتى أعياد الميلاد.

١٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ٩٠: * جورج بوش وميخائيل غورباتشوف يلتقيان في باريس خلال اجتماعات «مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي». الرئيس السوڤييتي يشدّد على ضرورة استنفاذ جميع فرص السلام.

٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ٩٠: * جورج بوش يزور القوات الأميركية في السعودية، والجنود الأميركيون يعربون عن نفاذ صبرهم. بريطانيا تعلن عن ارسال ١٤,٠٠٠ جندي اضافي.
* أكثر من ١٠٠ مواطن غربي يعودون إلى بلادهم من العراق.

٢٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ٩٠: * جورج بوش يلتقي بالرئيس السوري حافظ الأسد في جنيف في أول لقاء بين رئيس أميركي ورئيس سوري خلال ١٣ عاماً. يتفق الطرفان على رفض الغزو العراقي، ويعلن بوش بأن سوريا مستعدة للتعاون مع الحلفاء لتطبيق قرارات مجلس الأمن.

٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ٩٠: * طارق عزيز يزور موسكو ويسمع لهجة متشددة من الرئيس السوڤييتي.

٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ٩٠: * غورباتشوف يعلن دعمه لاستخدام القوة العسكرية.

٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ٩٠: * مجلس الأمن يصوّت على القرار ٦٧٨ بأغلبية ١٢ ـ ٢ ـ ١ (كوبا واليمن ضد القرار، والصين امتنعت عن التصويت)، الذي يخوّل الدول الأعضاء «استخدام جميع الوسائل الضرورية» ضد العراق اذا رفض الانسحاب من الكويت. المجلس يمنح العراق مهلة تنتهي بتاريخ ١٥ كانون الثاني ١٩٩١.

* عضو مجلس العموم البريطاني توني بين (حزب العمال) يعود من بغداد مع ١٣ مواطناً بريطانياً.

٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ٩٠: * جورج بوش يعرض محادثات مباشرة مع العراق، ويعلن دعوة طارق عزيز إلى واشنطن وإرسال جيمس بيكر إلى بغداد. يستاء السعوديون من هذا الاعلان الذي جرى دون التشاور معهم. في كتابة «الآمرون»، يروي بوب وودورد ما يلي عن هذا الاعلان: «كان بيكر هو الذي أوصى بوش بمهمة السفر إلى بغداد، وكان يفكر بهذا الاقتراح منذ أسابيع. بالنسبة لجيمس بيكر كانت الاعتبارات السياسية الداخلية لا تقل أهمية عن الامكانات الدبلوماسية. دعم الرأي العام للادارة بدأ يضعف، والسناتور سام نن يتحدى بوش، ورؤساء الأركان السابقين يشهدون أمام الكونغرس ضد السياسة العسكرية، والأمم المتحدة أعطت التخويل باستخدام القوّة مما أصاب الناس بالهلع. وفكرّ بيكر: لا بدّ للرئيس من وقف النزيف السياسي. حين نشرت صحيفة «واشنطن بوست» استطلاعاً للرأي يثبت أن ٩٠٪ من الأميركيين يدعمون ذهاب بيكر إلى بغداد، تلقى بندر [بن سلطان، السفير السعودي في واشنطن] ثلاث مكالمات هاتفية تلفت انتباهه إلى هذا الدعم: من سكاوكروفت وبيكر وشيني».

١ كانون الأول/ ديسمبر ٩٠: * الرئيس العراقي يعلن موافقته على المحادثات، لكنه يربطها بالقضية الفلسطينية.

٥ كانون الاول/ ديسمبر ٩٠: * يتحدث بيكر أمام الكونغرس عن مهمته القادمة: «اذا توجب استخدام القوة فإن هدفنا سيكون استخدامها بشكل مفاجىء وشامل وحاسم».

* اسرائيل تقول انها لن تقبل بأقلّ من ازاحة صدام حسين، وإلا لن تقف مكتوفة الأيدي.

٦ كانون الثاني/ ديسمبر ٩٠: * الرئيس العراقي يأمر بالسماح بسفر جميع الرعايا الأجانب مع الاعتذار منهم عن أي أذى أصابهم.

* جورج بوش يقسم على مواصلة الضغط حتى اخراج العراق من الكويت.

٩ كانون الأول/ ديسمبر ٩٠: * الولايات المتحدة ترفض موعد ١٢ كانون الثاني الذي حدده العراق للقاء بيكر. الأخير يقول ان الولايات المتحدة عرضت

أربعة مواعيد بين ٢٠ كانون الأول و٢ كانون الثاني.

١٠ كانون الأول/ ديسمبر ٩٠: * أكثر من ١٠٠ بريطاني يصلون إلى انكلترا من العراق، و٣٨٤ آخرين ينتظرون دورهم.

١١ كانون الأول/ ديسمبر ٩٠: * جورج بوش يعد رئيس وزراء اسرائيل اسحق شامير بأن حلّ أزمة الخليج «لن يكون على حساب اسرائيل».

١٧ كانون الأول/ ديسمبر ٩٠: * بريطانيا تلجأ إلى استخدام الفصل العاشر من قانون الاحتياط البريطاني الذي لم يستخدم منذ الحرب الكورية. استناداً إلى ذلك يستدعي ١٥٠٠ عنصر جديد إلى الخدمة.

١٨ كانون الأول/ ديسمبر ٩٠: * المجموعة الأوروبية تستبعد أي لقاء مع طارق عزيز قبل لقائه مع جيمس بيكر.

* بوش يقول ان أية محاولة لشق التحالف العربي - الغربي عن طريق جرّ اسرائيل إلى الحرب ستبؤ بالفشل.

٢٠ كانون الأول/ ديسمبر ٩٠: * ادوارد هيث، رئيس الوزراء البريطاني الأسبق، يدلي بشهادته أمام الكونغرس الأميركي مطالباً بحلّ تفاوضي.

٢٤ كانون الأول/ ديسمبر ٩٠: * الرئيس العراقي يقول أن اسرائيل ستكون من الأهداف الأولى للعراق اذا نشبت الحرب.

* وسائل الاعلام الغربية تقول ان شيني وباول أبلغا الرئيس الأميركي أن القوات لن تكون مستعدة للحرب بتاريخ ١٥ كانون الثاني.

٢٥ كانون الأول/ ديسمبر ٩٠: * رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق شامير يقول: «كل من يجرؤ على ضرب اسرائيل سوف نرّد عليه بشدّةوبأقسى الوسائل المتاحة».

٣٠ كانون الأول/ ديسمبر ٩٠: * جورج بوش يقول في مقابلة مع مجلة «تايم» الأميركية: «لديّ احساس داخلي بأن صدام سينسحب».

٢ كانون الثاني/ يناير ٩١: * ميشيل فوزيل رئيس لجنة العلاقات الخارجية في الجمعية الوطنية الفرنسية يسافر إلى بغداد في «مهمة شخصية».

٣ كانون الثاني/ يناير ٩١: * جورج بوش يقترح محادثات مع العراق تجري في جنيف الأسبوع القادم.

٤ كانون الثاني/ يناير ٩١: * العراق يوافق على محادثات مع الولايات المتحدة في ٩ كانون الثاني. السوق الأوروبية تقرّر لقاء طارق عزيز بعد لقائه مع جيمس بيكر مباشرة.طارق عزيز يرفض اللقاء، معتبراً أنه فرض على المجموعة الأوروبية من قبل الولايات المتحدة.

٦ كانون الثاني/ يناير ٩١: * الرئيس العراقي يقول ان بلده مستعد لخوض «أم المعارك».

* ميشيل فوزيل يعود إلى باريس ويقول: «كل شيء ممكن شرط أن يبدي العراق علامة ما».

* وزارة الداخلية البريطانية تتخذ سلسلة اجراءات قمعية «ضد

العراقيين والمتعاطفين مع العراق».

٨ كانون الثاني/ يناير ٩١: * جون ميجور، رئيس الوزراء البريطاني، يزور القوات البريطانية في الخليج. الاتحاد السوفييتي يحتج على قيام القوات الأميركية بالصعود إلى ناقلة سوفييتية متوجهة إلى الأردن.

٩ كانون الثاني/ يناير ٩١: * لقاء بيكر - عزيز في جنيف ينتهي إلى الفشل بعد ست ساعات من المناقشات. طارق عزيز يرفض رسالة بوش إلى صدام حسين، وبيكر يقول انه لا توجد علامة واحدة على المرونة العراقية.

* جورج بوش يصدر أمراً باعطاء القوات المسلحة أولوية قصوى في التموين، والولايات المتحدةتبدأ باخلاء رعاياها من منطقة الخليج.

١٢ كانون الثاني/يناير ٩١: * مجلس الشيوخ والكونغرس يصوّتان لصالح الحرب بأغلبية ضئيلة.

١٣ كانون الثاني/ يناير ٩١: * الأمين العام للأمم المتحدة يزور بغداد ،ويعود دون نتيجة.

١٥ كانون الثاني/ يناير ٩١: * الرئيس الفرنسي يتهيأ لارسال وزير خارجيته إلى بغداد وطرح مبادرة في مجلس الأمن، لكن الولايات المتحدة وبريطانيا تعارضان الخطوة، ويسحب الفرنسيون مشروعهم قبل أن يرى النور.

١٦ كانون الثاني/ يناير ٩١: * مهلة القرار رقم ٦٧٨ تنتهي في الساعة الخامسة من صباح هذا اليوم بتوقيت غرينيتش.

* بندر بن سلطان يتصل من واشنطن بالملك فهد: قائلاً «صاحبنا سليمان سيكون عندكم في الساعة الثالثة صباحاً».

١٧ كانون الثاني/ يناير ٩١: * كان السفير السعودي يشير إلى ساعة بدء حرب الخليج، التي عرف بموعدها - وأبلغه لمليكه - قبل ساعات معدودات من وقوعها.

المساهمون في الكتاب

١ ـ ادوار سعيد: أستاذ الأدب المقارن في جامعة كولومبيا (الولايات المتحدة). من أبرز مؤلفاته «الاستشراق»، «تغطية الاسلام»، «القضية الفلسطينية».

٢ ـ محمد حسنين هيكل: الصحفي والمعلّق العربي المعروف. رئيس تحرير «الأهرام» سابقاً.

٣ ـ Neal Ascherson: صحفي بريطاني بارز. عمل مراسلاً في أوروبا الشرقية لكبريات الصحف البريطانية مثل «الغارديان» و«الأوبزرفر»، وغطّى معظم الأحداث الهامة في بولونيا والمانيا وتشيكوسلوفاكيا. من مؤلفاته: «شهر آب البولوني»، ١٩٨٢ و«الإرث النازي»، ١٩٨٤.

٤ ـ George W. Ball: عمل مساعداً لوزير الخارجية الامريكية من عام ١٩٦١ الى ١٩٦٦، ومندوباً للولايات المتحدة في الأمم المتحدة عام ١٩٦٨. تعرّض لاضطهاد المنظمات الصهيونية الأمريكية بسبب آرائه الليبرالية والنزيهة. من مؤلفاته: «دبلوماسية من أجل عالم مزدحم»، ١٩٧٦؛ «مبدأ القوة: ضرورات الهيكل العالمي الجديد»، ١٩٦٨؛ «للماضي نسق آخر»، ١٩٨٢.

٥ ــ Noam Chomsky: الألسني والمفكر الامريكي المرموق. من مؤلفاته السياسية: «القوة الامريكية وموظفو الامبراطوريات الجدد»، ١٩٦٩؛ «خوض الحرب ضد آسيا» ١٩٧٠؛ «لاعتبارات عليا»، ١٩٧٣؛ «السلام في الشرق الأوسط»، ١٩٧٤؛ «حقوق الانسان والسياسة الخارجية الامريكية»، ١٩٧٨؛ «التورط الامريكي في فاشية العالم الثالث»، ١٩٧٩؛ «نحو حرب باردة جديدة»، ١٩٨٢؛ «الثالوث المحتوم: الولايات المتحدة، اسرائيل، فلسطين»، ١٩٨٣؛ «قراصنة وأباطرة: الارهاب في العالم الحقيقي»، ١٩٨٧؛ «ثقافة الارهاب»، ١٩٨٨؛ «أوهام ضرورية: الرقابة على الفكر في المجتمعات الديمقراطية»، ١٩٨٩.

٦ ــ Alexander Cockburn: صحفي بارز إرلندي الأصل يكتب في الصحافة الامريكية. عرف بجرأته وحزمه تجاه ظواهر الفساد في السياسة الأمريكية، وفصل من عمله في Village Voice بسبب مقال ضد اللوبي الصهيوني. من مؤلفاته: «فساد امبراطورية: دراسات في حياة الحقبة الريغانية»، ١٩٨٨؛ «مصير الغابة: المعمّرون والمدمّرون والمدافعون»، ١٩٨٩.

٧ ـ Alain Gresh: محرر في «اللوموند دبلوماتيك» ومؤلف العديد من الدراسات حول الشرق الأوسط، بينها: «أبواب الشرق الأوسط المائة» (مع دومينيك فيدال).

٨ ــ Mary Kaldor: باحثة بريطانية مرموقة في العلاقات الدولية وسياسات التسلّح. استاذة في وحدة أبحاث العلوم السياسية بجامعة Sussex. من مؤلفاتها

«انحلال الغرب»، ١٩٧٨؛ «ترسانة الباروك»، ١٩٨١؛ «الوفاق الجديد: اعادة التفكير في علاقات الغرب بالشرق»، ١٩٨٩.

٩ ـ Henry Kissinger: وزير الخارجية الامريكي الأسبق.

١٠ ـ Charles Krauthammer: كاتب افتتاحيات امريكي محافظ، يكتب في «واشنطن بوست» و«تايم» و«شؤون خارجية». من مؤلفاته: «الحدود القاطعة: من أجل فهم عقد الثمانينات».

١١ ـ Ann McLesch: أستاذة العلوم السياسية في جامعة فيلانوفا، وعضو هيئة تحرير مجلة Middle East Report.

١٢ ـ Daniel Pipes: مدير «معهد أبحاث السياسة الخارجية» في فيلادلفيا. من مؤلفاته: «في درب الله: الاسلام والسلطة السياسية»، ١٩٨٥؛ «قضية رشدي»، ١٩٩٠ وسيصدر له قريباً: «سوريا الكبرى».

١٣ ـ Kevin Robins: باحث بريطاني بارز وكاتب دائم في مجلة «الماركسية اليوم».

١٤ ـ Andrew Stephen: مراسل صحيفة «الأوبزرفر» في واشنطن.

١٥ ـ Joe Stork: رئيس تحرير مجلة Middle East Report. له «نفط الشرق الأوسط وأزمة الطاقة».

١٦ ـ صبحي حديدي: كاتب ومترجم سوري. نقل الى العربية الأعمال التالية: «الفكر السياسي الاسلامي»، «طيران فوق عش الوقواق»، «ضجيج الجبل»، «الرواية والأسطورة»، «منعطف المخيلة البشرية»، «الاسطورة والمعنى».

فهرس المحتويات

ملاحق الكتاب: